

رواية

جان ماري جوستاف لكلزيو

سكة من ذهب

ترجمة / خليف عبد العزيز



0161755



Bibliotheca Alexandrina

دار الهدى للنشر والتوزيع

سمكة من ذهب

Poisson d'or
J.-M. G. Leclézio
Gallimard 1997

الكتاب: سمكة من ذهب

المؤلف: جان ماري جوستاف لكليزيو

ترجمة: خلف عبد العزيز

الناشر: دار الهدى للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: ٩٩/١١٥٧٠

الترقيم الدولي: I-35 - 977-5822 I.S.B.N.

جميع الحقوق محفوظة للناشر



المنيا - شاهين - 6 ش أحمد عرابي

المنيا - عدنان المالكي - 6 ش 15 - شقة 1

ت 086/354576 - 012/3454568

فاكس 086/346713

سمكة من ذهب

تأليف

جان ماري جوستاف لكزيو

ترجمة

خلف عبد العزيز

تعداديسر

لكايزيو وظاهرة التعداد اللغوي والمضاري

كان الروائي الفرنسي الشهير جى دى موباسان *Guy de Maupassant* كثيرا ما يشكو إلى معلمه الروائي العظيم جوستاف فلوبيير *Gustave Flaubert* وإلى محيطيه من المبدعين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ضيق الأفق الروائي وتبعيته النصية والموضوعية، وإمكانية محاكاته عبر الأساليب الروائية المختلفة. وربما سكن خلف هذا الاعتقاد الموباساني جدل فرنسي حول حماية النص من برائن التقليد والمسخ والمحاكاة، والذي صار بمثابة قضية عنيت بها مؤند جمهور النقاد والمبدعين في فرنسا على مدار القرن التاسع عشر، والذي يعد بحق من أخصب العصور الثقافية الفرنسية نظرا لتوافد وتعاقب شمول الحركات الأدبية والفكرية على الفضاء الأدبي الفرنسي، ونظرا للعلاقات التي أدارت نوعا من الحوار

الايديولوجى بين الحضارة والفكر الفرنسيين والحضارات الأوروبية المجاورة لفرنسا، مثل إنجلترا التى أوى إليها الكاتب الفرنسى فولتير فى القرن الثامن عشر، والذي نقل عنها إلى الفرنسيين عظمة كتابها والحريات العامة بها ومناهج الفكر فيها، وبين الحضارتين الفرنسية والألمانية من جانب آخر على أيدي أعلام التواصل والتقارب بين الحضارتين أمثال مدام دى ستايل *de Staël Madame*، وأيضا بين الحضارة الفرنسية والحضارات الأوروبية المتاخمة لفرنسا من جانب آخر كإيطاليا التى ظلت ومازالت تقبوا مقعدا رائعا بين روافد الثقافة الفرنسية فى العصور الحديثة، وأسبانيا التى أتيح لها اقتطاف ثمرات حضارتين متباعدتين، هما الحضارة العربية فى العصور الوسطى والحضارة الغربية التى أسهمت فيها بحمقتها عن طريق مخلفات وحصاد حضارة عربية بادت وتقهقرت إلى خلف البحر المتوسط بعدما تجاوزته وبسطت سلطانها الفكرى بفضل مفكرىها وعلمائها فى هذه البلدان. وما من شك أن هذا التلاقى بين هذه الحضارات جميعا تم إنجازه عبر الرحالة. ولقد عملت هذه الطقوس الترحالية على تأسيس مشروع ترحال للأفكار والموضوعات الأدبية بين هذه الحضارات منذ قرون عديدة. وظل هذا التواصل الحضارى يؤتى ثماره حتى نضج وتآصل فى القرن التاسع عشر.

لقد خلق هذا التقارب الحضارى - الذى يظل قضية يعنى بها الأدب المقارن منفردا - أصواتا عديدة فى النصوص الأدبية عامة والنصوص الروائية بصفة خاصة. فتمتعت موضوعات إنسانية بشيوع عالية وغذا تصور الأدب

الألماني - على سبيل المثال - لمشكلات العوز والوطنية والإنسانية يدهز ولا يتباعد عن مثيله في الآداب الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والأسبانية كثيراً.

وبالرغم من هذا الترحال الفكري بين هذه الآداب جميعاً وعظمة الصلات الفكرية بينها، إلا أن النص الروائي، باعتباره علامة لغوية من الطراز الأول، ظل سجين قصص الحضارة الواحدة، يعاني ندرة تنصيته وفضائه الحضاري الوحدوي الذي لا يتيح له التجول في فضاء لغوي آخر، ينتزع مفرداته وخصائصه اللغوية المحددة له.

لقد حاول بعض الأدباء العظام في العصور الحديثة خلق ما يمكن أن نطلق عليه "التعددية اللغوية" في النص، وتعميق صوت النص، وتعدد مكوناته اللغوية وتوجهاته الفكرية، وهي الدعوة التي استهلهها بعض المبدعين الأوروبيين مثل الروائي والفيلسوف الفرنسي فونتين في نزعتة العالمية بقصته، السانج *Candide*، وتشارلز ديكنز في رائعته الروائية، قصة مدينتين *A tale of two cities* بيد أن هذا المشروع التأسيسي وُثِدَ من جراء التطرف الحضاري الذي أدت إليه "الشعوبية القومية" ونمو الشعور المرضي بالعنصرية الثقافية في الأقطار الأوروبية التي مازالت - مع التلاحم الاقتصادي الحديث - تخضع لصوت الأقليات الفكرية بها والنسي تعدد التعددية اللغوية مشروعا تدميرياً لا حضارياً.

حتى أن التناسل *Intertextualité* باعتباره مشروعاً لغوياً

يستهو الكثرين من اللغويين فى العديد من التوجهات اللغوية العالمية، ونهجا التقى فيه اللغويون والمنظرون للأدب، لم يكشف لنا - رغم عمره الذى تجاوز الثلاثة عقود - عن عمق تعدد لغوى بالنصوص الأدبية، فلقد سعى فلاسفة ولغويون كثيرون مثل ميشيل ريفتار *Michel Riffaterre* وبير ريكاردو *Pierre Ricardou* ومارك انجنو *Marc Angenot* وبير لورت *Pierre Laurette* ومن قبلهما جوليا كريستفا *Julia Kristeva* إلى تحطيم الفرض القائل بفردية النص وتبعيته المطلقة لمؤلفه وذلك عن طريق القصور بأن لكل نص، نص قبلى أو نص إرجاعى *Interexte*، يدور فى فلكه النص. ولكن هذا التوجه اللغوى الذى القف حوله حشد من نقاد الأدب وجمع فقير من اللغويين فى أوربا وأمريكا، وعلى الرغم من دقة أدواته البحثية والنتائج الهائلة التى توصل إليها، ولاسيما فى تشريحه للأدب بصفة عامة وحقلى المسرح والرواية بصفة خاصة، فإنه قد توقف عند العثور على الحوار اللغوى والمعنوى بين نصين متباعدين عبر الزمان والمكان.

اليوم، لقد أصبح الحديث عن "الاستنباطية" *déductisme* فى الإبداع أمرا باليا إلى حد ما، فإذا كان فيكتور هوجو *Victor Hugo* قد صور الشرق وطبيعته فى ديوانه الشهير الشرقيات *Les Orientales* دون أن يراه، فإن ذلك التصوير لم يخرج خارج نطاق قفصه اللغوى الفرنسى وأصبح صوت النص، رغم اختلاف فضائه، منفردا، يتوافق ومعايير موجودة قبلا.

ومن بين الأعمال الأدبية التى تمثل ظاهرة التعددية اللغوية أو

تعدد الأصوات اللغوية، رواية سمكة من ذهب *Poisson d'or* للروائي جان ماري جوستاف لكليزيو *J. M. G. Leclézio* الذي ولد عام 1940، ولعلها من أفضل الأعمال الأدبية تمثيلا لهذه الظاهرة التي لم تلق حتى اليوم حصتها من الخطاب الأدبي، فالرواية - شأتها في ذلك شأن معظم أعمال لكليزيو - تعد رحلة قصيرة في الحضارات الإنسانية، في طقوسها وموروثاتها القومية المتباينة، إذ تتخذ شكلا دائريا من حيث أحداثها، اعتبارا من الهادئة التي تمتطي الرواية ومرورا بالحي اليهودي بالملكة المغربية مضيا ببباريس ومدينة نيس الفرنسية ثم بعض الولايات الأمريكية ونهاية بمسقط رأس البطلة، عشيرة الهلال، نلحظ الصوت التعددي للبطلة "ليلي" التي تنشط رويدا رويدا فتحمل أصواتا متعددة، فهي التي تحدثنا عن العرب المسلمين في حي الملاح اليهودي بالملكة المغربية، ثم تمضي بنا إلى فرنسا حيث تصف الحياة الباريسية وصفا تفصيليا رائعا، إلى حد أن المطابقة بين الوصف ومدينة باريس لا يقود إلى إظهار فارقا يذكر على الرغم من أن الأحداث تقع في الستينيات من هذا القرن، ثم تمضي ليلي أبعد من ذلك وت رسم حياة الساحل الفرنسية بمدينة نيس، ثم تعبر المحيط إلى العالم الآخر، حيث تمتزج في هذا العالم وتتفاعل معه، وما إن نجدها كذلك حتى تنتقل بنا إلى مدينة نيس ثم تعود إلى المكان التي بدأت رحلتها منه. وهي في كل هذه السيرة الروائية، لا تبدو غريبة، دخيلة على الفضاء الذي تحتله، بل نراها صوتا معبرا ينقل إلينا معطيات حضارة أخرى بأدق مفرداتها.

إن ليلى، العربية، الفرنسية، الأمريكية، ليست سوى إحدى أدوات لكليزيو الروائية التي يمسك بها ويوكل لها أن تؤدي دورا واحدا هو ما ذكره في رواية أخرى له حيث قال بأن العالم ليس سوى "محيط حى"⁽¹⁾ بالنسبة له. وهى تتخذ مسلكا كغيرها من شخصيات لكليزيو، فهى السجينة التى تمتد إليها شباك وشراك الآخرين كى يلحقون بجسدها وروحها العذاب، فلا تدعن، بل تمضى تسخر أدواتها الطفولية فى الخروج من قفصها، وتتقدم شيئا فشيئا حتى تنال حريتها.

ولعل الباعث إلى إقدامنا على تعريف هذا النص الأدبى هو حدثته واهتمامه بحضارتنا وبعض معطياتها الجوهرية، وكذلك تقديم هذا الروائى - الذى لم يزل حظه من الخطاب النقدى العربى رغم اهتمامه بحضارتنا العربية - إلى قراء العربية. ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن الأوساط الأدبية الفرنسية تضع لكليزيو فى مرتبة عالية بين صفوف الأدباء الفرنسيين فى القرن العشرين، فكتاباتة تتميز بسمة أفقها الروائى، وخروجها من القفص الفرنسى المعهود بمعطياتها العاداتية والتقليدية الفرنسية لتتخذ من الحضارات الأخرى منطلقا لها، فلقد تناولت رواياته أمريكا الشمالية والبلاد المتاخمة لفرنسا والهند وبعض الحضارات الشرقية الأخرى، فنظمت حوله المؤتمرات الأدبية، وتناولته الصحف والمجلات الأدبية، وعنى به الدارسون

(1) انظر

J.-M. G. Le Clézio, Terra Amata, Gallimard, 1967.

فى شتى الجامعات الفرنسية.

ومن أهم أعماله لكليزيو "المحضر الرسمي" *Le procès-verbal* و"الحمى" *1963 la fièvre*، و"الطوفان" *1966 Le déluge*، و"الأرض المحبوبة" *1967 Terra Amata*، و"الحرب" *la guerre*، و"العمالقة" *1970 les géants*، و"رحلات فى الجسائب الآخر" *Trois villes*، و"ثلاث مدن مقدسة" *1975 Voyages de l'autre côté*، و"الباحث عن الذهب" *1980 le chercheur d'or*، و"نجمة ضالة" *1992 étoile errante*، و"بوانسا" *1992 Pawana*، وأخيرا الرواية التى نعر بها هنا "سمكة من ذهب" *Poisson d'or*.

وفى النهاية لا نأمل إلا أن يكون هذا العمل منطلقا لحوار نقدى عام يحمل مسيرته الخطاب النقدى العربى.

المترجم





عندما كنت في السادسة أو السابعة من عمري اختلطت. لا أتذكر ذلك بحق، لأنني كنت صغيرة جدا آنذاك، وما عشته بعد ذلك محسا في هذه الذكرى. إنه على الأرجح حلم أو كابوس قديم مرعب يعاودني في بعض الليالي ويؤرقني حتى في نهاري؛ فيه أتذكر هذا الشارع الأبيض من الشمس، المترب والخالي، وهذه السماء الزرقاء، والصرخة المدوية لعصفور أسود، وفجأة يد رجل تلقيني في قاع حقيبة كبيرة ثم أكاد أختنق. إنها لالا⁽¹⁾ التي ابتاعتني.

(1) اسم إحدى شخصيات الرواية. (المترجم)

ولهذا لا أعرف اسمى الحقيقية الذى وهبتنى أمى إياه عند ولادتى، ولا أتذكر اسم أبى، ولا المكان الذى ولدت فيه، وكل ما أعلمه من أمرى، وهو ما قالت له لالا أسماء، أننى أتيتها ذات ليل ولهذا نقبتنى بليلى؛ فلقد جئت من الجنوب، من مكان بعيد جداً، ربما من مكان لم يمد له وجود الآن. وبالنسبة لى، ليس هناك من شئ قبل هذا الشارع المترب والعصفور الأسود والحقيبة.

ثم فقدت بعد ذلك السمع بإحدى أذنى؛ وحدث ذلك حينما كنت ألعب فى الشارع أمام باب الدار؛ حينها صدمتنى شاحنة صغيرة، فهشمت عظمة فى أذنى اليسرى.

كان الخوف من الظلام ومن الليل ينتابنى؛ أتذكر أننى كنت أستيقظ أحياناً من نومي وأشعر بالخوف يدخلنى كدخول شعبان بارد إلى جسدى، ولم أكن أجسر على التنفس، ولهذا كنت أتحرج فى فراش سيدتى وألتصق بظهرها الممتلئ حتى لا أرى شيئاً ولا أشعر بشيء. إننى على يقين أن لالا أسماء كانت تستيقظ من نومها أثناء ذلك، لكنها لم تكن تدفعنى عنها، ولو لمرة واحدة، ولهذا كانت بالنسبة لى بمثابة جدتى.

انتابتنى خوف من الشارع لفترة طويلة؛ فلم أكن أجسر على الخروج من فناء الدار، ولم أرد تجاوز الباب الضخم الأزرق الذى يطل على الشارع. وعندما كان يحاول أحد ما أن يفتادنى إلى الخارج، كنت أصرخ وأبكي متشبثة

بالجدران، أو أفسر مختبئة في إحدى قطع الأثاث. وكان الصداق المرعب يستحوذني، وضوء السماء يؤذيني ويخترقني حتى أعماق جسدي.

وحتى الضوضاء المنبعثة من خارج الدار كانت تشعل في الرعب؛ ضوضاء الخطوات في الزقاق عبر الملاح⁽²⁾، أو صوت رجل يتحدث بصوت عال من الجانب الآخر من حائط الدار. ومع ذلك كنت أحب بولع تغريد العصافير وقت الفجر، وصرير السماء في الربيع، وهو يقف على حافة الأسقف؛ ولم تكن هناك طربان في هذه المنطقة من المدينة، بل كان حمام ويمام لحسب، وأحيانا بعض طيور اللقلق العابرة في فصل الربيع، والتي كانت تجثم في أعلى حائط دار وتفرق منقارها.

وعلى مدار أعوام، لم أعرف سوى فناء الدار الصغير وصوت لالا أسماء التي كانت تصيح باسمي "ليلي"، وكما قلت من ذي قبل، لا أعرف اسمي الحقيقي، فاعتدت الاسم الذي منحني إياه سيدتي، كما لو كان هو الاسم الذي اختارته لي أمي؛ ومع ذلك فإنني أؤمن أنه ذات يوم، سيناديني شخص ما باسمي الحقيقي، وسوف أرتعش له وأعرفه.

اسمها الحقيقي ليس لالا أسماء، كانت تدعى عظمة، وكانت يهودية أسبانية. وحينما اندلعت الحرب بين العرب واليهود في الطرف الآخر من العالم، ظلت الوحيدة التي لم تترك الملاح، وتترست خلف الباب

(2) الملاح هو حي يهودي في المغرب. (المترجم)

الضخم الأزرق، ثم أقلت عن الخروج، واعتباراً من هذه الليلة التي أتيت فيها، تبدل كل شئ في حياتها.

كنت أناديها "سيدتي" أو "جديتي"، وكانت تؤثر أن ألقبها "سيدتي"، لأنها هي التي علمتني القراءة والكتابة بالفرنسية والأسبانية والحساب والرياضة، وهي التي علمتني مبادئ الدين، دينها هي، حيث لا يوجد اسم لله، ودينى حيث يسمى الله. كانت تقرأ على مقتطفات من الكتب المقدسة، وكانت تعلمنى كل ما كان على ألا أفعله، كالنفخ فيما نأكله، ووضع الخبز مغلوباً، أو الاستنجاء باليد اليمنى، وتعلمنى أنه يجب قبول الحق، والاختزال كل يوم من القدم إلى الرأس.

وفى مقابل ذلك، كنت أعمل لها منذ الصباح حتى مساء فى الفناء، أنظف وأقطع الخشب الصغير لموقد النار، أو كنت أقوم بغسيل الملابس، وكنت أحب أن أصعد فوق السقف لنشر الغسيل، ومن هذا الموقع، كنت أرى الشارع وأستف المنازل المجاورة والناس الذين يدلفون والسيارات، وطرف النهر الأزرق من بين شقي جدار، وفى هذا الموقع، كانت الضوضاء تبدو لى أقل رعباً، فكان يبدو لى فى هذا المكان أننى فى ملاذ.

وحينما كنت أمكث طويلاً على السقف، كانت لالا أسماء تصرخ باسمى، وتظل قابضة فى غرفتها المزركشة على وسادات من الجلد طيلة اليوم، وكانت تعطينى كتاباً ما كى أقرئه عليها، أو كانت تقوم بإملائى وتساألى فى الدروس السابقة التى لقتلتنى إياها، وكانت تجرى لى اختبارات. ولكى

ولكن ليس بنفس الطريقة. ذات يوم، بما أننى لم ألتئم التراب المتناثر فى الغناء، نهشتنى حتى أسالت دمي وقالت لى: "أيتها الياثمة اليتيمة؟، لست ماهرة حتى فى التنظيف؟"، فصرخت فيها: "لست يتيمة، إن جدتى لالا أسماء"، فسخرت منى ولكنها لم تجسر على المضى فى توبيخى.

كانت لالا أسماء تدافع يوما عنى، لكنها كانت عجوز منهكة، أقدامها متخمة وملبثة بالبدوالى، وكانت حينما تسام أو تشسكى، أقول لها: "أنت عيلة يا جدتى؟"، فكانت تسمرنى أمامها وتحملق فى، وتكرر المثل العربى الذى تحبه، والذي كانت تقوله بإحتفاء وكأنها تبحث فى كل مرة عن ترجمته الفرنسية:

"الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، لا يدركها إلا الأعداء".

والآن، لم تعد تجعلنى أقرأ كثيرا أو تجعلنى أذاكر، لم يعد لديها أفكار لإملاى، وكانت تمضى معظم أيامها فى الصالة الخالصة تشاهد شاشة التلفاز، أو تطلب منى أن أحمل إليها علبة مجوهراتها أو طلب فضتها. وذات يوم، أرتنى زوج من قرط ذهبي وقالت لى: "انظرى يا ليلى، هذا القرط سيكون ملكا لكى حين أموت".

ومررت القرط فى ثقبى أذنى، وكان القرط قديما مستخدما، على هيئة أول هلال للتمر المعكوس فى السماء، وعندما لفظت لالا أسماء لى الاسم، هلال، اعتقدت أننى أسمع اسمى، وتخيلت أن هذا القرط كنت أتجلى به حينما أتيت إلى الملاح.

قالت لي: "إنه يناسبك كثيراً، إنك تبدين فيه كبلقيس ملكة ميا".

فوضعت القرط في يديها، وثنيته أصابعها، وقبلت يدها وقلت:

"شكراً يا جدتي، إنك عطوفة علي".

قالت: "أذهبي!، أذهبي!"؛ وزجرتني وقالت: "لكنني لم أمت

بعد؟".

لم أعرف زوج لالا أسماء إلا من خلال صورة فوتوغرافية له كانت تعترض الكمودينسو، وكانت تحتفظ بها في الصالة، بجوار ساعة حائط متوقفة، كانت هيئته تدل على أنه رجل يبدو قاسياً، يرتدي زياً أسوداً. كان يعمل محامياً وكان ثرياً، ولكنه خائن، ولما مات، لم يترك لزوجته عدا دار الملاح، وقليل من النقود لدى كاتب العدل؛ وكان لا يزال على قيد الحياة حينما أتيت إلى الدار ولكنني كنت صغيرة جداً حتى أتذكره.

كانت لدى أسباب تدفعني للخوف من هابيل، كنت في الحادية عشرة أو في الثانية عشرة من عمري حينما اصطحبت زهرة جدتي خارج الدار كي ترى الطبيب أو لتبتاع شيئاً، ودخل هابيل إلى الدار دون أن الحظ ذلك، فبحث عني داخل الدار، ووجدني في الغرفة الصغيرة، بجوار الفناء، حيث يوجد المراض وحوض الغسيل.

كان ضخماً وقوياً، لدرجة أنه أغلق كل الباب بجسده، ولم أقو على النجاة بنفسى منه، هلعني، ولم يكن بوسعي أن أتحرك بأي طريقة؛ اقترب

منى، وكانت حركاته عصبية جنونية؛ ربما كان يتحدث إلى، لكننى وضعت رأسى على أذنى اليسرى حتى لا أسمع. كان طويل القامة، عريض المنكبين، وجبهته عارية تتلألأ فى الضوء؛ ركع أمامى وتحسس أسفل ثوبى، وتلمس أفضاى وتحسنى، وكانت يداه صلبه من الأسمنت. انتابنى إحساس أن زوج من الحيوانات الباردة الجافة قد اختبأ أسفل ملابسى؛ وأحسست بالخوف لدرجة أننى شعرت بقلبي ينبض فى حلقى.

وبغلة، عاودنى كل شئ، الشارع المبيض والحقيبة والضربات فوق رأسى، ثم أيدى تتلمسنى، وتضغط على جوفى فتؤلمنى. لم أدرك ماذا أفعل؛ أظن أننى بُلت على نفسى من الخوف؛ وحينما فرغ من ذلك سحب يديه، فأفلحت فى المرور من خلفه، وتدحرجت كالحشرة، فعبرت الفناء وأنا أصرخ، ثم سجدتُ نفسى فى صالة الاستحمام، لأنها كانت الغرفة الوحيدة التى يمكن غلقها بالمفتاح؛ وترقبت وقلبي يبدق بكل سرعة وأذنى السليمة ملتصقة بالباب.

جاء هابيل إلى، قرع الباب، فى البداية بلطف بأطراف أصابعه، ثم بشدة بكلية يديه قائلاً: "ليلي افتحى لى الباب، ماذا تفعلين؟ افتحى، لن أفعل بك شيئاً."، ثم رحل؛ أما أنا فمكثت جالسة على البلاط، مولية ظهري للحمام الرخامى الذى صنعه هابيل لأمى.

وبعد ذلك بوقت طويل، جاء شخص ما خلف الباب، وسمعت صوتاً، ولكننى لم أدرك ما جاء فيه، وقرع الباب ثانية، وهذه المرة عرفت يد

لالا أسماء؛ وعندما فتحت الباب، كان يبدو على الرعب، حتى أنها ضمتني بين ذراعيها وهي تقول لي: "ولكن، ماذا فعل بك؟ ماذا حدث لك؟"، فضمت جسدي إليها، وأنا أمر من أمام زهرة، ولكنني لم أتفوه بشئ، فصاحت زهرة: "لقد غدت معتوهة، هذا كل ما حدث"، ولم تسألني لالا أسماء عن شئ آخر، ولكنها منذ ذلك اليوم، لم تتركني بمفردي متى جاء هابيل إلى الدار.

وذات يوم، بينما كنت منهمكة في غسيل الخضر في المطبخ لإعداد الطعام للالا أسماء، سمعت ضوضاء مدوية في الدار، كما لو كان شئ ثقيل يضرب البلاط ويقلب المقاعد، فسأيت مسرعة، ورأيت العجوز ملقاة على الأرض، ممددة بكل طولها، فظننت أنها ماتت، وفررت أختبئ في مكان ما حينما سمعتها تتأوه وتئن. لقد كان مغشياً عليها، وحينما هوت على الأرض اصطدمت رأسها بزاوية مقعد فسال منها قليل من دم من صدغها، ودارت من الهزة واضطربت عيناها، ولم أدرك ماذا أفعل، وبعد مرور برهة، اقتربت منها وتحسست وجهها، فكانت وجنتها وخوة، باردة بشكل لافت للنظر، ولكنها كانت تتنفس بكل قوة رافعة صدرها، وكان الزفير يزلزل شفثيها في قرقرة مضحكة كما لو كانت تغط في النوم.

"لالا أسماء!، لالا أسماء!، هكذا كنت أتعلم بالقرب من أذنها، وكنت على يقين من أنه يوسعها أن تسمعني في حالتها هذه. كانت عاجزة عن الكلام فحسب، وكنت أرى رعشة جفونها النوارية على عينيها البضتين، وأعلم أنها تسمعني، وقلت لها: "لالا أسماء، لاتموتى!".

في أثناء ذلك، جاءت زهرة، وقلقت كثيراً من النفس البطح الذي لم
أعهده في لالا أسماء، وقالت لي:

... "يا غبية! أيتها الجنية الصغيرة!، ماذا تفعلين الآن؟"

جذبتني بعنف من كم ثوبس حتى أنه تمزق، وقالت لي: "هيا
ابحثي عن الطبيب، ألا ترين أن أمي في أشد ألمها!"; وكانت هذه هي المرة
الأولى التي تتحدث فيها عن لالا أسماء وتلقبها بأسماء؛ وعندما رأته ألقف
مذهلة على عتبة الباب، اقتلعت سباطها وقذفتني به قائلة: "هيا، ماذا
تنتظرين؟".

حينئذ عبرت الفناء، ودفعت الباب الأزرق الثقيل، ثم شرعت في
الهرولة في الشارع دون أن أعرف إلى أين أمضي، وكانت هذه هي المرة الأولى
التي أخرج فيها من الدار، ولم تكن لدى أدنى فكرة عن المكان الذي أستطيع
فيه أن أجد طبيب، ولم أكن أعرف سوى شئ واحد هو أن لالا أسماء ستموت،
وسيكون ذلك خطئي، لأنني لم أتمكن من أن أجد إنساناً ما كن يعالجها. ظلت
أهول دون أن ألقط أنفاسي على طول الأزقة التي أنامت بها الشمس، وكان
الجو حاراً للغاية، والسماء عارية، وكانت جدران المنازل بيضاء للغاية.

هرولت من شارع إلى آخر، حتى بلغت مكاناً يمكن منه للمرء أن
يرى النهر، بل وأبعد من ذلك، البحر، وأجنحة الزوارق. كان المشهد رائعاً
حتى أنني لم أخش أي شئ، وتوقفت في ظل جدار، وشاهدت كل ما تمكنت
من مشاهدته؛ كان المنظر هو نفس المنظر الذي كنت أشاهده من أعلى سقف

دار لالا أسماء، ولكنه أرحب سعة بكثير. إلى الأسفل على الطريق، كانت هناك سيارات كثيرة، وشاحنات وسيارات نقل. كان الوقت هو المساحة التي يذهب فيها الأطفال إلى المدرسة بعد الظهر؛ كانوا يذهبون على الطريق، الفتيات ترتدين الثورات الزرقاء والقمصان الشديدة البياض، أما الفتيان فكانوا يرتدون ملابس قليلة الأناقة، محلقون رؤسهم، يحملون حقائبهم المدرسية أو كتباً يحفظها ماسك.

حدث ذلك وكأني أفقت من سبات طويل؛ وحينما مر أطفال المدرسة بالقرب مني، بدا لي أنهم يضحكون ويسخرون مني، وعندما تريتشت، بدت على الغرابة كما لو أنني أتيت من كوكب آخر بثوبى ذى النسيج الفرنسي، والذي كان كفه ممزق، وبشعري الطويل المجمع؛ وفي ظل جدار الحائط، بدا على أيضاً أنني جنية.

تعقبت شارعاً عن طريق المصادفة باتجاه تلاميذ المدرسة، ثم شارعاً آخر يعج بالناس؛ فكان هناك سوق وغطاءات تقى من الشمس. وفي مدخل أحد الديار، كان هناك رجل عجوز يعمل فى حانوت مصنوع من الخشب، وكان الرجل يجلس متربحاً على شيء يشبه المنضدة المنخفضة تحيط به بابوجات⁽³⁾، وكان يدق مسامير صغيرة جداً بمطرقة من النحاس فى نعل؛ وبما أنني توقفت أنظر إليه، سألنى: "أتريدى بلعة؟"

(3) البابوج هو الحذاء دون الكعب، والكلمة الفرنسية babouche مأخوذة من العربية والتي نقلتها بدورها عن الفارسية. (المترجم)

فلقد لاحظ جيداً أن أقدامى عربية، وقال: "ماذا تريدان؟ أنتن

صماء؟"

أفلمت في الحديث إليه، فقلت له: "أبحث عن طبيب لجدتي".

قلت ذلك بالفرنسية، ثم كررت بالعربية لأنه نظر إلى دون أن

يفهم، وقال لي: "ما بها؟"

... "سقطت على الأرض، وستموت".

أدهشه هدوئى الشديد. وقال لي: "ليس هناك من طبيب فى هذه

المنطقة، هناك السيدة جميلة فى الفندق؛ إنها مولدة، ربما تتمكن من فعل

شئ".

غادرت مهرولة فى الاتجاه الذى أشار به على، وظل صانع الأحذية

لا يتحرك ومطرقته النحاسية مرفوعة، وقال لي شئ لم أفهمه فأضحك الناس.

كانت السيدة جميلة تعيش فى دار لم أتخيل هيئته، فكان عبارة

عن قصر مهدوم، حوائطه شاهقة تتكون من السقراط المدكوك، وكان يبدو أن

مصارع باب هذا القصر الاثنى مفتوحين منذ زمن طويل، لدرجة أن ما من

أحد يستطيع غلقهما، إذ يحجزهما الطين والأنقاض، وفى واجهة القصر،

كانت هناك قطع من أوراق طلاء الحوائط تدل على أن الدار كان وردى اللون

فى الماضى، كانت نوافذه الخشبية ناتئة، وشرفه مذكورة بالسوس؛ ورغم

علمى بذلك، إلا أنني دخلت إلى هناك.

فناء دار لالا أسماء، كان منظماً تنظيماً قاسياً، نظيف إلى حد المبالغة، وكنت أظن أن أى فناء يكون كذلك؛ ولكن هنا فى داخل الفندق، كان هناك ركام لا يمكن تخيله، وأناس يخيم عليهم السبات فى كل مكان من الفندق، تحت ظل الأفاريز أو أشجار السنط الهزيلة؛ وكانت هناك ماعز وكلاب وأطفال ومواقد تستنفذ قواها بمقردها، وكانت هناك فى كل مكان أكوام القمامة التى يلوكها الدجاج المشابه للنسور. وفى جدران الحوائط، حول الفناء تحت ظل أشجار السنط، كان الباعة الجائلون يكسبون حزم بضائعهم؛ ولكى يحرسونها جيداً، كانوا يتوسدونها. لم أعرف ماذا كان يعمل هؤلاء الناس، ولم أكن أدرك المظهر الذى يكون عليه فندق، وحينما عبرت ببطى الفناء مترددة فى الاتجاه الذى أتخذه، نادانى شخص ما من أعلى الشرفة الداخلية فى حركات واضحة؛ وبما أننى فتنت بالشمس فقد بحثت عن ظل الرواق، وسمعت صوتاً واضحاً يسألنى: "عما تبحثين؟".

فى النهاية، رأيت سيدة متقدمة فى العمر، ترتدى ثوباً فيروزياً طويلاً، كانت تتكى على سور السلم، وتشمل سيجارة وهى تنظر إلى، فنطقت اسم السيدة جميلة، فأشارت إلى: "أصعدى السلم فى نهاية الغرفة أمامك".

وعندما بدأ على أننى لا أعى ما تقول، قالت لى: "انتظرى".

اقتادتنى عبر غرفة كبيرة مظلمة، حيث كانت هناك حزم أخرى من البضائع، وأناس يستريحون، وشيوخ يلعبون الدومينو على منضدة قصيرة

القائمة وقد وضع نارجيل بجوارهم، ولم يكن هناك من يبدو عليه أنه يعيرني انتباهاً.

وفي أعلى درجات السلم، كان الرواق مُضاءً من ضوء الشمس حيث لم يكن هناك من مصارع أبواب؛ وكانت تقطن الطابق الأعلى أجنبيات، يبدو على البعض منهن أنهن في سن الشباب، والأخريات في عمر زهرة أو أكبر منها عمراً. كانت هؤلاء النسوة بديسات، سحنهن صافية وشعورهن حمراء من الحناء، وكفاهن مطلية، شديدة السمارة، وأعينهن محاطة بالكحل، يشعلن القليون أمام أبواب غرفهم، جالسات في أرديتهن على الأرض، وكان دخان غليونهن يخرج من ظل الرواق فيتراقص في الشمس.

قلت: "أريد أن أبحث عن السيدة جميلة".

ظلمت أعلى السلم وأقدامى تظاً أرض الطابق، وأظن أن ما منعنى أن أتقهقر مهولة من هذا المكان هو فقط الخوف من العودة دون الطبيب إلى لالا أسماء، وجامت النسوة تلقف حولى، يتحدثن بصوت عالٍ ويضحكن، وكان دخان القليون يشغل الهواء برائحة عذبة قليلاً، كانت تجعلنى أدير رأسى.

كن يداعبن شمى ويتلمسنه وكأنهن لم يرين مطلقاً شعراً مثله؛ ثم شرعت إحداهن، وهى فتاة شابة يداها فارعتان دقيقتان، محملة رقبتهما بالجواهر، فى تجديد مخللة الخيط الأحمر بشمى، لم أجسر على التحرك، وقالت: "انظرن، لكم هى جميلة! إنها أميرة حقيقية".

لم أدرك ما قالت، وسألت نفسي عما إذا كان هؤلاء النسوة الجميلات بكل حليهن ومساحيقهن لا يسخرن مني، وعما إذا كن سينهشنني ويتجاذبنني من شعري، كن يتحدثن بسرعة بصوت منخفض ولم التفت كل الكلمات بسبب أذني المصابة.

ثم أتت السيدة جميلة، كنت أتخيل أنها امرأة حكيمة طويلة وقوية، وجهها متجه، فرأيت امرأة قصيرة نحيفة، شعرها قصير، ترتدى ملابسها على النهج الأوربي. رمقتني للحظة، ثم أبعدت عنى النسوة، وعندما أدركت مشكلة أذني، مالت نحو وجهي وقالت ببطء: "ماذا تريدن؟" - "جدتي تموت، ينبغي أن تذهبي لترينها في دارها".

ترددت ثم قالت: "حالا أننى أعيش هنا من أجل الأطفال والأجداد الذين يموتون أيضاً".

كانت تمشي بخطوات منفرجة في الأزقة، وكنت أعيدو عبدو الطفل خلفها، وبدونها ما كان لي أن أتوصل لمعرفة طريقى، ولكنها كانت تعرف دار لالا أسماء.

وريشما وصلنا الدار، كان قلبي منقبض، وظننت أنه في خلال كل هذا الوقت قد ماتت لالا أسماء، وأننى سوف أستمع إلى الصرخات المدوية، التى ستطلقها زوجة ابنها. بيد أن لالا أسماء كانت على قيد الحياة، كانت تقف مقعدها المريح في مكانها المعتاد، تتمدد وأقدامها على مقعد وضع أمامها،

وكان هناك فقط قليل من الدم الجاف على صدغها حيث ارتطمت رأسها لما وقعت.

رأى لالا أسماء، فأشرقت نظرتها، كانت لا تزال ترتعش قليلاً، فشدت على يدي بقوة شديدة؛ لاحظت أنه لديها الرغبة في الكلام، وأنسها لم تقو على ذلك. ولم أكن أدرك إنها تحبني كثيراً، وفجأة أسأل ذلك عبراتي، وقلت لها: "لا تتحركين يا جدتي سوف أعد لك الشاي كما تحبين".

ثم رأيت السيدة جميلة على عتبة الصالة، وطلبا أن لالا أسماء لم تكن على وشك الموت، فلم تكن في حاجة إلى أحد. لم تكن تحب أن يدخل عليها الغرباء، قلت للسيدة جميلة: "إنها بخير الآن، لم تعد في حاجة لك"، واصطحبتها نحو الباب، وأردت أن أدفع لها ثمن الزيارة من دراهمي التي ادخرتها من أعمال التنظيف، لكنها رفضت، وقالت وهي تتفحص وجهي بدقة: "ربما سينبغي عليك أن تستقدمي طبيباً حقيقياً، هناك شيئاً ما تحطم في رأسها، ولهذا السبب سقطت على الأرض".

تسألت: "هل ستكلم ثانية؟"

هزت السيدة جميلة رأسها: "إن تكون البتة كما كانت من قبل، يوماً ما ستسقط ولن تعود مطلقاً، الأمر كذلك، ولكن يجب أن تظلي معها حتى نفسها الأخير"، كررت الجملة بالعربية ولم أنساها: "خرجت الروح...".

عادت زهرة بعد قليل، لم أتحدث إليها عن أمر السيدة جميلة، فلقد كانت ستمفعني إذا ما علمت أن كل ما أحضرته لها، هو مولدة بفندق

قديم، فكذبت عليها وقلت لها: "قال الطبيب أن صحتك ستتحسن، وأنه سيعود الأسبوع القادم"، فقالت: "والأنوية؟ ألم يقرر أدوية؟"، هزرت رأسي وقلت لها: "قال أن الأمر لا يستدعي ذلك، وأنها ستعود كما كانت من ذي قبل".

كانت زهرة تتحدث بصوت عالٍ بالقرب من أذن لالا أسماء كما لو كانت صماء: "أستمعين يا أماء، لقد قال الطبيب أنك ستعدين على مايرام".

ولكن لالا أسماء لم تتحدث إلى منذ أشهر عن كذبتها، ولم تلاحظ زهرة أي شيء، وعندما انصرفت، عاونت لالا أسماء على السير حتى فراشها، وكان سيرها غريباً، تقفز كالشحرور⁽⁴⁾، ونظرتها المتفائلة غدت هشة، وحزينة وبعيدة.

فجأة، انتسابني خوف مما سيحدث؛ لم أسأل نفسي حتى هذه اللحظة ماذا ساكون حين ترحل لالا أسماء عن الدنيا، أكون في هذا الدار خلف الجدران العالية من الجانب الآخر من الباب الأزرق؟ وهل سأرى المدينة من أعلى السقف حيث أنشر الملابس الممسولة؟ جعلني ذلك أعتقد أن شراً ما سيحدث لا محالة.

نظرتُ إلى سيدتي، كان وجهها منتفخاً لدرجة أن عينيها كانت بمثابة ثقب في وجهها، وشعرها القليل جداً أبيض أسفل الحنّة.

(4) اسم عمقور. (الترجم)

قلت: "جدتي، جدتي، لن تتركيني؟"، وسرت العبرات فوق وجنتي، ولم أتمكن من إيقافها، ثم رددت: "أليس كذلك يا جدتي، لن تتركيني؟"، أعتقد أنها سمعت ما قلته لها لأنني شاهدت جفونها تتحرك، وشفاها ترتعش؛ وضعت يدي في يديها حتى تصافحها بقوة، وقلت: "سوف أهتم بأمرك يا جدتي، لن أزع أي أحد يقترب منك ولا سيما زهرة؛ سأعذك شايك، وسأقدم لك طعامك وسأمضي أحضر لك الخبز والخضر؛ والآن لم يعد الخوف يفتأني في أن أمضي خارج الدار، فلن نعد في حاجة إلى زهرة".

كنت أتحدث والدموع لا تتوقف عن السيل، ويمكنني القول أنها ربما كانت هذه هي المرة الأولى، بالنسبة لي أنا التي لم تزرف الدمع أبداً بلا وازع حتى عندما نهشتني زهرة حتى أسالت دمي.

بيد أن لالا أسماء لم تعد كما كانت من ذي قبل، بل علسى النقيض، أخذت حالتها تسوء يوماً بعد يوم، ولم تعد تتناول الطعام؛ وحينما كنت أحاول أن أشربها الشاي، كان الشاي البارد يسيل من طرفي فمها ويبلل رداثها؛ وكانت شفتاها مشقتين مصدعتين، وأصبح جلدها جافاً وأكتسى بلون الرمل؛ ويجب أن أقول أنها كانت تبول تحتها، هي التي كانت نظيفة جداً ودقيقة؛ كنت أغير لها ملابسها؛ ولم أرد أن تراها زهرة وهابيل في الحالة هذه؛ كنت علي يقين أن لالا أسماء تستحي من ذلك، وأنها تضع حساباً لكل شئ. عندما جاءت زهرة، سدت أنفها وقالت: "من أين تنبعث هذه الرائحة الكريهة؟"، فقلت لها أن هناك أشغال تُجرى في الدار المجاور ويتم إخلاء

الحفرة؛ نظرت زهرة إلى لالا أسماء نظرة ربيبة، ونهرتني قائلة: "لأنك لاتقومين بأعمال النظافة بشكل جيد، انظري إلى هذه الفوضى!". كانت تسعى لتعرف ما لايمضى على مايرام في الدار؛ وحتى لاتستقطن حالة لالا أسماء، قمت بتصفيف شعرها في الصباح، وطلبت وجنتيها بالمسحوق الوردى، ووضعت زبدة الكاكاو على شفتيها، ووضعت الطبق النحاسى بجوارها على المنضدة مع إبريق الشاي والأكواب، وسكبت قليلاً من الشاي المحلى بالسكر فى الأكواب كما لو كانت لالا أسماء قد شربت شايًا.

لم أعد أتركها؛ فى الليل، كنت أرقد على الأرض بجوارها مطوقة فى ملاء فراش؛ وأذكر أنه، ذات يوم، كان هناك ناموس، وكنت أستمع إلى غناؤه فى أذنى طيلة الليل، وفى الصباح عدت إلى غرفتى كى أنام قليلاً، نسيت نفس لالا أسماء الحزين، ورأيت فى نومى، أننا، أنا وهى، نرحل ونستقل، فى نهاية المطاف، الزورق الشهير الذى كانت تتحدث عنه يوما من مليلا⁽⁵⁾، باتجاه ملاجا⁽⁶⁾، وحتى أبعد من ذلك، إلى فرنسا.

ذات ليل، أخذت الأمور كلها تزداد سوءاً؛ لم أضع هذا الأمر فى حسابى على الفور، كانت لالا أسماء تختنق، كان نفسها يحدث خطأ فى حلقها، ومع نهاية كل زفير، كانت هناك ضوضاء منبعثة من رئتيها، فظللت

(5) أراضي على ساحل البحر المتوسط تطل على المغرب وهى محل نزاع حتى الآن. (المترجم)

(6) ميناء فى إسبانيا على البحر المتوسط وهو موطن بيكاسو، ما زال محل نزاع بين المغرب

واسبانيا. (المترجم)

جامدة ممتدة على الأرض دون أن أجسر على الحركة. كانت غرفتها مظلمة مع بصيص من ضوء القمر في الفناء، ولكن لم يكن بوسعى أن أمضى إلى خارج الدار. كنت أترقب، وأردت أن يكون النهار؛ اعتقدت أنه منذ أن تشرق الشمس، ستستيقظ لالا أسماء، وتتوقف عن الغط، ويتوقف ضيق أنفاسها وضوضاء رثيها.

نمت مع بزوغ ضوء النهار، فلقد كنت متعبة للغاية؛ ربما ماتت لالا أسماء في هذه الأثناء، وهكذا استطعت في النهاية أن أنم.

حينما استيقظت كان وضع النهار، كانت زهرة تجلس بجوار الفراش، وكانت تبكى بصوت مرتفع، فجاءة رأتنى فعلاً الغضب قمها، قرعتنى بكل شيء وجذته: منشفة من الإسفنج ومجلات؛ ثم اقتلعت حداثها كى تضربنى به، فلذت بنفسى والفناء. صاحبت فسى: "أيتها الجنية الصغيرة!، لقد ماتت أمى وأنت تنامين فى سكرنة! أنك قاتلة". اختبأت فى المطبخ أسفل منضدة كما كنت أفعل وأنا صغيرة، ارتعشت من الخوف، ولحسن حظى، جاءت سيدة مجاورة أنبئها المصراع فى هذه اللحظة؛ وجاء هابيل بدوره أيضاً، وسكنوا من روع زهرة. كان معها مدية فى يديها كما لو كانت تريد أن تقتلنى، وصاحبت ثانية: "أيتها الجنية القاتلة!". أجلسوها فى الفناء، وقدموا إليها قدحاً من ماء.

أما أنا فقد تدرجت خارج المطبخ، وعبرت الفناء على قدمى وساعدى على طول الجدار فى الظل، وأقدامى عارية، ولم أكن أرتدى سوى

الثوب المجعد الذى نمت به ، وكان شعري مُشعث ، وكان يبدو هلى أننى قاتلة بحق.

أفلحت فى الهرب مرة من الباب الأزرق الكبير الذى ظل موارباً ، ثم شرعت فى الهزولة فى الشوارع مثل اليوم الذى ذهبت فيه أستدعى الحكيمة ، وكان ينتابنى هلعٌ جارف من أن يلحقوا بى ويودعونى السجن لأننى تركت لالا أسماء تموت.

هكذا تركت دار الملاح دون عودة ، ولم أكن أملك أى شيء ولا سواً واحداً ، وأقدامى عارية وثوبى بال ، ولم يكن معى حتى القرط الذهبى وهلال القمر الذى وعدتنى لالا أسماء أن تتركه لى حينما تموت ، فشعرت بأننى أكثر عراة من اليوم الذى ياعنى فيه لصوص الأطفال إلى لالا أسماء.



السوق القديم

كان الفندق يختلف تماماً عن كل ما عرفته في حياتي إلى ذلك الحين، كان عبارة عن دار ينفرج على كل الاتجاهات الأربعة، يقع في شارع يكثر العبور فيه، تربكه الشاحنات الصغيرة والسيارات والموتوسيكلات، وكان السوق على بعد خطوتين منه، وهو مبنى من الأسمنت يجد فيه المرء كل ما يريد، لحوم المجازر، والخضروات، والسجاد، والدُّلَى البلاستيكية.

حينما تركت دار لالا أسماء، لم أعرف إلى أين أمضي؛ فلم أكن أعرف سوى شئ واحد، هو أنه ينبغي على أن أختبئ في مكان لا يعثرُ على فيه مطلقاً كل من زهرة وهابيل، حتى وإن أرسلت الشرطة تبحث عني. سرت على طول الشوارع في الظل، مجاورة للحوائط كالقط الضال؛ وكسنت صرخات

زُهرة "أيتها الجنية ! أيتها الفاتلة !" تدوى في رأسى، وكنت على يقين من أنها إذا لحقت بى سوف تدعنى السجن. ورغمما عن إرادتى، قادتنى أقدامى إلى الشارع الذى بحثت فيه عن طبيب يعالج لالا أسماء. لما تعرفت على المبنى من خلال بوابته ذات المصرعين المنفرجين على أشدهما، اهتز قلبى من الفرح، ففى ذلك المكان، كنتُ على يقين من أن زُهرة لن تتمكن من العثور على. لم تكن السيدة جميلة فى الفندق، فلقد تم استدعائها إلى مكان ما لحالة طارئة، ولذا فقد جلست بهدوء على الشرفة وظهري للجدار وترقبتهما بالقرب من بابها.

فى المرة الأولى التى أتيت فيها إلى هذا المكان، كنت فى عجلة من أمرى، ولم يكن لدى متسعاً من الوقت كى أشاهد ما يحدث فى الفندق، أما الآن، فأتفحص كل شئ: الناس الذين يدخلون ويخرجون من الفناء دون توقف، الباعة الجائلين فى أثوابهم الرثة محملين كالعير، والتجار الذين يضعون حزم بضاعتهم أسفل الشرفات المقوسة، تجار خضرو، وتجار تمر، وشباب يحملون شحن غريبة، تتأرجح على دراجاتهم علب كرتونية محملة بلعب الأطفال البلاستيكية، وأشرطة موسيقى وساعات ونظارات سوداء. كنت أعرف كل بضاعتهم، ذلك أنهم كانوا يأتون، فى الغالب، يقرعون باب لالا أسماء، وبما أنها لم تكن تقو على الخروج لتتقضى مشترياتهما، فلقد كانت تجعلهم يفرغون سلعهم فى الفناء، وتشترى منهم أشياء لم تكن فى حاجة إليها: أقلام وصابون، وكل ما يحمل الغضب إلى كُنْتهما التى كانت تقول لهما:

"أماه ! ماذا أنتِ فاعلة بهذه الأشياء؟"، وكانت لالا أسماء تهز رأسها وتقول: "ربما سأكون يوماً ما راضية لأننى ابتعت هذه الأشياء". لم أتصور مطلقاً أنه من الممكن أن يتلاقى الباعة الجائلون فى مكان مثل هذا الفناء.

فى الطابق تقطن سيدات فى مقتبل العمر، لم أراهن المرة السابقة، كن أنيقات جميلات إلى حد أننى بسذاجتى حسبتهن أميرات، فى هذه الساعة، كن يرقدن فى الحجرات خلف الأبواب المواربة؛ وعندما تفحصت ثقب الباب رأيت إحدى الأميرات نائمة على فراش كبير؛ وفى رفق، تبينت هينتها، كانت ترقد عارية تماماً فوق ملاءة الفراش، يوارى شعرها وجهها، ونهلت لمشاهدة بطنها بضاً وعانتها منزوعة الشعر تماماً، فلم أرى قط مثل ذلك، فلم تكن لالا أسماء تصطحبنى إلى صالة الاستحمام، وحتى فى لحظات عمرها الأخيرة، لم ترد أن أراها مجربة من ملابسها. جسدى الهزيل الأسود لا يشبه البتة هذا الجلد الأبيض، وأعتقد أننى تقهقرت خائفة قليلاً والمرق فى كفة يدي.

انتظرت كثيراً أسفل الرواق مولية اهتمامى لغدو ومجئ التجار فى الفناء؛ ولم أكن قد تناولت الطعام ولا الشراب منذ البارحة، فلقد كان لدى شعور جارف بالجوع وأشعر أننى أموت من الظما.

إلى الأسفل فى الفناء، كان هناك بشرٌ. لاحظت أسفل الشرفات المقوسة جوالاً مفتوحاً به فاكهة جافة، تأتى المصافير لتنقرها؛ فتدحرجت حتى حزمة البضاعة، استحييت قليلاً، ذلك أن لالا أسماء كانت تقول لى

دوماً، أنه ليس هناك أسوأ من سارقة الآخرين، لا بسبب ما تأخذه منهم، بل بسبب خداعنا لهم، ولأننى كنت جائعة للغاية، أبعدت تعاليم لالا أسماء عن رأسى.

جلست القرفصاء بجوار الحقيبة المفتوحة، والتهمت بعض التمر والتين المجفف وحفن من العذب الجفاف الذى أخرجه من تعليبيه البلاستيك، وأظن أنه كان بإمكانى أن أكل الجزء الأكبر من حزمة البضاعة لو أن صاحب البضاعة لم يأتى فى صمت من الخلف؛ مسكنى بيده اليسرى من شعرى وبيده الأخرى طوقنى بزئار⁽¹⁾ وقال لى: "أيتها اللصة الزنجية !، سوف أريك ماذا أفعل بأمثالك من البشر"، وأذكر أن أكثر ما كان يؤلمنى هو ليس مباغتته لى، وإنما الطريقة التى كان يمسك بها شعرى بأصبعه وبناديه "أيتها السوداء !"، لأن ذلك لم يكن شئ يتلفظ به أحد مطلقاً ولا حتى زهرة فى فمها، فلقد كانت تدرك أن لالا أسماء لا يمكن أن تطيق مثل هذا الشئ.

تخبطت، ولكى أفلت منه، فurstه حتى سال دمه، وجابهته وصحت فيه: "لست لصة، سوف أدفع لك ثمن ما أكلته".

فى هذه الأثناء، أتت السيدة جميلة ومالت سيدات الطابق من الشرفات، وشرعن فى سب التاجر الجائل بشقائم لم أسممها قط، حتى أن إحدى الأميرات لم تجد قذيفة أفضل من أن تلقى عليه قطعاً من النقود فئة

(1) حزام. (المترجم)

العشرة والعشرين سنتيماً⁽²⁾ صائحة في وجهه: "هاك أيها اللص!", ظل التاجر مبهوراً أمام مجون السيدات، أسفل سيل قطع النقود، إلى أن أخذتني السيدة جميلة من ساعدي واصطحبتني إلى الطابق، وأعتقد أنه كان يهدى إلى هذه اللحظة حفن من العنب الجاف لم أدمها حتى عندما تناولني التاجر من شعري وضربني بزُخاره.

غير أن الهلع تملكني بغتة، أو ربما كان ذلك ركام كل ما حدث في هذا الوقت مع لالا أسماء التي سقطت على البلاط، وزهرة التي طردتني ناهيةً قرط أذني، فأخذت أبكي بشدة على السلم حتى أنسى لم أتمكن من الصعود. حملتني السيدة جميلة، التي لم تكن أضخم مني، إلى أعلى كما لو كنت طفلة صغيرة، وكررت في أذني: "ابنتي!، ابنتي!"، أما أنا فقد أشد بكائي لأنني افتقدت جدتي وعشرت على أم لي في يوم واحد.

في أعلى السلم، كانت الأميرات - اللواتي كنست القبعين كذلك في أعماقي حتى حينما أدركت أنهن نسن أميرات بحق - تنظرنني بألف مداعبة وإشارة ترحيب؛ "وسألنني عن اسمي وكررنه بينهن: "ليلي، ليلي"، وحملنني إلى الشاي المركز والحلوى المصنوعة من العسل، فتناولت كل ما استطعت أن أتأكله؛ ثم أعددن لي فراشاً في غرفة كبيرة، رطبة، بها وسادات ملقاة على الأرض، فرقدت بعد ذلك مباشرة وسط هرج ومرج الفندق،

(2) وحدة من العملة الفرنسية، والفورك يشتمل على مائة سنتيماً. (المترجم)

يهددنى صوت موسيقى المذياع فى الفضاء. وهكذا دخلت فى حياة السيدة جميلة قاتلة الأجنة وأميراتها الستة.

تدبرت حياتى بالفندق بشكل هادئ ولافت للنظر، ويمكننى أن أقول غير مبالغة، أن هذه الفترة كانت أكثر فترة من حياتى سعادة؛ فلم يكن هناك أدنى إجبار ولا أدنى هم، فلقد وجدت فى شخص السيدة جميلة وفى شخص الأميرات كل البهجة، وكل المحبة التى حرمت منها حتى ذلك الحين.

حينما كان يفتابنى الجوع، كنت آكلُ، وحينما كان يفتابنى النعاس كنت أنام، وحينما كنت أرغب فى الخروج - وهو ما كان يحدث بشكل ثابت تقريباً - كنت أخرج دون أن أسأل أحداً، دون أن أسأل عن أى شئ كان. كانت الحرية المطلقة التى حبيتها فى الفندق هى حرية النسوة اللواتى كنت أشاركهن عيشهن، ولم يكن لديهن حساب الساعات، طالما أنهن سعيدات، وتبئنينى كما لو كنت ابنتهن، أو بالأحرى دُمىة، أو أخت صغيرة جداً، وهكذا كن يناديننى. وكانت السيدة جميلة تناديننى: "يا ابنتى"، وكانت فاطمة وزبيدة وعائشة وسليمة وحورية وتغادير ينساديننى: "شقيقةتنا الصغرى"، لأنهن كن بحق فى عمر أمى، وكنت أنام دورياً فى كل غرفة تشغلها اثنتان من الأميرات، إلا تغادير التى كانت غرفتها دون نافذة، والتى نمت فيها اليوم الأولى. كانت للسيدة جميلة شقة على الجانب الآخر من الرواق، بها نافذة تطل على الشارع، وكنت أرقد هناك أيضاً فى بعض

الأحيان، ولكن بشكل زائر نظراً لانشغال السيدة جميلة في مكتبها المخصص للفحص الطبي، حيث كانت تأوى السيدات اللواتي لديهن مشكلة في طفل؛ ولما كانت تتلقى المرضى، كنت أدرك أنه لا ينبغي أن أذهب لأطرق بابها. وفي مثل هذه الليالي، كانت تغلق الباب بالملزاج وكنت أرى عبر السجف الفانوس الذي كانت تتركه مشعلاً في مكتبها، وكان ذلك بمثابة إشارة فهمتتها بسرعة.

كانت الأميرات تحببني كثيراً، وكن يشركنني في مهامهن وشئونهن، وكنت أحضر لهن الشاي في الفناء أو أشتري لهن الحلوى من السوق أو الغليون، وأحمل رسائلهن إلى مكتب البريد؛ وفي بعض الأحيان، كن يصطحبني معهن لإجراء المشتريات في المدينة، ليس كي أحمل حقائبهن - فلقد كان هناك دوماً صبية لذلك الأمر - إنما كي أعاونهن على الشراء، ولكي أساوم في الأسعار، فلقد كانت لالا أسماء تعلمنني أن أشتري بمساومة الباعة الجائلين الذين كانوا يطرقون بابها، فاستوعبت دروسها جيداً.

كانت زبيدة تحب أن تذهب معي إلى سوق القماش، وكسّاتت تختار أقمشة من القطن لحياكة ثوب أو لغطاء فراش. كانت فارعة ونحيفة، لونها كالحليب، شعرها أسود في لون السبج⁽³⁾؛ وكانت تلتف بالمنسوجات وتقدم

(3) السبج هو مادة قهوية سوداء، وتستخدم اللفظة jais في اللغة الفرنسية للدلالة على شدة

السواد. (المترجم)

فى الضوء وتقول لى: "كيف تريبنى؟"، وكنت آخذ وقتا حتى أجيبها، كنت أقول مجدة: هذا حسن ولكن اللون الأزرق الداكن يناسبك أكثر".

كان التجار يعرفوننى، ويدركون أننى أسأولهم بشكل لائق كما لو كنت أنا التى تدفع، ولم يكن بوسعهم أن يخدعوننى فى الجودة، فلقد تعلمت هذا أيضا من لالا أسماء. ذات يوم منعت فاطمة من شراء حلية ذهبية فيروزية قاتلة لها: "انظري يا فاطمة هذا ليس بحجر حقيقى، إنما هو طرف معدن مطلقى"، وضمتة على أسنانى وقلت: "أترين؟ ليس هناك من شئ بداخله"، غضب التاجر، بيد أن فاطمة وبختة قاتلة: "صه، إن أختى الصغرى تقول دوما الحق، انج بنفسك لأننى لن أضعك أمام القاضى".

واعتباراً من ذلك اليوم، ضاعفت الأميرات من انتباههن لى، وكن يتحصن حسن صميمى مع كل الناس، والآن، حتى الباعة الجائلين فى الفندق، يحيوننى بوقار. كانوا يأتون إلى حتى أتوسط لى هذه وتلك، وكانوا يسمعون أن يشتروننى بأن يقدموا لى الهدايا، ولكننى لم أكن أأخذ، فقط كنت آخذ الحلوى واللوز المسكر من التاجر وأقول لفاطمة أو زبيدة: "احذريه، إنه بكل تأكيد لثيم".

وكانت السيدة جميلة تعرف كل ما يحدث، ولم تكن تتحدث عن شئ، ولكننى رأيت أنها لم تكن راضية. حينما كنت أمضى أجرى المشتريات، أو كانت إحدى الأميرات تصطحبهنى للخارج، كانت تتبعننى بنظرتها، وكانت تقول لفاطمة: "أتصحبينها إلى هناك؟" على سهيل اللوم، أو كانت

تحاول أن تأخذنى وتكلفنى بواجبات أفعلها، صفحات أكتبها أو حساب أو علوم طبيعية، فلقد أرادت أن تعلمنى الكتابة باللغة العربية. لقد كانت تقوسم لى خيراً.

ولكننى لم أعر انتباها إلى ما كانت تريد أن تقوله لى، وكنت ثملة بالحرية، فلقد حييت سجيئة لفترة طويلة، وكنت مهيأة للفرار إذا ما سعى امرؤ إلى أسرى.

واليوم أجد مشقة فى الاعتقاد بأن الأميرات لم تكن أميرات، كنت أمزح معهن؛ كانت هناك زبيدة وسليمة اللتان كانتا فى مستقبل العمر، لا مباليات، تضحكان طوال الوقت، ولقد اتيتا من قرى الجبل، هاربتين، وكانتا تعيشان محاطتين بهليف من الرجال، تمتلئان السيارات الأمريكية الأنيقة التى كانت تأتي تسمى إليهن أمام الفندق. أتذكر أنه ذات مساء، جاءت سيارة سوداء كبيرة زجاجها مطلى، تحمل علمين على جناحيها، علمان من اللون الأخضر والأبيض والأحمر والأسود أيضاً، فقالت تغادير لى: "إنه رجل ذو شأن وثرى"، حاولت أن أنظر إلى داخل السيارة، بيد أن الزجاج الأسود لم يتح لى أن أرى شئ، وقلت لها "أهو ملك؟"، أجابت تغادير دون أن تسخر منى: "إنه إنسان مهم مثل الملك".

كنت أحب وجه تغادير كثيراً، ولم تكن شابة إلى درجة كبيرة، كانت بها بعض التجاعيد الملاحظة فى ركن عينها وكأنها تبقيسم، وكان جلدها شديد السمرة، به وشم صغير مخط على الجبين، وكنت أذهب معها

إلى صالة الاستحمام مرتين أسبوعياً، كان ذلك يحدث على مقربة من مصب
النهر بالقرب من رصيف الشحن، وكانت تغادير تعطيني منشقة عريضة،
وتأخذ معها حقيبة بها أشياء نظيفة، وكنا نمضي سوياً؛ وفي عهد لالا
أسماء، لم أكن اعرف أن هناك مكان مثل ذلك، ولم أتخيل قط أن أتجرد من
ملابسي أمام الأخريات.

لم تكن تغادير تحتشم البتة، تغدو وتعود أمامي عارية من
ملابسها، وتحك جسدها بأحجار نسفة⁽⁴⁾، وتدعك نفسها بقفازات من
الساف⁽⁵⁾؛ وكان ثديها مكتنزاً، حلمته في لون البنفسج، وكان جلدها ينثني
على أردافها وجوفها، وكانت تنزع بعناية شعر عانتها وإبطها وأخاذها،
وكننت أبدو بجوارها زنجية صغيرة هزيلة البنية؛ وبالرغم من كل شيء، لم
أكن أتمكن من إخفاء خثلي⁽⁶⁾ بمنشفة.

كانت تغادير تحب أن أقوم بتدليك ظهرها وعنقها بزييت لب
النرجيل⁽⁷⁾، الذي تبتاعه من السوق والذي يشبع برائحة الغانليا. وفي صالة
الاستحمام العامة، كانت غيوم البخار تتدحرج خلف الأجساد، وكانت هناك

(4) أحجار نخرة توجد عادة عند رمي الموج في البحار. (المترجم)

(5) الساف هو جلد الحيوان. (المترجم)

(6) الخثلة هي أسفل البطن. (المترجم)

(7) لب النارجيل هو لب يصر منه دهن النارجيل وهو من السمنون النهائية الشهيرة.

(المترجم)

يوماً ضوضاء من الأصوات والصراخ والهمهمات، وكان هناك صبية مرايا تماماً، يهرولون على طول حوض الماء الساخن وهم يصرخون، وكان كل ذلك يجعل رأسى يدور ويحمل إلى الغثيان، وكانت تقول لى: "استمرى يا ليلى، إن يديك قاسياتان وهذا ما يريحنى".

لم أكن أعرف ما إذا كنت أحب ذلك، فلقد كنت أمضى فى غلغلة الزيت فى ظهر تغادير، وكنت أستنشق رائحة الفانيليا ورائحة العرق، ولكى تفيقنى، كانت تغادير تنضحنى بالماء البارد وتضحك حينما أفرّ وشعر كل جسدى منتفش.

غدوت تميمة الفندق، ربما لم تكن السيدة جميلة سميدة لأجل هذا السبب، من الجائز أنها كانت تعتقد أننى كنت مُداعبة وممدوحة لحد أكثر من اللازم لدى الأميرات، وبالتالي كان ذلك ينعكف على خطر قد يفسد طابعى من فرط سماعى لهؤلاء النسوة. يمتدحنى طيلة النهار قائلين: "آه لكم هى جميلة!" وبسبب استغلالى فى نزواتهن، انتهيت إلى تصديقهن، وتأقلمت بخيلاء مع نزواتهن. وكن يبهرجننى بأثواب فضفاضة، ويظلمن أظافرى بالزجنفر، وشفاهى بالمسحوق القرمزى، ويزين عيناى بالكحل. كانت سليمة التى هى من أصل سودانى تهتم بتصفيف شعرى، كانت تقسم شعرى إلى مربعات صغيرة، ثم تجدها بخيط أحمر أو بعقد ملون، أو كانت تغسله بصابون جوز الهند، حتى تجعله أكثر جفافاً وانتفاخاً مثل لبدة الأسد، وكانت تقول لى أن أفضل شئ فى، هو جبهتى وأهدابى الطويلة المقوسة بشكل

باهر، وميناي نوزية الشكل، وربما كانت تقول لي ذلك لأنني أشبهها، وكانت تغادير تخط يدي بالحناء، أو تخط على جبينى ووجنتى نفس العلامات التي كانت تضعها هي مستخدمة قذاة مبللة في سواد مصباح، وكانت تعلمنى الدق على الدف وأنا أرقص في وسط غرفتها، وعندما كانت الأميرات تنصتن إلى صوت الدف الصغير، كن يأتين لأرقص لهن وأقدمى عارية على البلاط، دائرة حول نفسى إلى أن أترنح.

كنت أنفق السواد الأعظم من فترة ما بعد الظهيرة في هذه التصرفات الصبيانية؛ وفي المساء كانت الأميرات تسرحننى لكى تستقبلن زيارتهن، أو أذهب إلى غرفة من غرف أولئك اللواتي يخرجن في سيارة. وحينئذ، كانت السيدة جميلة تنظفنى بطرف منشفة مبللة وتقول لي: "ماذا فعلن بك ثانية، أنهن معتوهات". وبشعرى المنتفش والكحل السائل وأحمر الشفاه الذى يطفح على وجهى، كنت أشبه، على الأرجح، نُميسة مجهنة، ولم تكن السيدة جميلة تقوى على إمساك نفسها عن الضحك من مشهدى، وكنت أنام مهددة بإعصار ذكريات هذه الأيام الطويلة جداً، إلى حد أننى لم أجد أتمكن من تذكر كيف بدأت.

ظفرت حورية بإيثارى لها، كانت أكثرهن شباباً، وآخر من أتى إلى الفندق؛ وصلت قبلى ببضعة أيام، قدمت من مدينة بريرية بعيدة من الجنوب، كانت مقترنة برجل ثرى من تنجر، قهرها وأخذها عنوة، فأعدت حقيبة صغيرة ذات يوم وفرت؛ انتشلتها تغادير من شارع بجوار محطة

القطار، وحملتني إلى هنا حتى تتمكن من الاختفاء والفرار من رسل زوجها، وخشيت السيدة جميلة هذا الأمر، ولكنها وافقت شريطة أن تنصرف حورية متى زال الخطر، فلم تكن ترغب في مضايقات الشرطة.

كانت حورية قصيرة ورقيقة، كان يبدو عليها أنها طفلة تقريباً؛ أصبحنا بسرعة أصدقاء، وكانت تصطحبني معها في كل مكان، حتى في المساء، إلى المطاعم والحانات الليلية، وكانت تقدمني إلى أصدقائها وكأني أختها الصغيرة؛ وكانت تقول لهم: "إنها أختي، ألا تشبهني؟".

كان وجهها جميل الطلعة، متناسق، وأهدابها مرصوفة وعيناها أجمل العيون التي رأيته قاطبة؛ لم أطرح عليها سؤالاً عن الطريقة التي تكسب بها عيشها، كنت أعتقد أنها تتلقى هدايا، لأنها تعرف كيف ترقص وتغني، ثم أنها كانت جميلة، فلم يكن لدى أي فكرة عما تكون عليه أي مهنة ما، وما يمكن أن يكون حسناً أو سيئاً؛ عشت كحيوان صغير مستأنس، وكنت أرى حسناً فيمن يمدحني ويداعبني، وسوءاً في كل من كان يمثل خطراً عليّ ويخيفني مثل هابيل الذي كان ينظر إليّ كما لو كان يريد أن يلتهمني، أو زهرة التي تسعى إليّ بالشرطة قائلة لها أنني سرقت أم زوجها.

أكثر ما كان يخيفني هو الوحدة؛ أحياناً في نومتي كنت أعيش ما حدث منذ زمن بعيد حينما أختطفنت، وكنت أرى الضوء في شارع مبيض، وأسمع صيحة العصفور الأسود المتوحشة؛ أو كنت أسمع صوت العظيمة التي كسرت في رأسي حينما صدمتني الشاحنة.

حينئذ كنت أتحرج في فراش حورية، وأطبق عليها بشدة وألتصق بظهرها كما لو كان سيفشى علي، وكانت هي الأولى التي قصت لي من جذوري، حينما قصصت عليها القوط الذي نهبت زهرة، قالت أنها تعرف أين يكون أناس عشيرتي، الهالبيين، ناس هلال القمر على الجانب الآخر من الجبل، على شاطئ نهر عريض جاف، ووددت أن أذهب إلى هناك في هذه القرية التي دخلتها، في الشارع الذي في نهايته تكون أمي التي ترقب قدومي إليها.

غير أن حورية لم تمكث كثيراً في الفندق، فلقد رحلت ذات صباح، ولم يكن ذلك من جراء زوجها، ولكن بسببي أنا.

ذات مساء، ذهبتُ إلى مطعم على شاطئ البحر مع حورية وأصدقائها، وسرنا كثيراً أثناء الليل حتى أتينا شاطئ عريض خال، وكنت في مؤخرة مقاعد السيارة المرسيديس بجوار الباب، وكانت حورية تجلس في وسط السيارة مع رجل، وكان هناك أيضاً رجلان في الأمام وامرأة شقراء، يتحدثون بصوت مرتفع، وبلغة لم أعرفها، ظننت أنها من الجائز أن تكون الروسية، وأتذكر جيداً الرجل الذي كان يقود السيارة، فلقد كان طويلاً وقوياً مثل هابيل، شعره كثيف وذقنه أسود، وأذكر أيضاً أنه كان له عيون زرقاء وأخرى سوداء. ظللنا لوقت طويل في المطعم، ومن الجائز أن الساعة كانت منتصف الليل. كان مطعماً بهيماً، به ثمة شعل تضيئ رمال الشاطئ، وكان هناك فتيان يرتدون الحلل البيضاء، أمضيت السهرة أرمق البحر الأسود،

وضوء زوارق الصيد التي تعود وضوء "فئار بعيد. كانت السيدة الشقراء تتحدث وتضحك بشدة، وكان الرجال يحاصرون حورية؛ وكانت الريح التي تمر من النافذة المفتوحة تحمل دخان الغليون. شربت خمراً خلسة؛ أسقاني سائق المرسيدس في كأسه، خمر لذيذ للغاية، كثير السكر، يشعل الحلق؛ كان يحدثني بالفرنسية بلكنة غريبة ثقيلة إلى حد ما يجرها على الكلمات، وكنت متعبة إلى حد أنني نمت على مقعد بالقرب من إحدى نوافذ السيارة.

ما إن أفقت حتى وجدتني بمفردي في مؤخرة السيارة، والسائق يميل على، ورأيت شعره المجعد المتلألئ في ضوء المطعم. لم أدرك الأمر في الحال، ولكنه حينما وضع يده أسفل ثوبي استيقظت؛ كنت ثملة وكان لدى رغبة في التقيي. صرخت رغم إرادتي لما انتابني خوف، وحينما أراد السائق أن يضع يده على فمي ضربته وصرخت فيه وأنا أنشب مخالبى في جسده.

أنت حورية على الفور، كانت أكثر غضباً منى، جذبت الرجل من الخلف، وضربته بقهضة يديها، وصاحت فيه بالشتائم؛ حاول الرجل أن يرد الشتائم، تقهقر على الشاطئ، وتناولت حورية حجراً غليظاً، وكادت أن تقتله لو أن الآخرين لم يأتوا، ظلت تسب السائق حتى بكيت، وبكيت أنا أيضاً. ثم أهتم السائق بنفسه وذهب على الجانب الآخر من السيارة، وأشعل سيجارة كما لو كان شيئاً لم يحدث، وبعد لحظة هدأ روع حورية واستطعنا أن نستقل السيارة. كان السائق يقود السيارة دون أن ينظر إليهما، يضع سيجارته في فمه، ولم يعد أحد يتفوه بشئ، حتى أن الروسية صمتت..

أودعنا السيارة في السوق، ودلفنا حتى الفندق، وكان هناك حتى هذه اللحظة أناس كثيرون في الخارج. في الغالب حدث ذلك في مساء يوم السبت. كان شارع العشاق العريض ممتلئاً، كان به زوج من البشر أسفل كل مغنولية⁽⁸⁾. ابتاعت حورية فنجانيين للشاي والحلوى. كنا منهكتين، نرتعش كما يحدث على أثر حادثة، ولم نتحدث حورية عما حدث، إلا أنها قالت مرة واحدة: "أين الكلب هذا قال لي: دعها تنم وسوف أقوم عليها كأبيها".

علمت السيدة جميلة أمر ما حدث على الشاطئ، ولكنها لم تقرر بنفسها أن ترحل حورية؛ ففي الصباح أخذت حورية حقيبتها التي كانت معها حينما التقت بها تغادير بالقرب من محطة القطار، ورحلت دون تبرير، ربما عادت إلى زوجها في تانجو، لم أعد أعرف عنها شيئاً على مدار أشهر، بيد أن رحيلها جعلني حزينة جداً لأنها كانت بحق كأختي إلى حد ما.

بعد ذلك اليوم، حاولت السيدة جميلة أن تمنعني من الخروج مع الأميرات الأخريات، ولكنني مع حورية اعتدت الحرية ولم أعد أمارسها سوى في رأسي؛ وبصحبتي لعائشة وسليمة اعتدت عادة أخرى: شرعت في السرقة.

(8) المغنولية نبات زهري جميل اللمعة أوراقه رائحة. (المترجم)

كان ذلك بداية مع سليمة، عندما كانت تتلقى وصيدقها في الفندق، أو عندما كانت تمضي إلى المطعم، كنت أرافقها، وكنت أتخذ جانباً، متقلصة إلى الباب كالحيوان مترقبة اللحظة. كان صديق سليمة فرنسياً، مدرساً للجغرافيا في المدرسة الثانوية، أو شيء من هذا القبيل، وكان رجلاً حسن اللبس، يرتدي حلة من قماش الفلانيل الرمادي وصدره وحذاء أسوداً مطلياً طلاءً حسناً.

كانت له عادات مع سليمة، كان يصطحبها في البداية لتناول وجبة الغداء في مطعم بالمدينة القديمة، ثم كان يحملها إلى الفندق، وكسان يقيم في الغرفة التي ليس بها نافذة، وكان يحمل إلى الحلوى ويمطيني في بعض الأحيان قطع النقود، وكنت أظل جالسة أمام الغرفة ككلب حراسة، وفي الواقع كنت أنتظر كثيراً حتى ينهضان وأدخل الغرفة بخفة متناهية، ثم أندس في الضوء الخافت حتى أصل إلى الفراش، ولم أكن أهتم بما تفعله سليمة مع الفرنسي، كنت أبحث عن ملامحه، فقد كان المدرس رجلاً يعتنى بهندامه، فكان يطوى البنطال ويضع حلته وصدرته فوق مسند مقعد، وكانت أصابعه تتدحرج في الجيب كحيوان صغير خفيف الحركة، وتأخذ كل ما تعثر عليه: ساعة بصلية الشكل، خاتم من الذهب، حافظة نقود منسوجة من أوراق البنك ومليئة بالنقود، قلم أزرق رائج مطلي بالذهب، وكنت أحصل غنيمتي إلى الرواق حتى أتفحصها في ضوء النهار، وأختار منها بضعة أوراق

وبضعة نقود؛ ومن وقت إلى آخر، كنت أحتفظ بشئ يعجبني، أزرة حاشية قميص من عرق اللؤلؤ أو القلم الأزرق الصغير.

أظن أن المدرس انتهى إلى الشك في شئ ما، ذلك أنه، ذات يوم، أهداني سواراً من الفضة في علبة صغيرة، وحينما قدمه إلي قال: "هذا حق لك"، كان رجلاً عطوفاً معي، فكنت في خجل من نفسي لما فعلت، وفي ذات الوقت، لم أكن أقدر على حبس نفسي عن إعادة الكرة، وكنت أفعل ذلك ليس لروح شريرة بي، وإنما على سبيل اللعب، فلم تكن لدى حاجة إلى النقود، سوى أن أشتري هدايا لسليمة وعائشة أو للأميرات الأخريات، ولم تكن النقود تفيدني في شئ.

ظللت أسرق بصحبة عائشة في المتاجر، كنت أصحبها إلى وسط المدينة وأدخل معها إلى المتجر، وبينما كانت تنهيك في شراء الحلوى، كنت أملاً جيوبى بكل ما أجد من الشيكولاته وعلب السردين والبسكويت والعنب المجفف، وما إن كنت أبلغ خارج المتجر، حتى كنت أنقب سعياً عن فرصة، فلم أعد حتى في حاجة إلى صحبتها. كنت قصيرة سوداء البشرة، وكنت أعلم أن الناس لا يحبون بي، ولا يمكن رؤيتي. ولكن في السوق، لم يكن هناك من شئ أفعله، كان التجار يعرفونني وكنت أحس أن عيونهم ترقب كل حركاتي. كنت أذهب وعائشة إلى مكان بعيد جداً حتى حي المحيط حيث تقام فيلات رائعة وأبنية كلها حديثة البناء، وحدائق. كانت عائشة تحب أن

تتجول كثيراً في المراكز التجارية، وفي هذه الأثناء، كنت أمضي إلى دار المقابر كي أرمق البحر.

وفي هذا المكان كنت أشعر بأنني في مأمن، كان الجو ساكناً وصامتاً، لا أرى فيه ازدحام المدينة، وكأن يبدو لي أن ذلك هو فضائي منذ الأبد. كنت أجلس فوق أكمة المقابر وأستنشق رائحة عسل النباتات الصغيرة كثيفة الأوراق، ذات الورود الوردية، ثم أتمسك الأرض براحة يدي حول المقابر.

في هذا المكان، كان بوسعي أن أتحدث مع لالا أسماء، لكنني لم أكن أعرف البتة أين دفنت؛ كانت يهودية ولهذا السبب لم يكن ينبغي لها أن تدفن بين المسلمين؛ غير أن هذا الأمر لم يكن له أهمية بالنسبة لي، لقد كنت أشعر بأنني على مقربة منها، في دار المقابر هذه، وأنه بوسعها أن تسمعني. قصصت عليها حياتي، ليس كل شيء، مقتطفات فحسب، ولم أرد الدخول في تفاصيل، فقلت: "يا جدتي لن تكوني فخورة بي، أنت التي كانت تقول لي يوماً أنه ينبغي أن نحترم متاع الآخرين، وأن نقول الحق، ها أنا الآن أكبر اللصوص وأكبر كاذبة على وجه الأرض".

حزنت للتحدث إلى لالا أسماء عبر الأرض، وكنت أزرف الدمع ولكن الريح كانت تجففه في الحال، كل شيء أصبح طيباً للغاية في هذا المكان؛ أكمة المقابر المغطاة بالزهور الوردية الصغيرة، وأحجار المقابر البيضاء التي لا تحمل أسماء، والآيات القرآنية المحاة، والبحر الأزرق الذي يرى من بعيد،

وطيور النورس المعلقة في السماء، والتي تنزلق على الريح وترشقتني بمين حمراء وماكرة. كانت هناك سناجب يدار المقابر، ويبدو أنها كانت تخرج من المقابر، كانت تعيش مع الموتى، ربما كانت تأكل أسنانهم كما تأكل الجوز.

لم ينتابني قط الخوف من الموتى، فلأنى رأيت لالا أسماء هاوية على بلاط الصالة تعط وتفرق، أعطاني هذا الأمر فكرة عن أن الموت عبارة عن سهات عميق، فلم يكن الموتى هم الذين أخشاهم في دار المقابر.

ذات يوم، ظهر لي عجوز ضارب في العمر، له لحية بيضاء، من الجائر أنه كان يرقبني منذ وقت طويل، تسمر بجوار مقبرة كما لو كان قد خرج منها، وعندما نظرت إليه مرر يده أسفل ثوبه ثم رفعها وأبان عن نفسه. فكرر أنه ربما خوف ينتابني وأصيح؛ ضمير أنفسي في الفندق كنت أرى رجال عرايا تقريباً كل يوم، وكنت أنصت لداعيات الأميرات حول موضوع أعضاء الرجال التي كن يحكمن عليها عامة أنها غير كافية إلى حد ما.

طاب لي أن ألقى بخصوة على العجوز وفرت وسط المقابر، بينما كان يسبني ويمسك بيا بوجه محاولاً تتبني قائلاً: "أيتها الساحرة الصغيرة!"
- "أيها الكلب العجوز!" -

في هذا اليوم فهمت أنه ينبغي ألا ننخدع بالظاهر، وأن عجوز في ثوب أبيض ولحية أنيقة يمكن في الغالب ألا يكون سوى جرو لنسيم..

كان حتى المحيط مكاناً مهيئاً للمسرقة، فكانت هناك متاجر رائعة، بها أشياء للأثرياء فقط، كما لو كان المرء لا يجدها في جانب سوق المدينة القديمة. في السوق، لم يكن هناك سوى نوع من البسكويت، نوع من المضيفة، وكشراب، فقط الفانتا بعصير البرتقال أو الليمون؛ أما في متاجر حتى المحيط، كان المرء يجد علب من عصير بأسماء مدونة باليابانية والصينية والألمانية، لها مذاق جديد غير معروف، كالتمر الهندي والكيوي⁽⁹⁾ والجوافة، وكنا نجد سجائر من كل البلدان حتى السجائر الطويلة السوداء ذات الطرف الذهبي التي كنت أشتريها لعائشة، والشيكولاته السويسرية التي كنت أسرقها من العرض في المحلات.

كنت أدخل إلى المتاجر خلف عائشة، وأقوم بجولة، وأخرج وجيوبى ممتلئة. لم يكن الناس يعرفونى، فلم يكونوا يحذروننى. كان يبدو على أبنى فتاة صغيرة عاقلة. فى ثوبى الأزرق نى العنق الأبيض، والشريط الأبيض فى شعرى الكث، وعينى السانجيتين. اعتقدوا أننى قاطنة جديدة فى الحى، وأننى أصطحب أمى التى تعمل فى الفلل، ولاحظت أن الكثير من الناس بسطاء، لم يستوعبوا الدرس بسرعة مثلى، كانوا يعتقدون بداية فيما يرون، وفيما يقال لهم، وفيما يجعلهم يعتقدون فيه الآخرون. كنت فى الرابعة عشرة من عمري، وكان يبدو على أبنى فى الثانية عشرة، وكنت أعلم

(9) ثمرة حلوة المذاق. (المترجم)

من الجن، هكذا كانت تقول لي تغادير، وربما كان لديها الحق في قولها هذا، وكانت تتشاجر مع سليمة وعائشة وكانت تعاملهن كقوادات.

أعتقد أنه لم يكن لدى أي معنى للتقدير والسلطة، فلقد كنت أخطر بنفسى في أسوأ المتاعب؛ وفي أثناء هذه الفترة من حياتى، تشكل طابعى وأصبحت غير قابلة للتكيف مع أى شكل من النظام، ماثلة لعدم الإذعان إلا لرغباتى فاكتمسبت نظرة قاسية.

وضعت السيدة جميلة فى حسابها أن تلك الأمور لن تسدوم، لكنها لم تعتاد الأطفال أو بمعنى آخر، كانت الأميرات بمثابة أطفالها؛ ولكنى تصحح الانحدار السننى الذى تركتسى اكتسبه، أرادت أن تدون اسمى فى المدرسة، ولكننى لم أكن أتحدث العربية بشكل جيد حتى أتمكن من دخول مدرسة بلدية، وكان عمري متقدماً جداً على الدخول فى مدرسة أجنبية، وإضافة إلى ذلك، لم يكن لدى أى مستند يدل على شخصيتى، فاختارت لي شيئاً من قبيل المدرسة الداخلية، حيث كانت هناك امرأة جافة شرسة تدعى الأنسة روز تأخذ على عاتقها مسؤولية اثنتى عشرة صبيبة عزال. وفى الحقيقة، كان ذلك المكان بمثابة دار إصلاح على الأرجح. كانت الأنسة روز راهبة فرنسية نزعت عنها لباس الراهبة، وراحت تعيش مع رجل أصغر منها سناً يكرس وقته للحسابات وأمانة الصندوق.

كان السواد الأعظم من الفتيات لهن ماضٍ محمل أكثر من أى ماضٍ، فكن إما هاربات من منازلهن، وإما لهن عشاق، وإما خطبن وجعلتهن أسرهن

حببيسات الدار حتى تتيقن من خاتمتهن؛ أما أنا فقد كنت حرة بجوراهن غير مهمومة، ولم أكن أخش شيئاً، ولم أبق سوى بضعة أشهر لدى السيدة روز.

أساس التربية في الداخلية كان ينص على تكليف الفتيات في أعمال الحياكة والكي وقراءة كتب عن الأخلاق، وأعطتنا الآنسة روز بعض دروس اللغة الفرنسية ودرس لنا المحاسب الوسيم ببخل شديد أهم أفكار في الحساب والهندسة.

عندما كنت أصفُ للأميرات عبودية الفتيات المضطرات إلى كنس وتنظيف أرض الداخلية، أو عندما كنت أقص عليهن أن أصابع الفتيات تحترق بآلات كواء الملابس، أو من مماسك الطناجر، كانت الأميرات تسخطن. أما بالنسبة لي، فلم تكن المسألة أن أزين أي شيء كان، أو أن أقوم بأعمال النظافة، فلقد فعلت كل ذلك للآلاء أسماء، لأنها كانت جدتي، وكنتُ مدينة لها بحياتي، ولم يكن الأمر أن أعيد الكرة كي أثال إعجاب فتاة طاعنة في السن تتقاضى أجرها بصرف النظر عن هذه الأشغال. كنت أسعد بالملكوث جالسة على مقعدي، أستمع إلى دروس الآنسة روز التي كانت تقرأ بصوتها الأبح "الزير والنملة"⁽¹⁰⁾ أو "حلم الياغور"⁽¹¹⁾. ولم أتعلم الكثير في الداخلية

(10-11) إحدى حكايات لافونتين الشعرية Les Fables ، كتبت في القرن السابع عشر، التي يحاول فيها أن يسرد قصة على لسان الحيوانات للخروج بموعظة أو حكمة، ولقد حاكى فيها المؤلف الإغريق إيزوب، وهناك دلائل على تأثر صاحب هذه الحكايات بكتيلة ودمنة.

الآنسة روز، ولكننى تعلمت أن أقدر حريتى، وقطعت عهداً على نفسى حينئذ، أنه مهما حدث لن أدع نفسى مطلقاً تُسلب هذه الحرية.

فى نهاية هذا الفصل الدراسى فى الداخلية، أتت الآنسة روز بشخصها إلى الفندق حتى تقبين، بلا شك، الوسط الذى صنع إنسان سى الطباع مثلى، وكانت السيدة جميلة فى جولة خارج الفندق، فقابلتها كل من سليمة وعائشة وزبيدة فى الرواق بملابسهن المنزلية الطويلة المصنوعة من قماش الموصلى الملون وأعينهن مغممة بالكحل؛ وقلن لها: "نحن عماتنا"، وأمامها هى التى لم تصدق بأذنيها وعينيها، أثقلتنى بالشكوى فقلن أننى كاذبة، سارقة، سليطة، كسولة، وأننى إذا ظلمت لدى الآنسة روز سأعرض كل الفتيات الداخليات للهروب أو أحرق الداخلية بألة كى الملابس، وهكذا طردت من الداخلية. ألمنى ذلك قليلاً، بسبب كل النقود التى خصصتها السيدة جميلة لتربيتى، لكنه لم يكن بوسعى أن أعاقب بالأشغال الشاقة كى أرضيها فحسب.

وهكذا بعد شهور انقطاع، عثرت على حريتى، التمسك فى السويقة، فى حى المحيط الثرى، فى دار المقابر الكبيرة أمام البحر، غير أن سعادتى كانت قصيرة الأمد. حينما عدت ذات ظهيرة من غزوة وجموبسى ممثلة بأشياء غير ذات قيمة لأميراتى، قبض على رجلان يرتديان حلى زرقاء فى مدخل الفندق، ولم يكن لدى الوقت كى أصرخ أو أطلب النجاة. مسكاني، كلاهما من ذراع ونهضا بهى والقيانى فى شاحنة صغيرة زرقاء،

نوافذها محروقة. حدث ذلك الأمر وكأن كل شئ يعيد الكرة، أصبحت مشلولة بالخوف من جديد، كنت أتذكر الشارع الأبيض الذى ينفلق على نفسه والسماء التى تتوارى. كنت مكورة فى قاع الشاحنة الصغيرة، ركبتى ترتفع إلى جوفى ويداي متكئة إلى أذنى وعيناي مفلقتان، أصبحت من جديد فى الحقيقة الكبيرة السوداء التى كانت تبغلمنى.





لم تكن لدى أية فكرة عما حدث لى، ولكننى فيما بعد، أدركت ما حدث: تعقبتهنى شرطة زُهرة ونصبت لى فخاً. كل المتاجر التى سرقتهما كانت تبحث عنى. مثلت أمام قاضى الأحداث، كان رجلاً هادئ الطبع، يتحدث بصوت منخفض للغاية، وبما أننى كنت أجيب بنعم على كل الأسئلة، بدوت له مذنبة، لكنه أراد أن يسألنى أيضاً عن الفندق، عما فعله السيدة جميلة والأميرات، وبما أننى لم أجب بشئ فى هذا الصدد، غضب ولكن دائماً بلطف جم. كسر فحسب القلم الرصاصى الذى كان يقلبه بين أصابعه وهو ينظر إلى، كما لو كان يريد أن يفهمنى أنه بوسعه أن يكسرنى أنا أيضاً بحركة منه.

وخلال أيام عديدة، تم استجوابي، ثم أرسلت إلى عرفتني التي كانت نوافذها مسيجة، فكانت كمدرسة أو مبنى ملحق بمستشفى.

ثم سلمني إلى زهرة، ولو كان قد ترك لي الاختيار بين زهرة والسجن، لاخترت السجن، لكنه لم يمنحني الاختيار.

في هذا الوقت، كانت زهرة وهابيل عظمة يقيمان في مبنى جديد في مخرج المدينة، وسط الحدائق الكبرى، كانا قد باعا دار السلاح، ووافقت زهرة على أن تترك أمها وأبائها لتأتي وتعيش في هذا الحي الراقي.

في البداية، كانت زهرة وهابيل عطوفين معي، وكانا يفعلان ذلك معي وكأنهما قد قررا أن تمحي الشكوى، وكل الماضي، وأن نبدأ بأسس جديدة، وربما كانا يخشيان أيضا السيدة جميلة، أو كانا يشعران أنهما مراقبتين.

بيد أن طبيعتهما عادت بسرعة، فبعد مرور وقت ما، عادت زهرة شريرة معي، فكانت تضربني، وتصبح في أنفي لست سوى خادمة، خادمة لا تفعل شي، في الواقع. كانت تتخذ أقل الزرائع حتى تمضي في غضبها الوحشي، لأنني كسرت قصعة زرقاء، أو لأنني لم أغسل العمدن، أو لأنني تركت أثرا على بلاط المطبخ.

لم تكن تدعني أمضي خارج الدار، وكانت تقول أنه هناك أمر من القاضي ينص على أن أتوقف عن أي ممارسة سيئة. حينما كان يلزم لها المضي خارج الدار، كانت تحبسني في الشقة مع كومة الملابس التي في حاجة إلى

الكى. وذات يوم، صهبت ياقة قميص من أقمصه هابيل، ولكى تعاقبنى
حرقى زهرة يدى بالنار. كانت عيناي مغممة بالدموع، ولكننى كنت أشد
على أنيابى بكل ما أوتيت من قوة حتى لا أصبح، فكدت أفقد نفسى، كما لو
كان شخص ما ضغط على حلقى، ولكنه لم يغشى على. وحتى اليوم يوجد على
يدى مثلث أبيض لن يمحي أبداً من أثر تلك الواقعة.

كنت أظن أننى ساموت من الجوع، ولم يكن هناك شئ آكله، وكانت
زهرة تظهى الأرز لجرو صغير كان لديها، كلب من نوع الشتنرو⁽¹⁾، شعره
طويل، لونه أبيض أقرب إلى الصفرة؛ كانت تسقى الأرز بحساء الدجاج، وكان
هذا كل ما تعطينى إياه، كان طعامى يقل عن طعام جروها الصغير، فكنت
أختلس، من وقت إلى آخر، حبة فاكهة من المطبخ، وكان هناك خوف ينتابنى
من ما يمكن أن يحدث إن لمحتسى. كانت قدمائى وذراعائى مدثرة باللون
الأزرق من جراء ضرباتها لى بالزئار، لكننى كنت أتصور جوعاً إلى حد أننى
كنت أسرق من خزانة المطبخ السكر والبسكويت والفاكهة.

ذات يوم، كان لديها مدعوين على الغداء، أسرة فرنسية يطلق
عليها الدلاهاى، فاشتريت لهم عنقود عنب أسود كبير من متجر كبير فى حى
المحيط، وبينما كانوا يأكلون المشهيات، كنت أرقب فى المطبخ وأكل الكرم. ثم
لاحظت أننى التهمت كل الحبوب المتراصة على العنقود. حينئذ، وحتى

(1) جنس الكلب أو فصيلته. (المترجم)

أوجل لحظة اكتشافهم للجريمة، وضعت محاشر من الورق أسفل العنقود بطريقة يبدو بها أنه مكتنز في الطبق، وكنت أعلم أن الأمر سيُكتشف، إن آجلاً أو عاجلاً، ولكن الأمر كان فيه شرٌّ لي، فلقد كان الكرّم لذيذ المذاق، حلو وشذى كالعسل.

في نهاية الغداء، حملتُ الكرّم، وطلب المدعوون أن أمكث معهم، وقالوا لزهرة عني: "إنها محميتك الصغيرة".

كانت زهرة تتصنع، فنزعت عني ملابس الرثة والبهستني الثوب الأزرق ذا الياقة البيضاء الذي كان بحوزتي في دار لالا أسماء. كان الثوب قصيراً إلى حد ما، وضيقاً جداً، لكن زهرة تركت الزلافة منفرجة، وربطت ستارة فوقها، ثم إنني أصبحت نحيفة للغاية.

كان المدعوون يقولون: "إنها رائعة"، إنها جذابة، كل تهانينا لكم"، وكان الفرنسيون لطفاء، وكان السيد دلاهاى ذا عيينين زرقاوتين شديديتي الصفاء بارزتين على وجهه البرونزي، وكانت زوجته شقراء، يشتريها حمراء قليلاً، غضة كثيراً. وددت كثيراً في أن أطلب منهم أن يحملوني معهم، ويتبنوني، ولكنني لم أكن أعرف كيف أقول ذلك لهم، أردت أن يطالعوا يأسى في نظراتي وأن يفهموا كل شيء عني.

بالطبع، في لحظة تناول الحلوى اكتشفت زهرة أسفل العنقود المأكول وحشو الورق، فلفظت اسمي، وكانت أطراف ساق العنقود منزوعة الحبات ومنتفشة كالشعر، إلى حد أن عنقود العنب بدا عليه الخزي.

قالت السيدة دلاهى: "لاتنهرى بها، إنها طفلة، ألم نفعل نحن شيئاً من هذا القبيل حينما كنا أطفالاً؟". كان زوجها يضحك علناً وكان هابيل يطلق بسمه غامضة؛ ولم تتظاهر زهرة بالضحك، ألقت على نظرة سيئة وبعد رحيل الفرنسيين، مضت تبحث عن الحزام الثقيل ذا الهزيم النحاسى وقالت لى: "عن كل حبة سوط"، ضربتنى حتى سال دى.

وبفضل عائلة الدلاهى تمكنت من الخروج من الشقة، فلقد هتفت السيدة دلاهى إلى زهرة ذات يوم قائلة لها: "قولى لى ياعزىزتى، أتعيرننى لوقت قصير محميتك الصغيرة، إنك تعلمين لكم أنا فى حاجة إلى من يعاوننى فى الدار، وفى ذات الوقت سيمكنها ادخار قليلاً من نقود جيبتها".

فى البداية، رفضت زهرة متزرعة بأشياء مختلفة، لكن السيدة دلاهى عابتها على ذلك قائلة: "أتمنى ألا تسجنى بها"، فانتساب زهرة شئ من الخوف، وظننت أن هناك تهديد وراء مزاح السيدة معها، ولذا تركتنى أذهب إليها، مرة ثم مرتين فى الأسبوع.

كانت أسرة الدلاهى تستأجر داراً أنيقاً فى حسى المحيط، وكانت شركة هابيل هى التى قامت بأعمال الدهان والإصلاح للدار. وكان هذا الدار مكاناً هادئاً، به حديقة مزروعة بأشجار البرتقال وأشجار الليمون وسياج دافلى⁽²⁾. كان هناك الكثير من المصافير، وأحسست أننى على ما يرام فى دار

(2) الدافلى: نبات يهرس بجوار السياج لتزيين أسوار المنازل. (المترجم)

الدلاهاى؛ كان يبدو لى أننى عثرت على الهدوء الذى عرفته فى طفولتى فى الملاح عندما كانت الدنيا تنحصر فى فناء لالا أسماء الأبيض.

كانت جوليت دلاهاى حنونة معى، حينما كنت آتى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر، كانت تقدم لى الشاي والحلوى الصغيرة من علبة معدنية حمراء، وعلى الأرجح أنها كانت تشك فى أنى لا أكل بشكل كاف لدى زهرة، حينما كانت تلاحظ أننى أسرع نحو الخشكفان⁽³⁾. أظن أنها تعرف ماضى، ولكنها لم تكن تتحدث عنه، فعندما كنت أمرر خرقة الأتربة فى غرفتها، كانت تترك كل حليها بشكل واضح على الصوان، وكذلك قطع من النقود الصغيرة، بينها قطع معدنية نقدية، وأعتقد أنها وضعتنى تحسب الاختبار، فمنعت نفسى من الاقتراب من هذه القطع، كانت تحصى النقود بعد ضرورى، ومن مرج صوتها كنت أعلم أنها سعيدة لأنها وجدت قطع النقود كلها، ولكنها بينما كانت تفعل ذلك، كان بوسعى أن أفتش جيوب حلة زوجها المعلقة فى الشارع فى بهو البيت.

كان السيد دلاهاى مسناً إلى حد ما، أنفه عريض، ونظاراته كانت تضخم عينيه الزرقاوتين، وكان حسن المنبس، يرتدى دوماً حلة رمادية اللون، غامقة، مزينة بكرة حمراء على العروة، وحذاء من الجلد الأسود مطلى طلاءً حسناً. كان فى السابق رجلاً هاماً، سفيراً أو وزيراً لا أعرف؛ أما

(3) هو البسكويت الخشن. (المترجم)

أنا، فلقد كنت معجبة به، كان يناديني: "صغيرتى" أو "آنستى"، ولم يكن هناك مطلقاً من يخاطبني بهذه الطريقة، كان يخاطبني بلغة المفرد، لكنه لم يكن يعطينى أبداً الحلوى ولا النقود. أما هوايته فكانت تتمثل فى التصوير الفوتوغرافى، فكانت هناك صور فى كل مكان فى داره، فى الممرات والصالة والغرف، حتى فى المرحاض.

ذات يوم، دعانى إلى مشغل التصوير، كان عبارة عن مبنى صغير ليس به نوافذ، يقع فى طرف الحديقة، كان يُستخدم كمقر سيارات قبل أن يهيئه لعمله، وفى هذا المكان، كان يحمض ويستخرج الصور الفوتوغرافية.

ما أدهشنى فى مشغل الصور الفوتوغرافية، هو صور قرينته المعلقة على الحائط؛ صور قديمة إلى حد ما، كانت تبدو فى ريعان الشباب، تبدو مجردة من ملابسها، بها ورود مخروسة فى شعرها الأشقر، أو فى لباس بحر على شاطئ، لقد التقطت لها هذه الصورة فى بلد آخر، فى جزيرة بعيدة، حيث تُرى أشجار النخيل والرمال البيضاء والبحر فى لون فيروزى. ذكر لى الأسماء، يبدو لى أنها مانورافا أو اسم من هذا القبيل، وكان هناك أيضاً على الحائط شيئاً عجيباً من الجلد الأسود، مزين بمسامير من نحاس عدده هداية سلاحاً، مقلاعاً أو خطاماً، وحينما شاهدت الصور دهشت للتحقق من أن ذلك هو ساتر عورة السيدة دلاهاى الذى علقه زوجها هنا على سبيل الغنيمة.

اعتدت أن أرى النساء عاريات، فى صالة البخار مع تصادير، أو عندما كانت عائشة أو فاطمة تتجولان فى الحجرة، وبالرغم من ذلك، فقد

كنت أستحي أن أرى هذه الصور باللون الأبيض والأسود لدام دلاهاى، كانت ممددة وعارية تماماً فوق شرفة فى الشمس، وأسفل جوفها، كانت عانتها تكوم قطعة مثلثية سوداء تتعاكس مع لون شعرها. كان السيد دلاهاى يرقبني من خلف نظارته بضحكة غامضة، اعتقدت أيضاً أن ذلك كان بمثابة اختباراً لى، فأخفيت خجلي، إذ كنت أرغب كثيراً فى نيل رضاها.

عدت إلى مشغل الصور الفتوغرافية مرات عديدة، وكان السيد دلاهاى يشرح لى تقنية استخراج الصور، وحمامات التحميض، وكيف نأخذ الصورة باللقاط ونعلقها بخيط حتى نتركها تجف. كنت أحب كثيراً أن أظهر الأوجه فى الدلو، ويبطن تصبح شيئاً فشيئاً سوداء. كان هناك أوجه نساء وأطفال ومشاهد من الشارع، وفتيات أيضاً فى أوضاع غريبة بالثوب المفتوح الذى يتدلى على الكتف والشعر المتهدل.

كان السيد دلاهاى يقول لى أننى ذكية وأننى موهوبة فى التصوير، وتحدث بشأنى إلى السيدة دلاهاى بحماس وقال أنه ينبغي أن نلحقها بمعمل تصوير، وأنه يسعى أن أتخذ من ذلك مهنة لى. أما أنا، فلقد كنت أنظر إلى هذه المرأة الراقية للغاية وأود لو أذهب عن رأسى قطعة الجلد الأسود التى تتدلى على حائط مشغل الصور، فقلت لنفسى إن ذلك لا يمثل شيئاً، وأنهما على الأرجح قد نسياه، كما ينسى المرء ويعلق قبعته فى مسمار مثبت على الحائط وهو يمضى.

ذات بعد ظهيرة، فى بداية فصل الصيف، كان الطقس حاراً للغاية فى خارج الدار، فذهبت كمادتى بعد نهاية مهامى كى أعمل قليلاً فى

استخراج الصور، وكان السيد دلاهاى منهمكاً وقد علق حُلَّتته على عَلاَقة ملابس، ولم يكن يشعل الضوء الأحمر وقال: "اليوم لدى الرغبة فى تصويرك"، كان ينظر إلى نظرة غريبة؛ وقال ذلك كما لو أننا اتفقنا على هذا الأمر مسبقاً، لكننى لم أكن أرغب فى أن يلتقط لى أحد صوراً فوتوغرافية، فلم أحب مطلقاً هذا الأمر، أذكر أن لالا أسماء كانت تقول إنه من السوء أن يلتقط صوراً للمرأة، لأن ذلك يهلك الوجه؛ وفى ذات الوقت، كنت سعيدة أن تحسرو الرغبة رجل كالسيد دلاهاى فى تصوير فتاة سوداء مثلى..

أشعل مصابيح ذات الكلاية، ووضع منضدة منخفضة أمام ملاء كبيرة بيضاء مثبتة على الحائط بمسامير، ثم أعد كل هذه التجهيزات، وعلى الأرجح أنه فكر فى هذا الأمر منذ وقت طويل، فلقد كان وجهه جاداً عملياً، وجبينه يلمع بالعرق من حرارة الصباح، ثم أجلسنى على المنضدة المنخفضة وجعل نصفى الأعلى مستقيماً جداً.

ثم شرع فى التقاط الصور لى، واضعاً آلة التصوير على قدمه حيث كان يسطع ضوء أحمر، وكنت أنصت إلى صوت صمام الآلة، وكان يبدو لى أننى أسمع صوت استنشاقه ونفسه الربوى، فكان ذلك الأمر غريباً. لم يكن ينتابنى مطلقاً خوف منه، وأحسست فى نفس الوقت أن قلبى يبدق بقوة كما لو كنت لى طريقى لفعل شئ محرم وخطير.

توقف، رأى أن شعرى لم يكن مصففاً بطريقة حسنة، أو رأى أن شعرى لم يكن متهدلاً بشكل كاف؛ نزع عنى العصاية التى كانت زهرة

تجبرنى على وضعها، ثم بلل شعرى بالماء البارد وجففه بآلة تصفيف شعر من ماركة باييليس، فأحسست بالهواء الساخن على عنقى والماء البارد الذى كان يسرى على رقبتى، ويبلل ثوبى. فى هذه الأثناء، كان السيد دلاهاى يبدو غريباً بحق، كان يشبه هابيل عندما حاصرني فى حوض الغسيل فى فناء لالا أسماء، تصيب عرقاً، وكانت نظرتة لامعة متفحصة، وبياض عينيه كان أحمر اللون قليلاً. فكرت فى أن زوجته من الممكن أن تصل بين لحظة وأخرى، وأن ذلك سيغضبها. فى لحظة ما، ذهب نحو الباب، ونظر للخارج، ثم أغلق على الباب وأدار المفتاح فى القفل. كان ذلك الأمر بمثابة شئ غريب يشبه الأشياء الغريبة التى حدثت لى من ذى قبل، من السيدة جميلة إلى الآنسة روز ثم زهرة. ومنذ هذه اللحظة، شعرت بأننى لست على مايرام، وكان قلبى يندق بسرعة شديدة، وأحسست بحرق من القلق الذى استشرى فى جنباتى وعلى طول ظهرى.

بدأ السيد دلاهاى فى التقاط الصور، وقال لى شيئاً ما حول ثوبى، إنه لايناسبنى، وأنه مبلل للغاية. كان يريد شيئاً، يتفق مع جسمى، شيئاً أكثر همجية وبربرية وأكثر حيوانية، ففسك أزارار ثوبى وجوف الرقبة، وأحسست بيده على رقبتى وكتفى، وأحسست بنفسه، فكنت أنأى عنه وأميل بنصفى الأعلى. على الأرجح كان الغضب فى عينى، ذلك أنه رجع للخلف وأخذ فى ترديد العبارات مكرراً: "هكذا رائع، إنك رائعة"، ومن وقت إلى آخر، كان يمر خلفى، ينزع زر من أزره ملاهسى ويدحرج الثوب قليلاً من على أكتافى، ولكنه كان يلمسنى بالكاد، وكنت أشعر بهواء استنشاقه فى عنقى.

وفى لحظة ما، لم أقو على التحمل، وملكنى الغثيان، فنهضت دون أن أصلح من شأى، هرولت حتى الباب. وبما أن المفتاح لم يكن فى القفل، عدت. كان السيد دلاهاى متصلاً أمام آلة تصويره، بدا عليه التفكير، كان على وجهه انطباع غريب عنى، كما لو كان يأسف كثيراً، ولم أعرف ماذا أقول، وبصوت غضوب قلت: "إن لم تدعنى أخرج فسوف أصبح"، ففتح لى الباب، وأبتعد عنى كما لو كنت عقرباً، وقال لى: "ماذا بك؟ ماذا فعلت بك؟ لم أرد أن أخيفك، أردت أن التقط لك صورة فحسب"، لم أنصت إليه، ورحلت مسرعة، وخرجت من الدار دون أن أقول "إلى اللقاء" للسيدة دلاهاى، وكان قلبى يدق بشدة، وشعرت بنيران فوق وجنتى وفوق رقبتى حيث مرر هذا الرجل أنامله.

انتهيت بالعودة إلى دار زهرة، ولم يكن هناك أحسد، انتظرت عودتها وأنا على السطح، ولم تضربنى مخالفة لعادتها، ولم تطرح على أى سؤال. وببساطة لم أعد أرى عائلة الدلاهاى، وأعتقد أنه اعتباراً من هذا اليوم قررت أن أرحل، أن أذهب إلى مكان بعيد على قدر استطاعتى، فى نهاية الدنيا وألا أعود مطلقاً، وفى هذه الفترة أيضاً قررت زهرة أن تخطبنى إلى شخص ما.

لم أدرك على التو أنها دبرت هذا المشروع، ولكننى لاحظت أننى منذ لم أعد أذهب إلى عائلة الدلاهاى، كانت زهرة أكثر عطفاً على، لكنها ظلت تسجننى فى الشقة، ولكنها لم تعد تضربنى، بل كانت تعطينى كميات أكثر من الطعام، وعلى غير المعتاد كنت أقتسم الطعام مع الشقزو، وكان لى

الحق في حبة فاكهة من حين إلى آخر، حبة موز، أو تفاحة، أو تمر
محمص، حتى أنها ذات يوم أعطتني العلبنة الصغيرة الحجم التي تحتوى
على القوط الذهبى وهلال القمر الذى يحمل اسم عشيرتى والذى تركه لى
نصوص الأطفال عندما ياعونى إلى لالا أسماء، وقالت لى: "هذا لك، كنت
أحتفظ به حتى لاتخاطرى بفقده، وهذه إرادة أمى وكيف لا أتبعها ؟". كنت
أسأل نفسى دوماً لماذا تفعل ذلك، إن التفسير الوحيد الذى عثرت عليه، هو
أن لالا أسماء ظهرت لها فى منامها وقالت لها أن تفعل ذلك، فلقد كانت
زُهرة تتصور أن روحها شريرة.

كانت كثيراً ما تأتى السيدة دلاهاى كى تطلبنى، ولكن زُهرة لم تكن
تُرد أن أراها، إضافة إلى ذلك، كنت قانعة بزُهرة لحد كبير، وتعلمت فجأة
أن أمت هؤلاء الناس الطيبين المهبذين، بسبب قصة سائر الصورة وصورهم
الشاذة.

ثم كان هناك هذا الرجل الذى جاء الآن إلى الدار، كان شاباً، موظفاً
فى بنك، أو شئ من هذا القبيل، متكلفاً للغاية، وعلى الأرجح أن زُهرة قالت
له أننى أتحدث العربية بصعوبة، فكان يخاطبني بفرنسية مهجورة رسمية
تولد لدى الرغبة فى الضحك. كانت زُهرة تقدم له شاياً فى الصالة، وتحضر
له طقاة غليون، حتى لايسقط رماد السجائر على المسجاد. كانت له طريقة
فى مسك سيجارته بشكل مستقيم وكأنه يمسك بقلم رصاص. الخلاصة، كانت
هيئته خرقاء وساذجة.

عندما كنا نعلم أنه سيأتى ، كسأنت زهرة نجعلنى أرتدى قميصى الأزرق ذا الرقبة المثقوبة، ذلك الرداء الذى كان يملكه السيد دلاهاى والذى أراد أن ينزعه عنى يوم التصوير. كنت أحمل إليه الصينية وبها أكواب مطلية بماء الذهب وعلبة سكر ، وكان السيد جماح - الذى كنت ألقبه دوماً بابداً⁽⁴⁾ - ينظر إلى بعينين عطوفتين للغاية، وكان وجهه الرقيق الأبيض ينم عن عاطفة ؛ وحينما كنت أجلس أمامه على الوسادات، كنت أبغت بالنظرات الخاطفة التى يصبها إلى ساقى من آن إلى آخر. ظل هذا الأمر لمدة أشهر عديدة، وانتهيت بأن أمزح بلقاءاته، فكنت أسلك سلوك التذلة فألفظ الكلمات المضمرة المعنى حتى يفكر فى ما وراء ذلك. وفى هذه الفترة، أصبح هابيل غيوراً، دنيئاً، فكان ذلك الأمر بالنسبة لى لعبة أتسلى بها، ووسيلة للانتقام من كل ما فعله بى فى السابق؛ كنت ألهو بإيهامه بأننى سعيدة من هذه الخطبة المعلنّة؛ وعندما كان يأتى من خارج المنزل، كنت أسأل زهرة عن السيد جماح كثيراً، ثروته، ودار أسرته، وموقع أخوته، إلخ..

ذات يوم وهو يمر أمامى، القىّ على نظرة سامة وقال: "على كل، ليس لديك الوقت الكثير الذى ستمكثينه هذا"، ثم قال لى أن حفلة الخطوبة ستكون فى شهر أكتوبر، وأضاف: "طالما أسلك تحبين الفساق فإن الخطوبة ستعقد فى فندق على شاطئ البحر حيث حجزنا الصالة".

(4) فى النص الفرنسى هناك ما يشبه السجع الخفيف أو التقابل الصوتى بين اسم العلم

Jamah والطرف النافى jamais الذى لعبت البطلة جماح به. (المترجم)

لم أقم بإعداد حقائبي حتى لا يفتنوا أمرى؛ وقمت بوضع كل حصيلتى فى ملابسى، كل ما سرقت، وكل ما كسبت وأنا أعمل لدى عائلة الدلاهاى، وكل ما أخفيت تحت قطعة فى أسفل جدار الحائط فى الغرفة التى كنت أرقد فيها. وضعت النقود فى جيوبى وحكت الأوراق النقدية داخل قميصى فى واجهة معدتى، وغرست القرط الهلالى أسفل عصابة رأسى.

ولكى أخرج، انتظرت أن تنتهى زهرة من مساعبيها، وألقيت من خلال نافذة مغسل الثياب بعض الملابس فى الفناء، وقلت لزهرة أننى سأذهب لإحضار هذه الملابس. كان قلبى يدق، خشيت أن تظن أمرى من خلال نغمة صوتى. بعد الظهيرة، انتاب زهرة نعاس، ترددت فى النوم، لكنها كانت متعبة، فأعطتني المفتاح وقالت: "لا تنتهزى ذلك الأمر فى التسكع خارج الدار".

– "كلا يا خالتي سامود على التو".

تشاءبت وقالت: "شدى الباب، وأعيدى غسيل كل شئ".

خرجت عن طريق السطح، ولكى أنتقم لنفسى، أخذت معى الكلب، وأغلقت الباب بالمفتاح بسنتين. أما المفتاح الآخر فكان مع هابيل، وكنت أعلم أنه لن يعود قبل أن يأتى المساء.

وفى أسفل السلم، دفعت الكلب الشتزو بركلة قدمى، وألقيت بالمفتاح فى صندوق القمامة، ثم أغرته فى الفضلات حتى أكون على يقين من أن أحداً لن يعثر عليه، ثم مضيت فى الشوارع الخالية، فى الشمس، دون عجلة من أمرى.

دوار تيريكنة

كان همى الأول، كما تتصورون، أن أذهب إلى الفندق حتى أرى السيدة جميلة والأميرات، فبعد مضي قليل من الأيام سيكون قد مرّ عسّام على اللحظة التى جاءت فيها شرطة زهرة وهابيل للقبض علىّ. عندما وصلت أمام الفندق، لم أعرف شيئاً؛ كان الأمر يبدو وكأن زلزلاً أرضياً قد داهم المكان؛ الحائط السياجى المرتفع، والباب ذو الشقتين تلاشا؛ وفى ساحة القناء، حيث كان الباعة الجائلون يقفون، طُليت الأرضُ بالقار وتم تهيئتها مقرأ للسيارات والشاحنات التى تأتى إلى السوق؛ أما الغرف السفلى، فقد تسورت أو أغلقت بالسّاتر المعدنية؛ وأما الطابق العلوى، فقد ظل هو فحسب مشابه لحالته القديمة تقريباً، اللهم إلا أنه كان يبدو لايصلح للإقامة فلقد كان بسال

ومهجور. أوراق الحائط فيه كانت تسقط من الواجهة، والمصارع كسائت مهشمة، وكانت هناك أيضا الثُوم تعشش في سقف الرواق، لم أتصور المنظر، ودهشت، انتابني إحساس بأن غير ما قد أتى على المكان.

في مدخل مقر السيارات، كان هناك حارس، رجل جفاف، وجهه محروق كوجه الجندي، يرتدى بذلة طويلة، شعره مصفف على هيئة العمة المتراخية؛ وخلفه في الفناء، كان هناك صبية صغار مشهمكين في غسيل زجاج السيارات بذل الماء الممزج بالصابون ومماسح بالية. في هذه الأثناء، كان الحارس ينظر إلى نظرة ربيبة، ولذا لم أجسر على طرح أسئلة عليه، فربما كان سيوشى بي للشرطة. على أية حال، ماذا يمكنه أن يعرف؟ ما كان يحزنني هو الظن بأنني السبب في إخلاء الفندق، فلقد نفذ المالك تهديداته، وأخرج السيدة جميلة والأميرات بدعوى سوء الخلق وباع المنزل للبنوك.

قال لي هذه الأخبار العجوز رومانة، التاجر الذي كنت دوما أذهب إليه كي أشتري منه التبغ الأمريكي لتغادير، أما السيدة جميلة فقد قبض عليها وأودعت السجن، ورحلت كل الأميرات؛ لكنه أبلغني أن تغادير مضت تعيش على الجانب الآخر من النهر في دوار يطلق عليه تبريكة، وأبلغني أن حورية تعيش معها. اشتريت منه بضعة سجاثر، ولاسيما تذكارا للماضي، لكنه لم يكن بوسعي أن أتأخر في هذا المكان، لأن زهرة ستأتي لتبحث عني في البداية في ناحية الفندق دون شك.

كان النهار يوشك من نهايته، فاستقلت الزورق، كان مرسى المراكب شاسعاً، وقد شرعت مراكب الصيد في العودة إلى الشاطئ محملة بالأسماك الطازجة، تحلق فوقها طيور النورس وقد أحاطت بها. تلاشت حدود المدينة في الضباب، وعلى الساحل الآخر، كان الشاطئ مظلماً، وكان هناك ضوء يبرق في السماء. وللمرة الأولى، أحسست أنسى ظليقة، ولم يعد لدى أي ارتباطات، فأدلف نحو المستقبل. لم يعد ينتابني الخوف من الشارع الأبيض وصيحة العصفور، ولن يكون هناك من يلتقيني في حقيبة ويضربني، وتظل طفولتي في الجانب الآخر من هذا النهر.

وجدت مشقة في العثور على تغادير، فلقد كان دوار تبريكة نائياً عن النهر؛ كان يقع في حسي مرتفع يخلقه شارع تحت الإنشاء تمر فيه الشاحنات الكبيرة. كان حياً بانساً جداً، لم يكن به سوى الأكواخ الخشبية المغطاة بالصفائح المعدنية المظلمة، أو من الفيروسمان⁽¹⁾ المتكئة على الأحجار كي تقاوم الرياح. كانت الشوارع متماثلة، ممرات أرضية مستقيمة للغاية مزووجة بالأتربة، وكان الشارع الكبير بمثابة غيمة كبيرة تميل إلى اللون الأحمر فوق المدينة.

دلفت في الأزقة على غير هدى، وبسبب شعري الكث وثوبى الرث، جعلت الكلاب تعوى صوي؛ وأمام صنبور للماء، كانت هناك

(1) مادة بناء صلبة يدخل في تكوينها الأسمنت. (المترجم)

مجموعة من النسوة والأطفال يحبثون أقذاح ماء بلاستيكية ؛ وكان هناك أيضاً صبية يمرون على الدراجات فى كل مكان، معهم أقذاح الماء أو أخشاب النار التى كانت تتوازن على دراجاتهم. أشارت إحداهم إلى منزل تغادير، ثم اصطحبتنى إلى نهاية الطريق بينما كان قدحها يمتلئ بمفرده تحت صنوبر الماء ؛ وفى نهاية شارع، أشارت إلى منزل صغير مغطى باللون الأخضر، وكان هو الدوار.

كان قلبي مشدوداً، لأننى لم أكن أعرف كيف تستقبلنى كل من تغادير و حورية بعد ما حدث، وظننت أنهن قد ترفضان لقائى وترمياني بالأحجار.

لم أكن فى حاجة لطرق الباب، فلقد أخبرهن عن قدومى على الأرجح شخص ما، إذ خرجت حورية فى اللحظة التى وصلت فيها، وعانقتنى ضامة جسدى إليها بقوة شديدة وكسرت: "ليلس، ليلس"، وكانت هناك دموع فى عينيها، لقد تبدلت؛ أصبحت أكثر شحوباً، شهباء قليلاً، بها ازرقاق دائرى حول العين من جراء المشقة ؛ وكان ثوبها مئوثر من الوحل، أقدامها عارية فى صندلها الذى لم تربط قدته.

سمعت صوت تغادير الأبح فى قاع الغناء، وكان هناك نوع من الأفريز البلاستيكى الأخضر المتموج كذلك الذى نراه فى الحدائق، والسدى كان يحيط بموقد النار فى الدار. جاءت تغادير، كانت ترتدى هى أيضاً اللون الأخضر، لم تتبدل كثيراً ؛ كانت التجاعيد الصغيرة التى كنت أعشقها فيها على طرف

عينيهما وعلى جانبي قمها ملحوظة بشكل واضح، وكانت تعرج قليلاً، إذ كان أحد ساقيهما محاط بضمادة.

تعانقنا، وسعدت بالعثور عليها واستنشاق رائحتها، وبدأ لي أنسى عثرت على قريبات لي، على أسرتي بعد سنوات وسنوات من الغياب. أخذت تغادير كوب شاي لنفسها، به نبات الجونبود الشهير الذي تعشقه والنعناع الذي تزرعه في أواني بالقرب من المطبخ. كانت لدى أسئلة كثيرة أريد أن أطرحها عليها، ولكنني لم أكن أعرف كيف استهلها. حدثتني حورية عن السيدة جميلة: فبعد أن أمضت مدة قصيرة بالسجن، ذهبت إلى مدينة أخرى، ربما إلى ميلالة أو إلى فرنسا، ورحلت الأميرات، كل أميرة في جانب: زبيدة وفاطمة تزوجتا، وتزوجت سليمة من أستاذ الجغرافيا، وعائشة تعمل بالتجارة، وظل الفندق مغلقاً لفترة طويلة ثم هُدم الجدار. عندما كنت أقول لها أن كل ذلك حدث بسبب خطئي وبسبب أنه قد قبض عليّ، كانت تغادير التي تبدو عجوزة تُهدأ من روعي وتقول: "كان لابد أن يحدث ذلك، فلقد مر وقت طويل دون أن تُسدّد السيدة جميلة الإيجار، بخلاف وشايات التجار الذين لم تنس لهم، ثم أن الفندق كان داراً لكل الناس، وكان لابد من أن ينتهي هذه النهاية يوماً ما"، فواستقني، لكنه في نفس الوقت، لم يبعد عن مخيلتي أن شر زهرة كان وراء كل ذلك، فلقد كانت هذه المرأة بمثابة شيطان لي.

قلت لتغادير وهي تبين عن ساقها: "ما بك؟"

هزت كتفها كما لو كان تساؤلي قد ضايقها، وقالت: "لا شئ لدغني عنكبوت، أعتقد ذلك".

وقالت لي حورية الحقيقة بعد ذلك: تضادير معتلة بسداء السكر، وفحص الطبيب ساقها في المستشفى وعهد بها إلى حورية وقال لها: "إنها مُعتلة للغاية، ساقها يتآكل وسيلزم أن تُبتر"، ولكن حورية لم تُسرد أن تصارحها بشئ، وقالت لي: "ما زالت تعتقد أنها لدغسة عنكبوت، وتضع كمادات الذبذبات، وتقول أنها تتحسن، لكنها لم تعد تقسألم لأن ساقها في طريقها للهلاك"، وكان ذلك الأمر مخيفاً، ولكن من جانب آخر، كان من الأفضل ألا تعرف الحقيقة طالما أنه ليس هناك أصل في شفاؤها.

لم تكن حياة دوار تبريكة يسيرة، ولا سيما بالنسبة لي، أنا التي لم أعرف قط حياة البؤس، فحتى في دار زهرة، كنت أتناول الطعام يومياً، وكان هناك الماء والكهرباء. أما هنا، في تبريكة، فكان يفتأنا الجوع يوماً، وحتى الأشياء البسيطة كانت تنقصنا، كإمكانية الاغتسال كل يوم، أو وجود الخشب الصغير لغلي الماء للشاي. كان هناك أطفال يبيعون الخشب المقطوع، يجلبونه من مكان بعيد، من على الجانب الآخر من الطريق، من التلال. وكانت هناك فتيات صغيرات، ملابسهن رثة، يحملن على ظهورهن حزم الحطب الموثوقة بأحبال أضخم من أجسادهن. ومع ذلك فقد كان دارنا بعيداً عن أن يكون أكثر الديار فقراً.

كانت تغادير فخورة بهذا الدار، ذلك أن ابنسها عيسى هو الذى شيده، وكان عيسى بنىء يعمل فى ألمانيا. وفى الحجرة التى تُستخدم كصالّة للدار، علقت تغريد صورته، صورة كبيرة معلقة إلى حد ما، كأن يشبهها، كانت عيناه مصدوعتين إلى حد ما كالميتين.

ولقد اختارت تغادير أن تطفى البيت باللون الأخضر، لونىها الفضل: طلست باللون الأخضر أوانى الزهور حيث كانت تغرس النعناع والتويسة، واللون الأخضر المقاعد والمنضدة المنخفضة ووجدت أيضا إبريق شاي إنجليزى فسروزي به أذن درهمية وغطاه مستدير كحب البسلة.

كانت الدار كبيرة بالنسبة للمقيمين فيها، كان هناك بلاط أرضى وستيفة مائلة للمطبخ، وحجرة تغادير، والغرفة التى كنست أبيت فيها مع حورية على وسادات موضوعة على الأرض، وكان هناك أيضا حجرة لعيسى بغراشها ودولابها، مهيئة لليوم الذى يعود فيه دون إخطار. ولقد شيدت تغادير صالة استحمام من ألواح الخشب بجوار المطبخ، حيث يستطيع المرء أن يسكب لنفسه الماء عن طريق دلو زكى ويأخذه فى وعاء بلاستيكي حتى يغسل الملابس والملابس الثقيلة، وكنت أذهب وحورية نعباً الدلو من صنوبر الماء بالشارع، وكنا دورياً نقرأشق بالماء، مُطلقات صرخات كبيرة، ولم يكن هناك بالدوار حمام عام، كان الناس فى فقر مدقع، وكان الماء شحيحاً،

ولكننا بصالة الاستحمام التي شيدتها تغادير والدلو الزنكي، كنا نعيش في رخاء.

لم تعد تغادير تعمل منذ أن اشتكت من ساقها، فشغلت حورية عملها، إذ كانت تحيك وتكوى الملابس في مصبغة تعمل لصالح الغنائق، وكانت تمضي كل يوم قبل السادسة، ثم تستقل زورق المعبر حتى تذهب للمدينة. كنت أقول لحورية "جدي لي عملاً"، فكانت تهز رأسها وتقول: "ليس هذا بأمر طيب بالنسبة لك، ينهي عليك أن تقومي بشي آخر، يجب أن تذهبي إلى المدرسة"، وكانت تشتري لي كتب لغة فرنسية وأسبانية وإنجليزية وكراسات، وكانت تغادير تشاطرها الرأي وتقول لي: "يجب ألا تكونين مثلنا، عليك أن تكوني ذات شأن مثل طالبة وطبيبة، وليس خادمة مثلنا". لا أعرف لماذا كانتا تقلن ذلك، كانت هذه هي المرة الأولى التي لم يُراد بي زوجة لأحد الرجال، وكانت هذه هي المرة الأولى، التي لا يرى فيّ خادمة، خادمة من أجل لاشي، خادمة للطهي لزوجها فحسب. ويمكن أن أقول أن ذلك كان يجعلني أزرف دمعاً، فلقد كانتا بحق أميراتي الطيبتين، فعانقتهما.

ولكن لم يكن بوسعي أن أبقى بالمنزل وأتعليم، حيث كان هذا الأمر فوق طاقتي. وكنت أخذ كتبي بمسكها مشبك كالأطفال الذين يذهبون إلى المدرسة، ثم أبحث عن مكان هادئ حتى أطالع فيه بعضها وأنا مطمئنة.

ذات يوم من أيامى الأولى، وعندما كان الوقت شهر تشرين الرابع جداً، مضيت حتى دار المقابر الكبرى أمام البحر، وهناك كان يمكن للمرء أن يرمى الأفق بوضوح، فأنفقت كل فترة الصباح وأنا أقرأ وسط المقابر. كانت عواصف البحر تتصوّر أمامى ساكنة فى تيار الريح، أو كانت السناجب الحمراء تخرج من الأكمة وتومقنى فى وقاحة، لكننى لم أكن مطمئنة كثيراً منذ ما حدث مع العجوز ابن الكلب، فلقد كنت أخشى أنه - كى ينتقم منى - سيبلغ عنى الشرطة، ولهذا بحثت عن مكان آخر، واهتديت إلى مكتبة الحى بجوار متحف الآثار القديمة. كانت مكتبة صغيرة، بها فحسب بعض مناخذ كبيرة للقراءة ومقاعد قديمة ثقيلة، وكانت تفتح أبوابها كل الأيام عدا يومى الأحد والاثنين وعدا اللحظات التى يأتى فيها طلاب المدارس الثانوية لإجراء واجباتهم المدرسية بعد الخروج من المدرسة، ولذا لم يكن هناك أحد تقريباً. وفى هذه المكتبة، وفى خلال هذه الأشهر، تمكنت من قراءة كل الكتب التى كنت أريد أن أطلعها، دون أى نظام، عندما كان يأخذنى الخيال. قرأت كتب فى الجغرافيا وفى علم الحيوان، وطلعت بصفة خاصة بعض الروايات، "نانا" و "جريميغال"⁽²⁾ لزولا و "مدام بوفارى"⁽³⁾ و "ثلاث حكايات" لفلوبير

(2) نانا وجريميغال من روايات الروائى الفرنسى إميل زولا الواقعية. (المترجم)

(3) رواية فلوبيير الشهية التى شقت اتجاها فى الواقعية أطلق عليه البوفارىة Bovarisme.

و"البؤساء" لفليكسسور هوجسو و"حياة"⁽⁴⁾ لموباسان و"الغريسب" و"الطاعون"⁽⁵⁾ لابيير كاسي و"آخر المنصفين" لشوارزبارت و"واجب العنف" ليامبو اولوجم و"طفل الرمل" لطاهر بن جولون و"بيير الصغير صديقي" لكيينو و"دائرة مورمبير" لأكسبيريت و"جزيرة الخرساوات" لبخلري و"العشواء" لفنسنو و"مورافاجين" لسندرس، وقرأت أيضا بعض المترجمات، "خانة الصم توم"، و"ميلاد جلنا"، و"قال لي صابعي"، و"القديسون الأبرياء" و"الحب

(4) رواية شهيرة لموباسان تنتهج البوفارية، ولقد عُرف موباسان بنزخته البوفارية في الكتابة لتتلمذه على يد جوستاف فلوبيير. تدور أحداث الرواية في إحدى الأقاليم الفرنسية، بين مدينة روان النورماندية وأريافها حيث تخرج البطلة جان من الدير وتشعر في ارتداد حياة جديدة، نائية عن حياة التعبد القاسية، وما إن يطيب لها المقام في الريف بصحبة أبويها حتى تتزوج من شاب ماجن تنجذب منه طفلاً وما تلبث أن تقع يدها على خيانتها لها مع خادمتها وحملها منه سفاحاً. ولم يمض وقت طويل حتى قُتل وعشيقته أخرى له بالقرية، وتمضي الكوارث تحديق بهجان، التي فقدت بعد ذلك أمها، والتي كان موتها نقطة اكتشاف لخيانة زوجية عبر الناضي من خلال الخطابات التي عثرت عليها جان في صندوق أمها التي خانت أبوها. ثم مات أبوها ومضى أبنتها يجرى دراسته بعيداً عنها في مدينة أخرى، فعاشت وخادمتها حياة بائسة، تشقيها سلسلة الذكريات المحزنة الكثيرة. حاولت عبثاً استعادة أبنتها. وفي خضم الفقر، أجبرت على بيع قصر أبيها والذهاب للعيش وخادمتها في مكان آخر. حاولت ثانية العثور على أبنتها في باريس، وقطعت المسافات ولكنها توجت بالفشل عائدة إلى ريفها. وتنتهي الرواية بمعرفتها لمجن مولود أبنتها ورغبة الأخير في إرساله إلى جدته. (المترجم)

(5) روايتان من روايات البيير كاسي Albert Camus الشهيرة. (المترجم)

الأول" لتورجينوف الذى كنت أحبه كثيراً. فى خلال هذه الفترة، كان الجو لا يزال ساخناً فى الخارج بينما كانت المكتبة مكاناً هادئاً ورطبياً، وكان لدى إحساس بأن أحداً لن يأتيها لبحث عنى. وفى المكتبة عرفت رُشدى الذى كان يعمل مدرساً للغة الفرنسية فى مدرسة ثانوية، وعندما كان الإنهاء من القراءة يبلغ نصيباً منى، كنت أخرج أمام المكتبة وأجلس على حائط قصير فى الحديقة الصغيرة المتربة، وكان يأتى بجوارى السيد رُشدى ويشمل سيارته متحدثاً إلى. لم يكن يرمى إلى نيل شئ منى، لكننى أظن أنه كان يندهش حينما يرانى أطلع الكثير من الكتب، فنصنحنى آنذاك وقال لى عما يجب أن أقرئه فى البداية، كما حدثنى عن الكتاب العظام، عن فولتير وديدرو⁽⁶⁾ والمحدثين، وأيضاً عن كونيت⁽⁷⁾ وشعر رامبو⁽⁸⁾ الذى لم أكن أفهمه، مع أننى

(6) روائى وفيلسوف فرنسى ولد عام 1713-، ومن أشهر أعماله روايته "جاك القدرى ومعلمه" Jacques le fataliste et son maître عام 1796، وله بعض الكتابات الفلسفية مثل "خطاب حول المكفوفين" Lettre sur les aveugles فى عام 1749، ويرجع إليه الفضل فى تأسيس "الموسوعة" L'Encyclopédie لعام 1715 رغم كثافة المشكلات التى تعرض لها آنذاك، وفى ميدان المسرح، حاول تأسيس الدراما البورجوازية وذلك من خلال مسرحيته "الابن الشرعى" Le Fils naturel عام 1757 ومسرحية "أب الأسرة" Le Père de famille عام 1758، وفى مجال النقد الأدبى والفنى، له محاولات أهمها "الصالونات". (المترجم)

(7) سيمونى جابريل كونيت Sidonie Gabrielle colette هى روائية فرنسية ولدت عام 1873 ومن أهم أعمالها الروائية كلودين Claudine والقمح فى العشب Leblé en herbe، ورحلت عام 1954. (المترجم)

كنت أراه شعراً رائعاً. كان السيد رُشدى فقيراً، ولكنه كان أنيقاً فى حلتة الكستنائية المكوية دوماً، وقميصه الأبيض، ورباط عنقه الأزرق الداكن. كان يدخن بشراهة، وكان شارباً الرمادى يميل إلى اللون الأصفر من أثر التبغ، ومع ذلك فلقد كنت أحب طريقته فى مسك السيجارة بين الإبهام والسيابة كما لو أنه يمسك بمسطرة.

عندما كان ضوء النهار يندحر، كنت أعود للدوار؛ ولما كان زورق المعبر يدلغ فى الماء الشاحب لمصب النهر، كانت رأسى جلسها مضربة بالكلمات التى انتهيت من قراءتها، ومن الشخصيات والمغامرات التى عشتها. وكنت أدلف بعد ذلك فى شوارع مساكن الإيواء كما لو كنت آتية من عالم آخر. كانت تغادير تعد الحساء والتمر البُكرى الصلب والجاف المشابه للسكر المصفى، وتطهى وغيف خبز مستدير فى الفرن المشتعل المغلق بوضع إطار من المصفيح. ويبدو أننى لم أذوق أفضل من ذلك فى حياتى، ويبدو أننى لم أعش حياة غير مهمومة كذلك، فلقد نسيت مع هذه الحياة زهرة وما حدث من ذى قبل.

كانت حورية لا تعود إلى الدار إلا فى الليل، مُضنية، وجنتاها محروقتان ببخار النار، وعيناها حمراوان من الحياكة طيلة اليوم؛ وكانت تنئ قليلاً ثم تحتسى عدداً من أكواب الشاي وترقد، لكنها لا تنام؛ وكنا نتحدث سواً فى الظلام مثلما كنا نفعل فى السابق بالفندق، بمعنى أننى كنت أتحدث بمفردى ذلك أننى لم أكن أسمع ما تقوله لى ولا يمكننى أن أقرأ ما على شفاتها.

وكانت تخرج خارج الدار من وقت إلى آخر مساء يوم السبت، فلقد كان هناك من يأتي يسعى إليها، لكنها لم تكن ترغب في أن يعرف أصدقائها أين تُقيم، فكانت تنتظر أسفل شجرة سنف هزيلة في مدخل الدوار، وكانت السيارة تحملها في شيم من التراب، يعقبها أطفال يلقون عليها الأحجار.

ذات مساء، بينما كانت تغادر منهمكة في خارج الدار، همست حورية في أذني السليمة بما تنوى أن تفعله: عندما ستكون لديها النقود الكافية سوف تستقل المركب إلى أسبانيا ومنها إلى فرنسا، ثم أبانت لي عن بعض مدخراتها، حزم من الدولارات ملفوفة ومربوطة في ماسك تخفيه في حقيبة أدوات زينة تحت الوسادة، وقالت لي أنه لا ينقصها سوى بعض النقود لدفع أجر السفر والمهرب. كانت تتحدث إلى بصوت منخفض وبحمية كما لو كانت قد شربت خمراً، وأنقبض قلبي حينما رأيت كل هذه النقود، لأن ذلك كان يعني أن حورية سترحل عما قريب.

قالت لي: "ماذا بك؟"، فلقد ضايقته لأنسى قطبت وجهي كما لو كنت على وشك البكاء، فقلت لها: "إذا ما رحلتى، فما مصيرى أنا؟ لا أريد أن أبقى هنا مع تغادير". ضمتني إليها، وحاولت أن تواسيني بكلمات رقيقة، ولكنني أيقنت أنها قررت كل شيء، وقلبها لم يعد معنا.

كانت تبدو واثقة من نفسها من خلال طالعها المتفعم بالدم، ولقد كانت حورية رقيقة جداً، يداها الصغيرتان، ووجهها ذو الجبهة المكتنزة يحتفظ بتعبير الطفولة المرح. قررت أن تغفلت من كل شيء، الشوارع القريبة،

وهذا الشارع الذي يزأر من الشاحذات، وأن تفلت من السقف الفيروسماني الذي يجعله المطر يحدث ضوضاء كضوضاء جرف ثلجى، ومن حيث تحرقك الشمس كحرق الحديد الأحمر، وأن تفلت من الحواشي التي تفوح برائحة البول العفنة، ودلو الماء الأسود السام، والأطفال العرايا الذين يلعبون فى أكوام القمامة، والفتيات الصغيرات بوجوههن الملوثة من السناج، منحنيات أسفل حملهن كالنساء الطاعنات فى السن، وأن تفلت من كل ما يذكرها بطفولتها: الفقر فى الريف حيث حتى ماء الشرب له مذاق الفقر؛ وأرادت أن تفر بصفة خاصة من الحفلات مع سادة المجتمع الراقى بسياراتهم اللموزية السوداء ذات الزجاج المطلس، حيث يرغبى عليها أن تتظاهر بالضحك وأن تكون مريحة وسعيدة، لأن الحزن لايجب أحداً، وأن تفر إلى الأبد من رسل هذا الرجل المخبول الذى يعتقد أن له كل الحقوق على جسدها ولو حق تعذيبها.

ذات مساء، عادت حورية إلى الدار ثملة، وكسنت نظرتها شاردة، مخبولة تقريباً، فأخافتنى؛ وفى ضوء مصباح الكيروسين، رأيتهما تنقلب فى وسادتهما، وتحصى حزم دولاراتهما التى جلبتها من البضاعة المهربة، ثم لاحظت أننى غير نائمة وأننى أتفحصهما، فاقتربت منى وقالت لى: "لن نحولى بينى وبين الرحيل، لا أنت، ولا أى مخلوق"، فنظرت إليها دون أن أقول لها شيئاً، وقالت لى: "سوف أقتلك، سوف أقتلك إذا حاولتى، سوف أقتل نفسى إذا ما اضطررت أن أمكث هنا"، قالت لى ذلك ثم وضعت فوق حلقها

الندية الصغيرة التي كانت تحملها بشكل دائم معها حتى تذود عن نفسها ضد القوادات.

بعد ذلك لم تعد تتحدث عن ذلك الأمر، وبدوري أيضاً لم أقل لها أى شئ، فقد كنت على يقين من أنها سترحل وأنها التقت بمهرب؛ وحينئذ أتقنى أنا أيضاً فكرة الرحيل والمبور والذهاب إلى الجانب الآخر من البحر، إلى أسبانيا أو فرنسا أو ألمانيا أو حتى بلجيكا، أو أمريكا أيضاً.

لكننى لم أكن مهياًة للرحيل، إذا ما رحلت، يجب أن يكون ذلك للأبد حتى لا أعود. كنت أفكر في هذا الأمر في ليلي ونهارى، وكنت أسير في معرات دوار تبريكة وروحي في مكان آخر، كنت أقفز من فوق الحفر ومستنقعات الوحل، وألتف حول مجموعات الأطفال أو أعبأ الوعاء البلاستيكي من الصنبور في نهاية الشارع الرئيسي، ولكننى كنت أفعل كل ذلك وكأنى فى حلم.

بدأت أطلع الأطلال الجغرافية كي أعرف الطرقات وأسماء المدن والموانئ؛ وقمت بتسجيل اسمى فى دروس اللغة الإنجليزية بمعهد UDPSIS وفى دروس اللغة الألمانية بمعهد جوتته وبالطبع كان الأمر يستوجب أن أسدد مصاريف الدراسة وأن أحصل على التصاريح وأن أقدم بياناتى الشخصية؛ لكننى ارتديت ثوبى الأزرق الشهير ذا الرقبة البيضاء والذى أطلته بشريط قماش ونقلت أزرقته، وشدت شعري الكث الضارب إلى الشفرة أسفل عصاة حسنة بيضاء، وقصصت على المسؤولين قصتى: أننى

يتيمة، دون مال، لا أسمع، وأننى على استعداد لأى شئ كسى أتعلم، ولكى أسافر ولكى أكون شخصاً ما. كان يوسعى أن أسدد المصروفات عن طريق القيام بأعمال النظافة أو عن طريق كتابة المظروفات أو ترتيب الكتب بالمكتبة أو بالقيام بعمل أى شئ. بهرتُ سكرتيرة قطاع الثقافة الأمريكى، كانت سيدة سوداء البشرة يبدو عليها الثراء، وحينما دخلت عليها فى مكتبها صاحت: "يالهى ! إننى مولعة بشعرك!", ثم مررت يديها على خصلات شعرى الهالجة التى كانت تدفع العصاة المشبكية فوق رأسى، ثم سجلتنى دون أن تطلب منى أى شئ آخر.

وعند الألمان، كان هناك السيد جورج شون الذى كان يستلطفنى، وكان شاباً طويل القامة، نحيف، شعره أشقر ومجعد، وكانت نظراته صهباء جادة وحزينة، وكنت أسليه، فقَبَلَنى على سبيل التجربة فى فصله. كنت أردد أمامه قوائم من الكلمات الألمانية وأقوم بتصريف الكلمات، وكنت أقرأ ذلك بصوت واضح جداً كما لو كنت أسمع ما أقول، وكأنه الشعر، وكان السيد شون يقول لى أن لدى ذاكرة لا تُقارن، ربما كان ذلك بسبب أذنى المصابة.

فى المساء، كنت أحمل دروسى إلى منزل تغادير، وأستذكرها على ضوء شمعة، وأنجز واجباتى الدراسية. وذات يوم، أمام كل الفصل، أبان شون عن كراستى، وكانت هناك بقعة كبيرة تتمدد فى أسفل ورقة منها، فقال لى: "ما هذا ؟ هل تناولتى الطعام وأنت تستذكرين ؟"

فضحك التلاميذ، وقلت له: "كلا ياسيدى، إنها بقعة من الشمع".

ولم يبدو على السيد شون أنه قد أدرك ما قلت له، واستطردت:
 "كل ما فى الأمر، أنه ليس فى منزلى كهرباء، ولذا فأذاكر دروسى على ضوء
 الشمعة، هل تريد أن أعيد كتابة كل شئ فى كراستى؟"
 نظر إلى نظرة حيرة وقال: "كلا، كلا، حسن".

ولكنه فيما بعد، أصبح غريب الأطوار معى إلى حد ما، فكان ينظر
 إلى وكأنه يفكر دوماً فى أمر هذه البقعة التى كانت على كراستى، ولم أفهم ما
 كان بضائقه. كان يطلب منى أن أنتظره بعد الدرس ثم يطرح على تساؤلات
 حول المكان الذى أعيش فيه، وعن الناس الذين يعيشون معى، ولم أكن أدرك
 ماذا كان يريد بذلك. خفت أن يخبر عنى الشرطة، فلقد كان له نظرة غريبة
 غامضة، دوماً حزينة، وعندما كان يحدثنى، كان يشبك يديه ويقلب أصابعه،
 فكان يذكرنى بالسيد دلاهاى، ولكنه كان أكثر منه رقة وحناناً، مع أنه كان
 له نفس الأسلوب فى النظر قليلاً من طرف عينه رافعاً جفونه؛ كان يقول لى
 أنه سيحصل لى على منحة دراسية كسى أذهب إلى ألمانيا فى مدينة
 دوسلدورف⁽⁹⁾، مسقط رأسه؛ وكان يريد أن أذهب إلى هذه المدينة ثم أبحث
 عنه هناك، وكان يقول أنه سيكون بإمكانى فعل الكثير هناك بلا شك، وأننى
 سأكون شهيرة وثرية، وستنشر صورتى الفوتوغرافية فى الصحف.

(9) Düsseldorf مدينة ألمانية تقع على نهر الراين وتشتهر بالصناعة والسيما صناعة

السيارات وبها جامعة ومتحف للفنون الجميلة. (المترجم)

كان السيد رُشدى يرقب كل ذلك، ولم أعد أذهب كثيراً إلى المكتبة بسبب دروس اللغة الألمانية والإنجليزية، ولكننى عندما كنت أذهب، كنت أراه هناك، كنت أجدّه يطالع كتباً فى الفلسفة فى نهاية قاعة المكتبة؛ وبعد مرور لحظة، كان يخرج إلى خارج المكتبة ليدخن سيجارته، فكنت ألحق به فى الحديقة الصغيرة. عندما حدثته عن أمر شون، هز كتفيه وقال: "إنه عاشق لك، هذا كل ما فى الأمر"، ونظر إلى نظرة قاسية قليلاً وقال: "وأنت يا آنستى؟ هل تحبينه؟"، فأضحكنى سؤاله لى، ثم ختم حديثه قائلاً: "أنت التى تقرى، إنك شابة وأمامك الحياة"، ثم أشار على بقراءة "ضمير زنو" للكاتب إيتالو سففو⁽¹⁰⁾، وقال لى على سبيل اللغز: "من لم يطالع هذا الكتاب، فكأنه لم يطالع شيئاً!". وبعد ذلك الموقف، كان يحدثنى بلا مبالاة، كان يلقي على شعر الشهادى وأدونيس. وحتى أضيائه، قلت له ذات يوم: "أعتقد أننى سوف أتزوج من السيد شون"، وحينئذ بدا عليه الغم فجأة، ثم قال لى: "لا أشير عليك به"، وكان ذلك بمثابة فخر بنفسى، فلقد كنت أعلم أن السيد رُشدى عاشق لى، وكنت أمزح برؤية وجهه يتبدل عندما كنت أحدثه عن أمر زواجى.

(10) كاتب إيطالى عاش بين 1861 و1928، من أهم أعماله الأدبية: ضمير زنو 1923 و"العجوز الطيب" و"الطفلة الجميلة" وهى أعمال نشرت بعد موته فى عام 1929.

استمرت حياتي الدراسية هذه ستة أشهر كاملة حتى فصل الربيع؛ ثم قررت ألا أذهب إلى المعهد الألماني، فلقد كانت هناك صعوبات وأوجهها في الدار؛ كانت تغادير تتشاجر طول الوقت مع حورية، واهتمتها أنها تبتزها وأنها لا تعطيهما النقود وأنها تسطو عليها أيضاً، فكانت حورية تغضب حينئذ وتلقيها بهشتائم غليظة، ثم تخرج ضاربة البساط. كانت تختفي ليالي بأكملها، وكنت أظل غير نائمة أترقبها كما لو كنت سأسمع وقع أقدامها في الزقاق.

ثم كان هناك ما حدث بعد ظهيرة يوم ما في قاعة الفصل: ظلمت كالعادة بعد الدرس عندما كانت السماء تمطر، أسترجع دروس القصصيات النحوية، وكان السيد شون واقفاً خلفي، فوضع يده فوق كتفي، وكنت أرتدى ثوباً أسوداً أمارته إياي حورية وكان يكشف عن ظهري قليلاً، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرتدى فيها هذا الثوب لأننا كنا في فصل الربيع، وكان لدى الكثير من الثياب المسرودة والمعاطف. وقجاة تقدم السيد شون نحوي وقبّلني في عنقي بخفة شديدة، وتم ذلك بسرعة شديدة إلى حد أنه لم يكن لدى الوقت كي ألاحظ ذلك جيداً. على الأرجح، كان هذا الأمر بمثابة ذبابة توقفت فوقّي ثم رحلت، ولكنني عندما نظرت إلى السيد شون خلفي، كان كله خجل، فكان يزفر كما لو كان قد فرغ من الجري؛ أما أنا، فقد تصرفت وكأن شيئاً لم يحدث، رأيت أن ذلك من الهزل، وأن السيد شون غريب الأطوار على الأرجح؛ رجل حزين جداً وبارد جداً يتصرف فجأة كالصبية الصغار. تقهقر،

وجهه كله شاحب، كان حزيناً للغاية، وكان ينظر إلى من بعيد من بين شجر السوسن الرمادى كما لو كنت شيطانياً. لا أعلم ما همّم به، فلم أسمع كلماته ولكننى أدركت أنه ينهى على أن أنطلق بسرعة، فلقد كان ما حدث أمراً لا يُصدق: هذا الرجل العظيم، ذو الشأن، أستاذ اللغة الألمانية فى جامعة ديسدورف ترك نفسه يُقبلُ جيد فتاة صغيرة شديدة السواد من دوار تبريكة. حينئذ، جمعت كراسى وكتبى وفهررت تحت رزاز المطر الذى كان يقرع ظهري من خلال ثوبى المكشوف والذى كان له عظيم الأثر على السيد شون.

وبعد ذلك ببضعة أيام، التقيت مصادفة عندما كنت أتنزه فى بورت دى فان⁽²¹⁾ بالين بوسوترو - والقى كانت تدرس الألمانية معى - فقالت لى أن السيد شون يأسف كثيراً على انقطاعى عن دروس اللغة الألمانية، وأنه يتمنى أن أعود إليها، لأننى على قائمة الطلاب الذين سيعاونهم فى الحصول على منحة دراسية فى ألمانيا. لم أعرف لماذا قصت على كل ذلك، ربما خرجت ذات مرة مع السيد شون فمنحها ثقتة، ولكنها كانت تبدو لى طيبة وساذجة، ولا أعتقد أنه قد قص عليها ما فعله معى.

قلت لها: "نعم، بالتأكيد، أننى سوف أعود فى أقرب وقت ممكن، ولكننى فى هذا الوقت مشغولة للغاية". أردت أن أتخلص منها، ونظرت فى كل الاتجاهات من حولى وقلت لنفسى لو ظلمت فى وضعى هذا، فسوف يأتى

(21) اسم مكان. (المترجم)

عسکر زُہرۃ کی یقبضوا علیّ. قرأت الین شیء ما فسی نظرتی لہا، شیئا من الحذر، من الخوف، فمالت إلیّ وفسالت: "لیلی، الدیك مشکلات؟". كانت أہنة لأحد كبار التجار الفرنسيين والذى كان یحتكر تجارة الدراجات الصينية فی أفریقیا، هل بوسعها أن تدرك شیئا عن حیاتی ؟ كنت أخشى، بصفة خاصة، أن یرانى أحد بجانب هذه الفتاة الشقراء جداً والأنيقة جداً، فقلت لہا: "کلا، کلا، کل شیء یمضی علی ما یرام"، ثم انصرفت وتواريت وسط الزحام، ودرت دورة كبيرة للوصول إلی العبارة المائية.

بعد هذه الحادثة، توقفت عن عبور النهر، أحسست أنني فی مأمن علی هذا الجانب الآخر من النهر، وتوقفت عن کل الدروس، وقاطعت مكتبة المتحف والسید رُشدی. وعلى مدار عدة أسابيع، لم أجسر علی الخروج من دوار تهریکے، فبقیت فی منزل تغادیر، فی الفناء، تحست الأفریسز البلاستيکی، أنصت للجج المطر علی الفیروسمان وأنظر للأمطار وهی تملأ الدفاف.

كانت هذه الفترة طويلة ومُحزنة، كانت حورية تنتظر مولوداً، ولهذا السبب، كانت فی شجار دائم مع تغادیر، ولم أکن أسأل عن السبب، ولكننى أعتقد أنه بسبب صديق حورية الذى كان یأتی إلیها فی سيارته. وفجأة اشتدت حالة تغادیر سوءاً، فلقد أصبح الألم الموجود فی ثنية قدمها یحرق بها لیلاً ونهاراً فی هذه الفترة، وأصبحت غددها جافة سوداء فی لون الزيتون، وكانت ساقها رمایة اللون ومنتفخة، ولم تعد تشعر بها كما لو

كانت هذه الساق مصنوعة من خشب. كانت تمضي يومها جالسة في مقعدها تنظر إلى ساقها، تلعن العنكبوت الذي لدغها، وتتهم أيضاً الفتيات الأخريات، سليمة وفاطمة وعائشة بسبب تشاجرهن المستمر، وتقول أنهن جنيات وساحرات، وكانت تكرر نفس الكلمة التي كانت ترددها زهرة في الماضي: سَحَرَةٌ؛ وكانت تُسَبُّ وتُدعى أنهن وضعن شوكة في حداثتها، فاعتقدت آنذاك أنها سوف تتهمني أنا أيضاً إن أجلاً أو عاجلاً.

وللمرة الأولى أصبحت لدى رغبة في الرحيل بعيداً، الرحيل للبحث عن أمي وصيبرتي في بلد الهلال خلف الجبال؛ ولكنني لم أكن مهياً لهذا الأمر؛ ربما لم يعد لذلك المكان وجود وأنني فكرت فيه حين النظر إلى قرطى. ذات ليلة، التصقت بجسد حورية وأسندت أذني إلى بطنها كما لو كنت سأنصت إلى جنينها وهو يتحرك، وسألتها: "متى سنرحل؟"، فلم تجب، ولكنني عن طريق تحسسي لها بيدي أدركت أنها تبكي أو كانت تضحك في صمت؛ ثم همست لي في أذني: "عما قريب، عندما يكون هناك مقعدين في الزورق المتجه إلى ملاجا".

الآن نحن متآمرتين؛ فبعد ظهيرة يوم ما، وبينما كانت تغادير تستريح في غرفتها، وبدلاً من أن تقوم بالمهام المنزلية، كنا نحيك مؤامرات، فكانت حورية تذكر لي المدن التي سنذهب إليها والناس الذين سنراهم، أما أنا فلم أكن أعرف سوى أسماء الكتاب أو المطربين، فذكرت لها أسماء جوزيه كابيني وكلود سيمون وأيضاً سرج جنسبور بسبب أغنيته إليرا، فقالت لي:

"إذا شئت فسوف نراهم أيضاً"، كانت تظن أنهم إناس مثلها ومثلى، بحر
يمكننا أن نراهم.

خرجت تغادير من غرفتها تمرج، فسبتنا، فلقد أدركت أننا
سنرحل، وصاحت: "أذهبى إلى حيث تردى، إلى فرنسا، إلى أمريكا، إلى
الديابطين إن أردت ولكن لا تعودى إلى هنا".

وعن طريق مدخراتى، تمكنت من شراء مذياع من سوق البضائع
المهيرة الواقع بقرب النهر؛ كان مذياعاً صغير الحجم، أسود اللون، كان فى
الماضى بحوزة دهان على الأرجح، ذلك أنه كان ملطخاً بالدهان الأبيض. وفى
النساء، كنت أستمع منه إلى جيمى هاندركس بإذاعة تانجيه؛ وكان هناك فى
نهاية بعد كل ظهيرة برنامج لديجاما، وكنت أعشق صوتها الشاب، الرطب،
الساخر قليلاً. كان يبدو لى أنها صديقتى وأنها تشاركنى حياتى. كنت أقول:
"كنت أود أن أكون مثلها". كنت أدون دوماً كل أسماء المطربين الذين تقدمهم
فى بطاقة، وأحاول أن أكتب كل كلمات الأغنيات الإنجليزية "فوكس لايدى".
كان عجباً فصل الربيع هذا، ربيعى الأفريقى الأخير: ففيه كان المطر يتساقط
على الإفريز البلاستيكى فى الغناء ويقيض عن الأوراق الأسطوانية الصغيرة؛
وفيه كان صوت دجاما يقرع أذنى وموسيقى المذياع ونسنا سيمون وبول
مكارتنى وسيمون وكارفونكل وكات ستفنز الذى كان يغنى "الزوارق الطوال"،
فكان كل ذلك بمثابة انتظار طويل؛ وفيه كانت حورية تنتظر أيضاً وهى
تتمدد على الوسادات ويدها فوق بطنها، وكانت تمشى مترنحة كالبطشة مع

أنها كانت بالكاد في شهرها الأول من الحمل ، وفيه كان دوار تبريكة حولنا - والذي كان يبدو شاسعا بلا نهاية - ينتظر شيئاً ما ، شيئاً لن يحدث مطلقاً ، وفيه كان الأطفال رثو الثياب يتشربون في المستنقع ، وفيه كانت أصوات النساء الصائحات ، وفيه كان النداء إلى الصلاة في المساء ينطلق أمام النهر فيختلط بأصوات طيور النورس لحظة عودتها من الصيد ، وفيه كان خلفنا - في الليل المقرب - الطريق الذي تتقدم فيه الشاحنات التي تشبه حشرات مؤذية.

و ذات مساء ، كانت تغادير في أسوأ حالاتها الصحية ، فأرسلتني حورية كي أهتم إلى ابنها ، فلقد كنت أتحدث الألمانية. وعندما عدت إلى الدار ، كانت تغادير قد رحلت إلى المستشفى حيث سئبتر ساقها ، وتم كل شيء على عجل. وفي اليوم التالي ، بعد الظهر ، هيئنا أنفسنا للسفر. كان من المفترض أن ننقلنا شاحنة إلى ميلالة وفي ذات الليل يبحر بنا المهرب في زورق مالا جا.

أحسينا النقود في توتر ، واحتفظت حورية بما ينبغي أن يُسدد للمهرب وأعطتني المبلغ المتبقى ، حزمة من ألفي دولار مربوطة بمشبك كبير ، وعندما هممت أضع الحزمة في جيبى ، قالت لى حورية : " لاتضعيها في هذا المكان ، سئسلب منك كل النقود " ، وأخذت أحد رافعى نهدي وضيقتهما محيكة حملاتهما ، حاشية جيبوها بالحزم النقدية المحاطة بالمناديل ، ثم ألبستني رافعة النهدين ، وقالت : " الآن يبدو عليك أنك امرأة حقيقية ، وسيتعافى عليك كل الرجال " ، فانتابنى إحساس أننى أحمل حقيبتين ثقيلتين على

صدرى، وكانت والحملات تنشر كتفى، فقلت لحورية: "لن أستطع أبداً، إن ذلك يؤلمنى، سوف آخذ نقودى". غضبت حورية وقالت: "توقفى عمن التباكى، يجب أن تعتادى ذلك، أنت التى ستحمل النقود، ليس هناك من وسيلة أخرى".

قلت: "ربما يجب أن نمضى نعود تغابيرفى المستشفى؟"، وعندما كنت أفكر فى أمرها كان ينتابنى الضدم، وكنت على استعداد لإلغاء فكرة رحيلى، ولكن حورية كانت لها نظرة قاسية ومحددة، وكان تعبيرها مطابق لتعبيرها يوم أن وضعت المديّة فوق حلقها، وقالت: "كلا سنبلغها أن تتبعنا متى اتخذنا موقفاً".

ترقبنا الشاحنة الصغيرة فى نهاية الطريق حتى الليل، وكان التراب يغطينا فكان يبدو علينا أننا متسولتان.

وفى لحظة ما، مرت أمامنا الشاحنة، وقللت سرعتها، ثم توقفت بعيداً هنا إلى حد ما، وانطفأت كل الأضواء، فكنت خائفة، ولكن حورية جذبتنى بخبل، وهبط السائق، ثم قال لحورية وهو يدفعنى إليها: "هل بلغت سن الرشد؟" فردت عليه حورية قائلة: "أرأيت صدرها؟ أم أنك كفيف البصر؟"، أعتقد أنه كان مندهشاً خاصة من لون بشرتى، ربما ظن أننى من السودان أو السنغال. وضعتنى حورية إلى مؤخرة الشاحنة الصغيرة، ثم صعدت بدورها. ولم تكن لدينا حقائب، فلقد كان ذلك اتفاق بيننا، وكان معنا فقط حقيبة صغيرة بيد كل منا، بها قليل من الملابس ومذياعى الشهير.

وبما أن السائق لم يدر محرك السيارة على الفور، قالت له: "ماذا تنتظر أيها الغبي؟" فتذمر السائق شطراً بالأسبانية وشطراً بالعربية. قالت لى حورية: "هم كذلك فى ميلالا".

وصلنا إلى الميناء حوالى الرابعة صباحاً، وفى لحظة عبور الجمارك، قرع السائق مربع الزجاج الخلفى وأشار لنا أن نرقد. كانت الشاحنة مليئة بكراتين الملابس التى كُتب عليها بلانكو، فكان ذلك الأمر مضحكاً لأننى وحورية كنا سمرائات البشرة⁽¹²⁾.

مرت الشاحنة الصغيرة بهبطى من أمام مكتب الجمارك، ومن خلال الزجاج الخلفى رأيت المصابيح التى تعطى ضوءاً أصفر اللون تتباعد عنا، ثم أصبح كل شئ أسوداً بعد ذلك، فنهضت حتى أرى شيئاً: فرأيت أنها مدينة حديثة وقبيحة، بها مباني شاهقة معقدة، وكانت السماء تمطر.

على الرصيف، كان هناك الكثير من الناس ينتظرون الزورق، رجال بصفة خاصة وأيضاً بعض النساء اللواتى كن يتدثرن بمعاطفهن، وكان الهواء بارداً، ولم يكن هناك ثمة أطفال.

أما أنا وحورية فقد كنا جالستين متكئتين إلى حوائط المرفأ نحتمى من رزاز المطر. نامت حورية واحة رأسها فوق كتفى، منذ زمن بعيد وهى

(12) الأمر مضحك لأنه لم يكن هناك تطابق بين ما كُتب على الكراتين "بلانكو" أى اللون

الأبيض ولون بشرة البطلتين. (المترجم)

تنتظر هذه اللحظة، ثم بغتة لم تتمكن من مقاومة الإضناء. حاولت أن أشعل مذياعى ولكن فى هذه الساعة لم تعد تتحدث ديجاماً، ولم تكن هناك بالإذاعات سوى فرقعات كانت تجعلنى أقفز وكأنها حشرات أتت من آخر العالم.

قبل الفجر بقليل، أرتكن قارب إلى الشاطئ، وكان عبارة عن زورق ضخم لونه أبيض له معبر مغطى بساتر؛ وشرع الناس فى الصعود، وكانوا يهرولون لكى يحصلون على مقعد فى حجرة القبطان، وكنا آخر الصاعدين، فجلسنا فوق جسر القارب أمام حائط الدرايزين.

كان المهرب يمر بيننا دون أن يقول شيئاً، ويهبط يديه، وكان كل واحد يضع له ما تبقى عليه من نقود؛ وكان يلتهم الأوراق النقدية على عجل، ويردد من آن إلى آخر بصوته الأذن: مضبوط، مضبوط. لم يكن هناك من يريد أن يتحدث، فكان الجميع ينصت لاهتزاز محرك الزورق بانتظار اللحظة التى يرتفع فيها للرحيل.

وفى خلال بضعة دقائق، كان كل شئ معداً، فالتقى القبطان القلمس وتدهرج الزورق ببطن نحو الممر المائى راقصاً فوق تموج الماء، وهكذا رحلنا. مضينا ولم نكن نعلم إلى أين نمضى، ولم نكن نعلم متى سنعود؛ كل ما كنا نعرفه ولى، فكوت فى منزل الملاح الصغير جداً، الواقع وسط كومة المنازل على شاطئ النهر النأى جداً حيث ينبثق النهار فوقه، وفكوت فى دوار تبريكة، والنساء اللواتى كانت تقتطوين أمام صنبور الماء البارد. ربما ستموت هناك على الجانب الآخر من البحر، وهناك لن يعرف أحد عن ذلك شيئاً.



كيف أمضينا بقية سفرنا حتى باريس، ذلك ما لا أعرف أن أقصه عليكم، فأنا التي لم تخرج تقريباً من مكانها، والتي أمضت كل طفولتها في فناء لالا أسماء، والتي كان أبعد مكان ذهبت إليه بعد ذلك هو نهاية شارع كبير في حي المحيط، والتي استقلت قارباً حتى سالي⁽¹⁾ ودوار تهريكة، ها أنا أستقل زورقاً كبيراً وسريعاً، وأعبر أسبانيا في عربة حتى فال دي ارن⁽²⁾ - وهو اسم لن أنساه مطلقاً - ثم أسير على قدمي في الجبل المغطى بالثلج مادةً يدي إلى حورية التي كانت تلهث.

(1) ضاحية في الرباط اشتهرت بالتجارة منذ العصور الوسطى. (المترجم)

(2) Vallée de Aran وادي أسباني يقع في جبال الپيرينيه. (المترجم)

كنا نسير دون أن نعلم إلى أين نمضي، مترنحات على الطريق عبر
الجبل بصحبة أناس آخرين لا نعرف حتى أسمائهم، فكل إنسان كان يتأمل
في شأنه. كان المرشد صبياً صغيراً يرتدي الجينز وحذاءً رياضياً، وبشرته
أكثر سواداً ممن يقتادهم. وبالرغم من التعليمات التي تلقيناها، كان بعض
الناس يحملون أمتعة وحقائب أو حقيبة سفر بحمالة.

تجاوزنا المر الجبلي مع هبوط الليل، وكان قاع السفح مفروشاً
بالضباب اللبني، الذي كان بمثابة ركامة بخان دون نار. همست إلى حورية:
"انظري! ها هي فرنسا، إنه لمنظر بديع..!". بدت حورية شاحبة
اللون للغاية، فلقد ألتابسها ألم في بطنها، فجاء الصبي ونظر إليها وقال
لي بالأسبانية: "هل تنتظر مولوداً لها؟"، فقلت له: "لا أعرف، إنها
متعبة"، فسهز كتفيه. وتركست حورية الآخرين يسيرون بمفردهم،
فرأيتهم كالقطيع الصغير يسهب إلى تعرج الطريق؛ كانوا لا يتحدثون،
ولا يحدثون أية ضوضاء. كان الوادي الرطب والنهر الذي يكونه الضباب
يجعل المنظر بديعاً، حتى أنني فكرت في أننا لو متنا هناك، لن يكن لذلك
أهمية لأننا سنكون هنا في أعلى الجبل وسنرى هذا الوادي الشاسع الذي
يشبه البوابة.

لا أدري لماذا فكرت - للمرة الأولى - في بلدي كما لو كانت تقع
هنا في هذا الوادي الذي لم أمتض بعيداً فيه والذي أتركه يتواري رويداً رويداً
خلفي. ظللت في مؤخرة السائرين وأبطأت من سيرى، إذ سحرتني عذوبة

منظر الضباب والليل الذي كان يقترب مجيئه، فتعجلتني حورية وقالت:
"هيا سنضل طريقنا".

في أسفل الجبل، كانت المجموعة تنتظر في طرف غابة صغيرة،
كنا نضمت لصوت سيل أخفاه الليل عنا؛ وعندما وصلت إلى المجموعة، توجه
إلى الأسباني كما لو كان يرقب قدومي كي أقوم بالترجمة للآخرين، ثم قال:
"سننام في هذا المكان، ينبغي عليكم ألا تحدثوا صوتاً ولا تشعلون النار ولا
السجائر، متفقون؟"، فكررت ما قاله بالمربية، ثم أضاف: "غدا تنقلكم
شاحنة إلى مدينة تولوز⁽³⁾، حيث القطار"، ثم مضى دون أن ينتظر إجابة
منا، فوجدنا أنفسنا فرادى في الغابة.

أتذكر هذا الليل، فبعد حرارة النهار التي لمسناها عندما ارتفعينا
الجبل، هبط برد قارس ومبلى تخلل كل أجسادنا حتى العظام؛ وحاولت أنا
وحورية أن ننام بين جذور شجر التنوب المجتثة، ولكن البرد الصاعد من
الأرض كان يقرع أسناني؛ ولم يكن لدينا أي شيء، حتى الغطاء. وفي لحظة،
جلسنا الواحدة في واجهة الأخرى حتى لا نشعر ببرد الأرض؛ وحتى لا
ننام، كنا نتقاص حكايات، أي شيء مما كان يحدث في الفندق أو عن الخنازير
البرية أو عن الوشائيات، وكنا نخترع حكايات. لا أتمكن من تذكر ما كنا
نقوله، أتذكر فحسب أننا كنا نتحدث الواحدة تلو الأخرى هامسات

(3) مدينة فرنسية في الجنوب على مقربة من أسبانيا. (المترجم)

ضاحكات، وأحياناً كنا ننسى ونرفع من صوتنا، فكان الآخرون ينهضون قائلين: "سكوت ! سكوت !".

كان الآخرون لا ينامون أيضاً، ومن خلال الضوء الخافت للسماء المليئة بالنجوم، لاحظت أنهم قد نهضوا وأرتكسوا إلى الأشجار؛ ومن آن إلى آخر، كنا نسمع وقع أقدام في جنوع أشجار الصنوبر وشخص ما يجلس القرفصاء ليبول.

تمكنا من أن نغام في الشاحنة الصغيرة التي كانت تحملنا إلى مدينة تولوز، فمع مطلع النهار، كانت الشاحنة تقف على الطريق في طرف الغابة، حيث جعلنا الأسباني نصعد بسرعة فائقة، ثم مضى ناحية الجبل دون نظرة أو حتى إشارة وداع. في الشاحنة الصغيرة نمت على كتف الشاب الجزائري هابيل، كنت متعبة للغاية وكان الطريق يدور ويدور؛ ومن بين فتحة غطاء السيارة، شاهدت للحظة أشجار التنوب الشاهقة السوداء، وشوارع القرى، ومعبر؛ ثم كانت محطة قطار تولوز، البهو الكبير بسقفه العالي، الأرصفة حيث كان الناس ينتظرون القطار المسافر إلى باريس. أعطانا السائق بطاقات السفر والتعليمات التالية: لا تبقوا معاً، أذهبوا كل منكم في جانب، لا تسعوا بعضكم على البعض الآخر. أخذتُ حورية من يدها واقتدتها حتى نهاية الرصيف حيث كان الزجاج ينتهي إلى هذا الحد ويسمح بمرور الشمس، وحينما رأيت السماء الزرقاء شعرت بالراحة. تناولنا ما تبقى لدينا من خبز تغادير مع التمر ونحن جالسين فوق مقعد. عبثاً بذلنا ما في وسعنا حتى لانلفت انتباه الآخرين، وكان الناس ينظرون إلينا، ويمكن أن أقول أنه على

الأرجح كان لا يبدو علينا أننا ككل الناس، فحورية في ثوبها الطويل الأزرق ووشاحها الأبيض وأنا ببشرتي السوداء وشعري المتهدل من النوم، كنا متشربتين بحق.

جاء طفلٌ وتسمر أمامنا حتى يتفحص جيداً وجوهنا، وكان يبدو عليه سوء الخلق، فنكست حورية رأسها، أما أنا فلم أغضب، وقلت له "ماذا تريد؟"، وبما أنه لم ينصرف، تظاهرت بأنني أتقدم نحوه فولي. على الرصيف، كان هناك إناس يبدون غرباء مثلنا، من رجال ونساء بشرتهم سوداء، وشعرهم حالك السواد كالسج، وكانت ثيابهم غير مهذمة، وكانوا يتحدثون لغة غريبة بها بعض الكلمات الأسبانية. همست إلى حورية: "هؤلاء هم البوهيميون، إنهم يسافرون دوماً، فليس لهم من ديار"، لم أراهم مطلقاً من ذي قبل، كانت هيمتهم بائسة، ويشوب نظراتهم شيء من الفخر. دقق أحدهم النظر في، وكان شاباً طالعه حاد، ونظر إلى نظرة كما لو كان لا يستطيع عنها فكاكاً، وللمرة الأولى منذ وقت طويل، نق قلبى من الخوف، من الرعب أو شيء من هذا القبيل، فجذبتني حورية من ذراعي وقالت لي: "لا ينبغي أن تنظري إليه، سيضايقنا". اقترب البوهيمي منا وقال: "من أي البلاد أنتم؟ هل ستسافرون إلى باريس"، كانت أسنانه البيضاء تتلألأ في وجهه الأسود، وكان ينفخ متواركاً كداعر، فاقتادتني حورية إلى الطرف الآخر من الرصيف، ثم استطردت: "إنك معتوهة، إنه مؤذ". ثم وصل القطار واحتجزنا زحام الناس حول أبواب القطار، وعثرنا على مقعد في عربة خالية

وأخذ القطار طريقه ببطن تاركاً المحطة، ورأيت المنازل تتقاطر إلى الخلف، ففكرت في كل ما تركته، الشوارع الضوائية، منازل تبريكة المتكدسة، أو فناء بيت لالا أسماء، أو أيضا الفندق بتجاره الذين كانوا يشغلون الحجرات في السابق، والأروقة المقنطرة بحزم بضاعتهم وحقائبهم المليئة بالفاكهة الجافة. فكرت في أنني ربما أعود يوما ما، ولن يبقى لي شيئا من ذكرياتي ولا أي إنسان أعرفه. كان قلبي مشدودا، وكانت لدى رغبة في البكاء وأنا أفكر في تغاديروفي غرفتها بالمستشفى وساقها المبتورة، ويبدو لي أنني حينما رحلت فقدت آخر شخص لي في عائلتي. نامت حورية أمامي على المقعد متوسدة حقيبته، وكان ضوء الشمس يضيء للحظات وجهها وعينيها الملقتين ذي الأهداب الطويلة جدا وفمها حيث تهرق قواطع أسنانها البيضاء.

ذهبت إلى الممر كي أشعل سيجارة، فلقد شرعت في التدخين في الزورق ذلك أن السجائر الأمريكية كانت تباع دون ضرائب في ميلالا، وكنت أحب أن أدخن في الخارج وأنا أنظر إلى الدخان يتراقص في الريح، وكنت في خجل من أن ترائي حورية وتقول لي: "أتشعلين السجائر الآن؟".

كان القطار طويلا، لم يكن يحمل الكثير من الركاب، وشرعت في التنقل من عربة إلى أخرى مارة بين العربات، وفجأة رأيت البوهيمسي، وكان من المفترض أن يتتبعني لأنه كان بمفرده في نهاية الممر، تصرف كما لو أنني لا أعرفه، وأردت أن أعود إلى العربة التي بها مقعدي، فأطلق الممر أمامي؛ كان فارعا، وبشرته داكنة، وكانت حواجبه الحالكة السوداء تتراص

في وسط جبينه. أبتسم لي، وأعتقد أنه قال لي: "ما اسمك؟". كانت له نكتة فرنسية قريبة كلكتة رجل من جنوب أمريكا، وقال لي أيضا: "هل تخافين مني؟"، ولما كنت لا أحب المزهوين بأنفسهم، قلت له: "ولا أخاف منك، إذا سمحت لي؟". وفي ذات الوقت مررت هكذا من أسفل ذراعه خافضة نفسى إلى أسفل كالطفلة، فسار خلفى. ولم أرد أن يعرف أين تجلس حورية، فتوقفت في الممر بجوار الرحاض وأشعلت سيجارة أخرى. ظل البوهيمى بجوارى، وكان ينظر من نافذة باب القطار. كاد اهتزاز القطار أن يلقىنا على الأرض، وكانت الضوضاء التي تنبعث من الريح مُصمّة، وقال لي وهو شبه صائح: "اسمى بنيكو، وأنت؟"، دفعت الريح شعره، وكانت له خصلة شعر تخفى جبهته، وفي ومضة، أدركت أنه يضع سيّة من الذهب فى فكّه وحلّق ذهبى صغير فى أذنه، ولا يبدو عليه أنه مؤذ. قلت له اسماً وهمياً، أعتقد أنه "ديزى" وأخذنا نتحدث معاً قليلاً. فقد كنا فى نفس القطار، كنا فى طريقنا إلى باريس، ولكى نقتل الوقت، كان من المناسب أيضا أن ننظر من النافذة أو نطالع مجلة. ولم يكن النعاس ينتابنى، بل على النقيض، أحسست بنفسى غير متعجلة، مليئة بالحيوية. أما هو، فقد كان يتحدث عن الموسيقى لأنسها كانت مهنته، كان يعزف ويغنى؛ وفي لحظة ما قال لي: "انتظرينى"، ثم دلف إلى مقدمة القطار وعاد بآلة جيتار، ثم وضع أحد قدميه على حافة الباب وشرع فى العزف؛ كان يعزف موسيقى غريبة تشبه دحرجة ممترجة بضوضاء القطار، ثم مدونات موسيقية تتفجر وتتحدث بسرعة. لم أستمع

الهيئة إلى مثل تلك الموسيقى من ذي قبل، حتى ولو على موجات مذياعى القديم. كان يعزف ويتحدث فى ذات الوقت، أو بالأحرى كان يتمتم بكلمات من لغته أو بهممهمات مثل: هوم، أهم، هم، شئ كهذا؛ ثم توقف وقال: "هل هذا يعجبك؟ هل تحبين موسيقاى؟" وكان هناك من الناس من قدم ليرى العزف، كما كان هناك أطفال يخرجون من الطرف الآخر للعربة ليشاهدوا المنظر، وجاء أيضا مفتش قطار يرتدى حلة زرقاء داكنة وقبعة، وتوقف لحظة ثم مضى. توقف البونيكو لحظة وقال على عجل: "أترين؟ عندما أعزف لايسألوننى من بطاقة سفرى"، كما لو أنه أحضر لى جيتاره لهذا الغرض. أما أنا فقد انتابتنى رغبة فى الرقص، وتذكرت عندما كنت أرقص للأسيارات بالفندق فى الأيام الماضية، وأقدامى عارية على البلاط البارد فى العرف، بينما كانت الأميرات تغنين وتصفقن. ولقد كانت موسيقى البوهيمى هكذا، كانت تتخللنى وتعطينى قوى جديدة.

جاءت حورية، وكما يمكن لك أن تعتقد، لم تكن سعيدة وهى ترائى فى هذه الصحبة، فقالت لى بالعربية وهى تكشف عن أنيابها: "هيا لا ينهس أن تبقى مع هذا الرجل". كانت قد خرجت من العربة تحمل حقائبنا ومذياعى خوفاً من أن يتم سرقتهم؛ وفى قميصها الصوفى الكستنائى وثوبها الطويل الأزرق الذى يجعلها تبدو كالحبلى بحق، كانت تبدو بانسة تشير الشفقة فى نفسى، فلقد كانت حورية فى الواقع هى أسرتى الوحيدة وأخت لى. جذبتنى من يدى ونظرت إلينا البوهيمى ونحن نمضى وراح يضحك. كنت

أبغضه لأذرائه لي ولحورية، فلقد كان فخوراً بنفسه جداً. ولم تكن حورية تخشى على من أن أضل طريقى، فلقد استيقظت فوجدت نفسها بمفردها فى العربة، وكان ذلك الأمر بالنسبة لها شيئاً مرعباً. ضمنتها إلى على المقعد حتى أهدأ من روعها، وقلت لها: " أتعلمين ؟ إنك فى فرنسا، والآن أنت لا تخاطرى بشئ، فما من أحد يستطيع أن يعثر عليك ". كنا فى موقف واحد: هى يبحث عنها زوجها، وأنا تبحث عنى كُنْسة سيدتى. وكنا نتكلم كل خطوة لعربة القطار على شريط الطريق الحديدى تبعداً عن جلابينا، وتبعداً عن البحر الذى يفصلنا عنهم.

كنت أعطى فى النوم حينما توقف القطار فى باريس، أما حورية فكانت مستيقظة آن ذاك، وقالت لي فى لطف: "استيقظى يا ليلى، ها نحن قد وصلنا". كان الوقت ليلاً، كنت أشاهد عبر الزجاج أضواء تتراقص بينما كان القطار بهتز وهو يحدث صريراً على ملتقى الطرقات؛ وكانت السماء تمطر، فنظرت بإمعان إلى القطارات التى كانت تتساقط على الزجاج دون أن أبهى أى رد فعل؛ كنت على الأرجح متعبة إلى حد أن حورية خافت وغضبت قائلة: "ما بك ؟ استيقظى، يجب علينا أن نهبط من القطار ". لم أستطع تصديق أن كل شئ تم، وأن ذلك كان بمثابة نقطة النهاية فى سفرنا؛ وبالرغم من إنهاكى، وددت لو أعطى أى شئ حتى يمضى القطار أبعد من ذلك، وحتى أتمكن من أن أنام فى هدوء. هكذا كنا فى باريس، فأدلفنا تحت المطر متقلصات أسفل مطربة حورية المنخفضة، ومعنا حقائبنا وسلة برتقال والذبياع

الشهير ريالستيك. وعلى طول الرصيف، حول محطة القطار، بحثاً عن مسكن نمضي فيه الليل، في شارع جان بوتون حيث شقة الأنسة ماير التي لم يعد لها وجود الآن.

في البداية، كانت باريس رائعة، فكنت أهرول في الشوارع، ولا أتوقف؛ أما حورية فقد ظلت حبيسة الشقة، تطهى الطعام، وتنتظر قدومي؛ كانت تخشى كل شيء، ومثلما كان يحدث في الفندق في السابق، كنت أقوم بالمشتريات وأذهب في كل مكان. كنت أخرج صباحاً في الساعة أو الثامنة ومعى حقائبي البلاستيكية لأشتري البطاطس (كنا نأكل البطاطس المسلوقة بصفة خاصة)، والخبز، والطماطم، والحليب، فلقد كانت اللحوم باهظة الثمن، ثم أن حورية لم تكن تثق في شيء، وكانت تخشى أن يدعها الآخرون تتناول لحم الخنزير.

كانت حورية تقتصد، فكانت الغرفة تكلفنا خمسمائة فرنكا أسبوعياً، إضافة إلى مصاريف الكهرباء، وكنا لانستخدم آلة التدفئة، وكان المطبخ عاماً بين المستأجرين جميعاً، الذين كانوا جميعهم من السود، كانت تضعهم الأنسة ماير رباعي في غرفة واحدة، حتى أنها كانت تقيم فوق السطح، وكانت تهبط في كل لحظة تراقب ما يحدث في الشقة. وبعد مرور بضعة أيام، تعرفت على ماري هيلين الجواندلوبية⁽⁴⁾ والتي كانت تعمل في

(4) Guadeloupe من بين الجزر التي تخضع للسيطرة الفرنسية، مساحتها 1704 كيلو متر مربع، ويتكون غالبية سكانها من العنصر المختلط، كما توجد أقلية من السود وأخرى من الفرنسيين الأصل، ولغة الجزيرة الرسمية هي اللغة الفرنسية. (المترجم)

مستشفى بوسيكو⁽⁵⁾ وصديقها جوزيه أيضا، وهو من جزر الأنغيسه⁽⁶⁾، كما تعرفت على كل الأفارقة، نامبي ومادي وانتوان ونونو الذي كان يصغرنى عمراً، وكان شديد السواد ويلعب الملاكمة. كنت أحبهم كثيراً، كانوا غرباء فى سلوكهم، وكانوا يلهون بأى شئ ويتحدثون عن المالكة، الأنسة ماير ملقبين إياها بـ "الراة المسنة"، أو كانوا يلقبونها بـ "شيبانية"، ذلك أن هذا الاسم هو الذى لقبتها به فاطمة التى كانت تقيم قبلنا فى الغرفة؛ وكانت الأنسة ماير تقول لنا عندما ترانا: "لدى مبدأ ألا أؤجر شقتى للعرب مطلقاً"، ولكنها قامت بهذا الاستثناء ربما لئلا يبتلى بشرتى.

فى البدايعة، أحببت هذه المدينة بشدة، وأخافتنى قليلاً لأنها شاسعة جداً ولكنها مليئة بالأشياء الخارقة، والناس الغرباء فى سلوكهم... نهاية، هكذا رأيته.

فى بداية الأمر، دهشت للكلاب، فلقد كانت فى كل مكان. كانت هناك كلاب كبيرة وكلاب صغيرة وقصيرة تنتصب على أرجلها، وكلاب شعرها طويل جداً إلى حد أننى لم أكن أعرف أين رأسها، أو أين ذيلها، وكلاب شعرها متموج كما لو كانت قد خرجت من لدى مصفف الشعر، وأخرى مُجتزة على شكل الأسود والثيران والخراف وكلاب البحر. كان بعضها صغيراً جداً إلى حد أنه يقال عنها أنها فنران، ترتعش مثل القنثران

(5) من المستشفيات الشهيرة بباريس. (المترجم)

(6) جزر تخضع للسيادة الفرنسية. (المترجم)

وتبدو شريوة مثلها؛ وكان بعضها الآخر، في براطيلها الملطخة وأجناديها المتراخية، كانت فارعة كفحول المجول وكالعير، وعندما كانت تهز رؤوسها كانت تلوث كل شئ بروالها⁽⁷⁾. كان هناك بعضها الذي يقيم في شقق الأحياء الراقية، ويسير في سيارات أمريكية وإنجليزية وإيطالية. وكان هناك بعضها الآخر الذي يخرج بين ذراعى صاحبتين مزينين على أكمل وجه ويرتدون صدياتهم الصغيرة من القماش ذي المربعات، حتى أنني رأيت أحدهم يتنزه في سلسلته التي ربطتها صاحبتة في السيارة.

لا أريد أن أقول لكم أنه لم يكن لدينا كلاب، كان هناك الكثير ولكنها كانت تتشابه جميعها، لونها ترابي وعيونها صفراء اللون وبطنها مقعر وكأنها حشرة الزُّهور. وتعودت آنذاك أن أراقب هذه الكلاب، فعندما كنت أرى كلباً يقترب مني كثيراً أو حتى لا يبتعد كثيراً عن طريقى، كنت أنتقى حجراً حاداً جداً، ثم أرفع يدي فوق رأسى، وعامة ما كان ذلك كافياً لإبعاد الكلب منى، وكنت أفعل ذلك دون تفكير، واعتدت ذلك الأمر، حتى أنني في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى حديقة النباتات⁽⁸⁾، اقترب منى كلب طويل ونحيف مربوط بسلسلة طويلة مژودة بزُهرُك، وأراد اشتتام كسب

(7) الروال هو لعاب الحيوان. (المترجم)

(8) حديقة النباتات jardin des plantes هي من أفعالم السياحة في مدينة باريس بفرنسا وتضم مجموعة نادرة من الزهور والنباتات وبها حديقة حيوان شهيرة. وتقع حديقة النباتات بالقرب من نهر السين ومعهد العالم العربي. (المترجم)

حذاثي ففعلت الحركة إياها، ولم يكن معي حجر، لأنه في باريس لا يمكن للمرء الحصول على حصى بسهولة في الشوارع، فنظر إلى الكلب بدهشة كما لو كنت ألقى بكرة، ولكن صاحبه أدركت الأمر فسبقتني كما لو كنت قد هممت أن أرميها هي بذلك الحجر.

وبعد ذلك الموقف، لم أعد أفعل ذلك، فقل اهتمامي بالكلاب، إذ كانوا جميعاً منكأً لأناس يجرونهم في سلاسل وبالتالي لم يكونوا مؤذيين، عدا الهراز الذي كان من الممكن أن يجعل الإنسان ينزلق على الأرض أو تهشم عظامه.

كانت شوارع باريس تبدو لي دون نهاية، وبعضها كان بحسب دون نهاية، فهي شوارع عريضة، وطرقات مشجرة تضيق وسط مد السيارات التي تتوارى بين المباني. وبالنسبة لي أنا التي لم تعرف سوى عالم الملاح وضاحية تهرقية الصفائح أو الشوارع الصغيرة في حي المحيط المزدحمة بالياسمين، كانت هذه المدينة شاسعة غير مستنفذة. فكرت أنني حتى لو أردت أن أجوب كل الشوارع، الواحد تلو الآخر، فإن حياتي لن تكفي للقيام بهذا الأمر، ولن أستطيع أن أرى سوى قطاع صغير وعدد محصور من الوجوه.

كنت أنظر إلى أوجه الناس بصفة خاصة، وكالكلاب، كانت هناك طواع من كل الأنواع، كان هناك البُدناء، والشيوخ، والشباب ذوي البشرة التي تشبه لون سلاح المديّة، وكانت هناك أوجه شاحبة للغاية في لون الأرض البيضاء، وأوجه داكنة جداً، أكثر اسوداداً مني، بها أعين تبدو مضاعة من الداخل.

في الأوقات الأولى، لم أتوقف عن تفحص الوجوه، وكان لدى إحساس أحياناً أن نظرتي مأسورة، تمتصها نظرة الآخر، وأنه ليس بوسعي أن أتخلص منها، وحينئذ جريت النظارات السوداء كقناع أضعه على وجهي، ولكن لم تكن هناك من شمس كافية، وكنت لا أحب أن يفوتني تفصيل وجه ما، تعبير ما، أو لعان نظرة ما.

وبسرعة، واجهتني مشكلات عديدة، فلقد كان هناك رجال كنت أتدحصهم فكانوا يتعقبونني، وكانوا يظنون أنني عاهرة، مهاجرة صغيرة من الضواحي تسمى إلى الذهب في وسط المدينة، فكانوا يقتربون مني، ولكنهم لم يكونوا يجسرون على مس جسدي، فلقد كانوا يخشون الخدعة. ذات يوم، مسكني رجل عجوز قليلاً من ذراعي وقال لي: "هل تأتي معي إلى سيارتي؟ سنشتري حلوى طيبة"

جذب ذراعي بشدة، وكانت عيناه مثل عيني الرجل الذي ضايقتني في المطعم سابقاً مع حورية، وكنت أعرف ماذا يريد مني، كما تعلمون، فنهرته بداية باللغة العربية (كلب - قواد - ملعون دين أمك)، ثم باللغة الأسبانية "غبي، جبان، لواطى"، فأبهشه ذلك حتى أنه ترك ذراعي وتمكنت من الفرار منه.

وبعد ذلك الموقف، كنت أدرك الأمر على الفور حينما كان يهم رجل يتعقبني، وكنت ماهرة في اقتياد الرجال إلى ذلك، ولكن كانت في حياتي نساء أيضاً، ولكنهن كن أكثر مكرراً من الرجال، فكانت الواحدة منهن ترتب

حتى تلقاني في مكان لا يمكنني أن أفر منه، في ممر مسور أو في سلم كهربائي بمتجر أو في عربة مترو مثلاً، كان هؤلاء النسوة يخيفنني، فلقد كن فارعات الطول، بيضاوات، يضعن قلنسوات من الشعر الأسود والبيدال الجلدية وأحذية صغيرة، وكان صوتهن خفيض مستنفذ قليلاً، ولم أكن أقدر على سبهن، فلقد كنت أبتعد عنهن وقلبي يدق ثم أعبر الشارع بين السيارات وأهرول بجنون.

ذات يوم، انتابني هلع في مرحاض مقهى؛ فلقد كان هناك بهو كبير تحت الأرض أنيق به مرآة ومصابيح صغيرة حولها، وكنت أغسل يدي وأمرر قليلاً من الماء على جيبتي كمادتي حتى أملك شعري المتهدل، وجاءت امرأة عن يساري، على الأرجح أنها كانت شابة بديئة بشكل ملحوظ، أنفها مريض ووجنتاها تخطهما تشققات خفيفة، وشعرها أشقر مصف على طريقة الشينيون⁽⁹⁾، وحينما شرعت في تزيين نفسها، نظرتُ إليها مرة أو مرتين بسرعة في المرآة فحسب، الوقت الذي رأيت فيه أن عينيها لونها أزرق يميل إلى اللون الأخضر، ولاحظت أنها وضعت لونها أسوداً على أهدابها من طريق مرقاش صغير.

وفجأة ثارت، وسمعتها وهي تقول لي في نغمة غريبة وخبيثة وصلبة، تشبه نغمة صوت زهرة في غضبها: "لماذا تنظرين إلي؟ ماذا تراني أفعل؟"، فالتفتُ إليها، ولم أفهم ما كانت تقوله لي، واستطردت قائلة:

(9) تسريحة شعر يطلق عليها في بعض اللهجات العربية ذيل الحصان. (المترجم)

”أجيبى أيتها العاهرة، لماذا تنظرين لى هكذا؟“.

كانت عيناها جاحظتين قليلاً وشاحبتين، وكان يهسدو لى أن عينيهما تفتح وتغلق كأنها قط. تمتمت قائلة: ”لم أنظر إليك“، ولكنها تقدمت نحوى مفعمة بحنق بارد أروعنى، وقالت لى: ”كلا، لقد نظرت إلى أيتها الكاذبة، وكانت هيناك مصوبة إلى، وحينما كنت لا أنظر إليك شعرت بعينيك تلتهمنى“، فتقهقرت إلى الطرف الآخر من المرحاض، بينما كانت تسير نحوى؛ مسكت شعرى بكلتى يديها وأمالت رأسى إلى الأمام نحو الحوض، فظننت أنها ستقرعنى وتصدم رأسى فى القاعدة الرخامية فصرخت، فتركتنى: ”هذه قذارة، هيا أيتها القذرة الصغيرة“، ثم تناولت أشياءها وقالت لى: ”لا تنظرى إلى، اخفضى عينيك، قلت لك اخفضى عينيك، إذا نظرت إلى سوف أقتلك“، ثم خرجت. كنت خائفة حتى أنسى لم أتمالك ساقى، وكان قلبى يصطدم بصدرى، وتقيأت، ولم أعد بعدها مطلقاً إلى مراحيض تحت الأرض.

وهكذا تعلمت شيئاً فشيئاً حياتى الجديدة، فلم تكن حورية تتمكن من متابعتى، فيما أنها مثقلة بحملها، كانت لا تتحرك تقريباً، ولا تخرج الغرفة إلا لى تذهب إلى المطبخ عندما لم تكن هناك مارى هيلين، فلقد كان الأنتيون يخيفونها، وكانت تقول إنهم سحرة، ولكننى أظن أنها كانت تقول ذلك لأنهم سود مثلى. كانت حورية تحصى كل مساء ادخاراتها، فإذا كنا لم

نغادر ميلا إلا منذ ثلاثة أشهر، فقد نقصت المدخرات إلى النصف تقريباً، وبهذه الطريقة لن يكون معنا أى شئ قبل قدوم فصل الربيع.

كان يبدو على حورية الحزن الشديد إلى حد أننى كنت أواسيها على قدر استطاعتي، وكنت أعانقها قائلة لها: "كل شئ سيكون على ما يرام وسترين"، ووعدتها بألف شئ، وعدتها أننا سنجد عملاً وشقة جميلة على شاطئ بحيرة أورك⁽¹⁰⁾ وسنستطيع أن نحيا حياة طبيعية، بعيداً عن كوخ الآنسة ماير القذر.

انتشلتنا ماري هيلين، فى حين كنا لا نجد شئ نسدد به الإيجار فى نهاية الصيف، فبينما كنت أخطط لأعيد مزاولة مهنتى كطبيبة، سألتنى ذات يوم فى المطبخ: "هل يناسبك عمل فى المستشفى؟"، سألتنى ذلك لا مبالية، ولكننى فى عينيها وجدت أنها قد استنبطت كل شئ فى حياتنا، وأدركت أنها كانت تشفق علينا.

كان عملاً طيباً لى فلقد كنت أعمل فى صالة مطعم، وعُينت على القور، ولأنى سوداء البشرة فقد قدمتنى ماري هيلين على أننى ابنة أختها وقالت إن لى مستندات دالة على شخصيتى وإننى من جزر الجوادلوب، فأندھش الآخرون من أننى لا أتمكن من التحدث بلغة المستعمرات الفرنسية، ففسرت ماري هيلين لهم كل شئ وقالت: "ولدت هناك، ثم جاءت أمها بعد

(10) منطقة فى شمال باريس. (المترجم)

ذلك إلى فرنسا، ولذا نسيت كل شيء"، وبذلك لم يتم تغيير حتى اسمى "ليلي"، فهو اسم من الأسماء المعروفة بهذه الجزر، وقامت ماري هيلين بتسجيل اسمى العائلى مطابقاً لاسمها العائلى "مانجان".

كنت أعمل من الساعة وحتى الواحدة ظهراً فى مستشفى بوسيكوب وكنت أتناقضى نصف راتب، ولكن كان ذلك يسمح بتسديد الإيجار والقيام ببعض النفقات، فكان من الممكن أن تبقى إذا مدخرات حورية لوقت ما، إضافة إلى ذلك، كان بوسى أن أتناول طعامى فى مطعم المستشفى، فلقد كانت ماري هيلين تحجز لى مقعداً بجوارها، وكانت تعبأ طبق طعامها لى، فلقد كانت وديعة للغاية، وكنت أحب نظرتها الحنونة قليلاً. فى يوم من الأيام، عاتبت الآنسة ماير حورية فى أمر لا أعرفه، وهددت بأن تطردها، فتنسأولت ماري هيلين مديرة جزار من المطبخ وسارت إلى المالكة وقالت لها: "أنصحك ألا تحاولى أن تطردى أى شخص مهما حدث، وبرغم كل النقود التى ندفعها لك، فإنك عجوز فاسقة".

كنت أحب بصفة خاصة الأعياد، فمن آن إلى آخر، فى عيد ميلاد أو فى أى مناسبة أخرى، كان السود يخلقون السقائر، وكانت الشقة تغوص فى الغبش، وكان الأفريقيون يضربون الدف، وهو طبل كبير من الخشب مغطى بالجند، وكانوا يدقونه بلطف شديد بأطراف أصابعهم، وعلى ضوء الشمع، كان الصبية يرقصون، وكان نونو، الملاكى الكامبيرونى الأصل، يرقص شبه عارياً أو عارياً فى بعض الأحيان، وفى وسط ممر الشقة، كنا نسمع الضحكات

تحدث من الغرف، وكانت ماري هيلين تنطلق بصوتها في لغتها الكمنجية، وكان جوزيه رفيقها يخرج من الغرفة بآلته الموسيقية ويعزف موسيقى الجاز وموسيقى هادئة مع هتاف ناشز من وقت إلى آخر. أما الآنسة ماير فكانت تحبس نفسها في هذه الأيام، ولم تكن تجسر على الخروج طالما أن الحفل مستمر. وكانت حورية أيضا لا تخرج خارج الغرفة، ولكنها كانت تنصت للموسيقى، وكانت أمضى وقتي بين الخروج والدخول إلى غرفتنا، وكانت أشتم رائحة الدخان، ومن المطبخ كنت أتسلل إلى وسط من كانوا يرقصون، وكانت أساعد ماري هيلين في جمع الأطباق، وكانت أحمل إلى حورية أطباق الطعام، وأرز مخلوط بجوز الهند، ويخن من السمك، ولسان الحمل المقلّى. وكانت أرقص أيضاً مع الأفارقة، أو مع شاب فارغ عينيّه خضرواتين، اسمه دينيس، وعندما كان يجذبنى إليه بشدة، كانت ماري هيلين تدفعه بلطمة مفاجئة قائلة له: "انتبه، هذه الفتاة شريفة، إنها ابنة أختي". وعندما كان الاحتفال ينتهي، كنت أعاون ماري هيلين في عملية التنظيف، فلقد كانت تجد مشقة في الانحناء لجمع الأطباق الورقية. ذات مرة، ضحكت هازئة وقالت: "إذاً لن أكون الوحيدة"، وبما أنني نظرت إليها دون أن يبدو عليّ أنني أدرك ما قالت، استطردت: "نعم الوحيدة التي لديها رضيع، ماذا، ألا تشكين في هذا الأمر؟"، ونظرت إلى باحتفاء وقالت: "حقيقة إنك ساذجة، أنك لا تعلمين شيئاً عن الحياة، ماذا علمتك أمك؟"، فأدركت أنها تتحدث عن حورية،

فقلت لها: " كلا، ليست هي بأُمي، تعلمين ذلك"، فأنطلقت ماري هيلين في الضحك، وقالت: "نعم، أيا كان الأمر، فسوف يأتيها طفلاً من قبلي".

كانت هذه هي المرة الأولى التي نتحدث فيها عن هذا الأمر، وأحسست كثيراً أنه كان لزاماً عليّ أن أحدثها بكل شيء وأعترف لها، ولكنني لم أكن قادرة على ذلك، ولم أكن أعرف سوى تأليف الحكايات، لأنني منذ أن فقدت سيدتي، كان ذلك كل ما كنت أستطيع أن أفعله. وذات مرة قلت لها: " ألم أقل لك أنه ليس لي آباء؟"، غير أن ماري هيلين قطعت حديثي إليها فجأة ثم قالت: "اسمعي يا ليلي، لا تقولي لي ذلك الآن، فيوم ما، سوف نتحدث عن ذلك الأمر، ولكن ليس الآن وقته، ليست لدى رغبة في أن أستمع إلى ذلك، كما أنه ليس لديك الرغبة في الحديث عن ذلك"، وكانت على صواب، وربما أدركت أنني لا أقول الحقيقة.

مضيت أكتشف باريس طوال الصيف، وكان الطقس رائعاً، وكانت السماء زرقاء دون غيمة واحدة، وكانت الأشجار شديدة الخضرة لامعة، وضخمت عواصف أغسطس من نهر السين؛ وفي فترة بعد الظهر وأنا أخرج من المستشفى، كنت أسير على طول النهر، وأذهب حتى المعبر الذي يربط الشاطئين أمام الكنيسة الكبيرة. لم أكن مطمئنة بعد للسير في الشوارع الكبيرة، والآن أمضي بعيداً، فكنت أرتاد في بعض الأحيان المقرو، وفي غالبية الأحيان كنت أستقل الأتوبيس، ولم أتمكن من التعود على استقلال المقرو. كانت ماري هيلين تسخر مني وتقول لي: "إنك غبية، هذا أمر جلبي،

فالطقس منعش في فصل الصيف، وفي فصل الشتاء الطقس حار، ليس على إلا أن تجلس في ركن من العربة ومعك كتاب، ولن يميرك أحد انتباهها ولكن لم يكن خوفاً من المترو مبعثه الناس، فكوني تحت الأرض، كنت يشعرني بالدوار، وكنت أرقب خروج المترو من تحت الأرض لأرى ضوء الجو، وكان صدري يطبق على، ولم أكن أحتمل سوى الخط الجوي بجوار محطة اوستيرليتز⁽¹¹⁾ أو من جانب محطة كامبرون⁽¹²⁾. كنت أستهة الأتوبيس وأذهب حتى نهاية محطاته، وكنت لا أطلع أسماء الشوارع، فلكنت أسمى كي أرى بقدر الإمكان الناس والمباني والمتاجر والميادين.

ثم أنفي سرت في كل الأحياء التالية: الباستيل، فدرب شاليفيني لاشوسيه دانتن، الأوبرا، مدلاين، سباستبول، لاكونترسكرب، دنفي روشرو، سان جاك، سانت انتوان وسان بول، وكانت هناك أحياء بورجوازي أنيقة تنام في الثالثة من بعد الظهر، وكانت هناك أحياء شعبية ضواثي لها حوائط طويلة قرمزية حمراء تشبه سور السجن، وسلاط ومطالط وساحات خالية، وحدائق ترابية تكتظ بأناس شوان، وميادين في ساعة تناول أطفا المدارس لطعامهم، ومعابر طرق حديدية، وقنادق مريبة تكتظ بفتيات ترتدي الجلد الأسود، ومتاجر فخمة تعرض ساعات ومجوهرات وحفائط يد وعطور وعندما وصلت إلى باريس، كنت أنعمل صندلا من الجلد، وفي فصل الخريف

(11) محطة مترو وقطار شهيرة بباريس. (المترجم)

(12) محطة مترو بالدائرة الثالثة عشرة بباريس. (المترجم)

تمزق إربا، فابتعت حذاءً رياضياً أبيضاً بلاستيكياً حقيراً جداً من متجر بجوار بورت ديتالي⁽¹³⁾، ورغم ذلك فقد استطعت عن طريقه أن أسير لمدة كيلومترات.

كنت أسير دون أن أتحدث إلى أى شخص؛ ومن آن إلى آخر، كان هناك أحاس ينظرون إلى ويتظاهرون أنهم يقتربون منى، ومنذ ما حدث فى مرحاض منطقة ريجانس، لم أعد أنظر إلى الناس فى أعينهم، وكنت أسير غائبة، وكأنى لا أعرف إلى أين أمضى، وعندما كنت ألحظ أن أحداً ما يتعقبنى، كنت أدخل المباني وأنتظر فى الظلام، وفى عمق ممر، أمدحتى مائة ثم أرحل.

كانت هناك مناطق غريبة، لاسيما بجوار محطات المترو: ففى شارع جان بوتون وعلى رصيف المحطة، كان هناك شباب يرتدون أقمصاً عريضة للغاية، وفتيات نحيفات ترتدين الجينز والسترات القصيرة، شعورهن مفسولة بالكلور، وطالعهن مُدهب، ونظرتهم غائبة فارغة. ذات يوم، وأنا فى طريق عودتى إلى المنزل، فوجئت بمشاجرة، كان الأمر فامضاً وغير مفهوم؛ أولاً، كان هناك رجال ونساء يهرولون متدافعين ويطلقون صيحات أجشة، أظنهم أتراك أو روس، لا أعرف، ثم كانت هناك مجموعة صغيرة من الشباب الذين يرتدون أقمصاً جلدية، وكانوا يمسكون فى أيديهم بمطارق

(13) حى ومحطة مترو بهاريس. (المترجم)

ومضارب لعبة البيسبول⁽¹⁴⁾، فمروا جميعهم من أمامي، وعندما مكثت خائفة على طرف الرصيف، دفعني أحد الصبية بكلية يديه، ورأيت وجهه مقضباً، وفيه وعينيه التي تفحصتني لبرهة قاسية كانت جافة كأعين السحلية، ثم رحلوا، وهويت على الأرض على ركبتي أمام مجرى الماء، ولم أتمكن من التحرك، وعندما سمعت سريضة الشرطة كان لدى فحسب الوقت الذي أهول فيه إلى باب المبنى الذي تقع فيه شقة الآنسة ماير.

كانت حورية ترتعش في الشقة، عندما دخلت إلى الغرفة المظلمة، أشعلت الضوء ولم أعرف نظرتها، نظرة حيوان مُطارِد، فأحدث ذلك الأمر فيَّ شيئاً ما، ذلك أنني عرفتُها غير مبالية مرحة.

قلت لها: "ما بك؟"، فلم تجب، كانت تنظر إلى ساقى، ولاحظت أن ما تدقق النظر فيه هو بنطالي الممزق من على الركبة، وكانت هناك بقعة دم تتمدد على النسيج، فقلت لها: "وقعت على الأرض، زلت ساقى على درجة السلم"، ولكنني كنت أعلم أنها لا تتخذه بقول، وقالت بصوت مختنق: "أريد أن أرحل من هذا المكان، لم أضد أقوى على ذلك"، فقلت لها قاطعة حديثها قبل أن تتحدث عن الرحيل: "إنه أمر مستحيل، لن يمكنك أن تعودى إلى بلادك، فأنت وأنا سنتمرض للسجن، وربما لا ترين طفلك أبداً، فسوف يسلبونك إياه"، كنت أقول لها ذلك من أجل نفسي أيضاً، وحتى

(14) لعبة يتنافس فيها فريقان، يتشكل كلاهما من تسع لاعبين، ويشارك فيها إحراز أربعة أهداف لتكوين نقطة في صالح الفريق. (الترجم)

لا أنسى ما فعلوه بى حينما كنت طفلة وحينما أختطفتم وعُلبت فى حقيبة ثم تم بيعى ، حتى لا انسى هذه الأيادى التى كانت تمر بى والحريق فى بطنى ، فعادت لى الذكريات فجأة كحامض فى حلقومى ، واستطردت قائلة لها : " الأفضل أن نموت " قلت ذلك كما قالته هى عندما كنا فى تهرىكة ، وهى تضع المديّة على حلقها .

فى نهاية فصل الصيف ، تعرفت على الطبيبة فرومجا ؛ اظن أنها عسى الأرجح قد رأتنى عندما كنت أدفع أمامى عربة الغسيل فى مصر المستشفى . كانت الطبيبة فرومجا تعمل كطبيبة أعصاب ، كانت تفحص مرضاها فى الطابق الثالث ، ولكنها كانت تغدو وتعود من قسم إلى آخر بلا توقف . سألت عن اسمى من مارى هيلين وعن معلومات أخرى ، وذات يوم ، أخذتنى مارى هيلين على انفراد فى ساعة تناول الطعام ، وكأنت تتحدث إلى بنفس صوتها البطني الغنائى ، ولكن فى عمق عينيها الذهبيتين ، تمكنت من أن أطالع احساساتها : القلق ، شئ من السخرية أو الحذر ، وقالت : " تعلمين يا ليلى ، كما يطيب لك ، ولكن أردت أن أبلغك أن شخصاً ما فى وضع مرموق يهتم بك " ، فلما نظرت إليها دون أن يبدو على الفهم ، قالت : " الطبيبة فرومجا التى تدير قطاع طب الأعصاب تريد أن تساعدك ، إنها على استعداد أن تجد لك عملاً ، إذا شئت ، يمكنك أن تقابليها " ، كنت متحفظة ، ذلك أننى لم أكن أرغب فى معرفة أحداً أيا كان ، أو التقي بأحد من جديد مهما كان الأمر ، وكنت أود أن أمضى بين الناس وبين الأشياء كسمكة تصعد سيراً .

ثارت ماري هيلين وقالت لي: " ينبغي عليك أن تفكرى فى مستقبلك أيضاً. لا يمكننى أن أستمرو فى المجئ بك إلى هنا دون أن يكون لك مستندات شخصية، إنه أمر مخاطر فيه، فأنا أخاطر بفقد موقعى فى العمل ". كانت هذه هى المرة الأولى التى أفهمتنى فيها أنها أدت إلى خدمة، ولو كان الأمر بيدى لتركنت ببساطة المستشفى، ولكن حورية كانت مُعدمة ووحيدة وكنا فى حاجة ملحة للنقود، فقلت: "ماذا يجب على أن أفعله؟"، فلطمتنى ماري هيلين، وقالت: "نهاية، ماذا تقصوين؟ هذه المرأة تعرض عليك أن تعملى لديها فى التنظيف وفى القيام بالمشتريات فقط، هذا كل ما فى الأمر، وستعملين كل يوم، وسيكون بوسعك أن تتناولى الطعام فى الظهيرة لديها، سوف تنتظرك فى منزلها غداً بعد الظهيرة ويمكنك أن تزاولى عملك لديها مباشرة، أليس ذلك ما تبحثين عنه؟"، خفضت رأسى، ولم أريد أن أعارض ماري هيلين، فلقد فعلت الكثير حقاً من أجلى، لأنها كانت حنونة، ولأنها كانت تحب شعري وبشرتي السوداء وعينى اللتين كن كعينيهما، فعينى كعيون غزالة كما كانت تقول سيدتى. عانقتنى وقالت لي: " اسمعى، إذا أردتى، يمكننى أن أذهب معك حتى أقدمكِ لها، وأطلبُ من سيسيل أن تعمل بدلاً منى غداً فى فترة ما بعد الظهيرة ".

فعلتُ مثلما قالت لي، ولا أظن أنها كانت سيئة النية، فكانت تعتقد أنها تمد لي يد العون، وربما كانت فى الحقيقة حاسدة، وربما أرادت هى أيضاً أن تُلغى نظر شخصاً ما فى وضع مرموق. كانت ماري هيلين متواضعة

للغاية، مخدوعة كثيراً في الحياة بصحبة أبنيتها والسنوات التي كان زوجها السابق يضربها خلالها كل مساء، فلقد أفقدها أحد قواطع أسنانها ذات يوم حينما دفعها إلى الأمام في واجهة دولا ب به مرآة، فأرادت أن تخلصني من حياة كهذه، وقالت لي: "انظري إليّ، حياتي لا تساوي شيئاً"، وأرادت أن أترك حورية، وأن أصبح آنذاك إنساناً ما.

كان منزل السيدة فرومجا يقع في ضاحية باسي في شارع صغير هادئ، وكان له بوابة كبيرة من الحديد وعمودين، وكان رقمه "8" مدون بالحديد، وكانت واجهته بيضاء وسقفه مدبب، وناقذته صغيرة على المسطح الذي أحبهته على الفور.

قدمتني ماري هيلين للطبيبة فرومجا، ونقد سمعت الحديث عنها بكثرة، وكنت أخشى لقائها، وظننت أنني التقى واحدة من سيدات المجتمع كالسيدة دلاهاي في الرباط بحليها الذهبية وثوبها الرمادي الرائع، وطالعها الشاحب وعينيها الباردتين. كنت قد هيئت نفسي لفكرة أن أفر مع أول كلمة غير مناسبة توجهها إليّ، ولكن السيدة فرومجا كانت على النقيض من ذلك، فلقد كانت قصيرة ونشيطة، بشرتها سمراء للغاية، وعيناها براقتان من الدهاء، ومع ذلك، كانت ترتدي بشكل غريب بنطالا أصفر اللون يميل إلى السمرة، واسع للغاية، وقميص طويل لونه أزرق زرقاة السماء وكأنه وشاح ريفي. عندما رأته عانقتني، وقالت في تعجب: "ولكنها جذابة"، ثم أخذت لنا شايا وقدمت لنا الحلوى، ولم تبق في مكان ثابت، فلقد كانت تقفز في

الشقة كمصفور دورى، وقالت لى: "يا ليلى، عليك أن تهتمى بى، هل تريدین ذلك؟ ليس لدى أطفال فستكونين كابنتى، أنت التى ستنظمين كل شى فى هذا المنزل، ولقد قالت لى مارى هيلين أنك كنت تهتمين فى السابق بسيدة عجوز قعيدة، حسناً، إننى فى حاجة إلى أن تعامليننى كما لو كنت كذلك، أتدركين ما أقوله لك؟". احْتَسَيْتُ الشاى، وقلت نعم، ووجدت صعوبة فى الظن أنها تحدثت هكذا عن سيدتى كما لو كان ذلك بحسب عملى أن أنشغل بسيدة عجوز قعيدة. وفى الواقع، أدركت أن ذلك الأمر كان أمراً حقيقياً، لقد كان ذلك بحسب عملى منذ أن كنت صغيرة.

أحببتُ العمل لدى السيدة فرومجا، فكنْتُ أبقي لديها طيلة النهار، وكنْتُ أقومُ بتنظيف المنزل، عدت للممارسات التى كنت أرتادها فى السابق فى منزل الملاح لدى لالا أسماء، فكنْتُ أبدأ بمسح الفناء ثم الرواق، وكنْتُ ألتقط أوراق أشجار الكستناء التى كانت تتساقط والزغب وحُثَالَاتِ المبانى المجاورة، ثم كنْتُ أغسلُ البلاط وأنفض السجاد، وكنْتُ أنظف الموكيت بمكنسة ذات يد وجدتها فى القبو. وذات يوم جاءت السيدة ورأتنى فانطلقت فى الضحك قائلة: "ولكن، كلا يا ليلى، عليك أن تستخدمى آلة التنظيف". كنْتُ خائفة من هذه الآلة التى كانت تدوى وتصفر، والتى كانت تبتلع كل شى حتى الأشياء التى كانت أسفل ستائر التول⁽¹⁵⁾، وانتهيت بالتعود عليها.

(15) التول هو قماش قطنى أو صوفى شفاف يستخدم عادة فى نسج الستائر والكلمة مأخوذة

كنت أقوم ببعض المشتريات في الحي، وبما أن متاجر المنطقة كانت أسعارها مرتفعة، كنت أستقل الأتوبيس وأذهب إلى سوق "اليجر" حيث كنت أشتري البرتقال في حزمة بها اثنين من الكيلوهات، وكنت أشتري الطماطم والقرع والشمام. كان المخبز يمتلئ بالفاكهة، وكانت السيدة منبهرة بي. كانت تترك ورقة مالية فئة المائة فرنك على المنضدة الصغيرة في حجرة الاستقبال، وكنت أضع النقود المعدنية القليلة في صحن صغير، فلقد كنت أجاهد نفسي على إنفاق أقل شيء بقدر الإمكان. كنت أعد طبق السلطة بشكل مختلف كل يوم عن اليوم الآخر، بالزيتون التونسي، بالكرم الجاف والتين واليقطين الأقصر والكيوي وثمررة المحامي والاكورا والكرامبول، وأوراق الخلس البلدي وفريزيه وباتيفيا وخس النعجة وطرخشقون وقرع وشيوت وكرنب أحمر اللون. كنت أملئ طبقا كبير الحجم أبيض اللون ثم أضعه على المنضدة في منتصف مفرش السفرة الكبير الأبيض الفضي اللامع بجوار إبريق معبا بالماء الطازج، ثم أنصرف. وعندما كنت أعود إلى شقة الأنسة ماير، كان كل شيء يبدو لي قاتماً، حزيناً، تعساً. كانت حورية تتمسح على الأريكة، وتقرض الخبز، كانت حزينة فتقول لي: "أتتركي، تتركي وحيدة، فأمضي حياتي في البكاء، هل لهذا السبب أتيت بك إلى هنا؟" كانت حورية غيورة حاسدة، وكانت تقول: "والآن ولم تعد لك حاجة إلي، والآن وقد وجدت من هو أفضل مني، فتذهبين، وتتناسينني وأنا أموت في هذا الثقب الأسود دون أن أجد من ينقذني". فكنت أحاول أن أهدأ من روعها،

وعدتها أنني بمجرد أن أقتصد النقود الكافية سنذهب نحو الجنوب، إلى مارسييا، إلى نيس؛ كنت أحدثها وكأني أتحدثُ إلى طفلة.

ربما كانت حورية على صواب، فقد كنت أرغب في الرحيل، وأريد أن أبتعد على قدر الإمكان عن شارع جان بوتن ومن الفنادق البائسة وعن متاجر الكوكاويين على الرصيف ومن مصابات الشباب التي كانت تسهرول بعصيانها كي تضرب العرب والأقارعة لحظة مرورهم.

كنت أشعر بالسعادة حينما أرفع البوابة الحديدية للمنزل رقم "8" وأدخل إلى المنزل القديم الهادئ حيث رُئيتُ كل شيء وزينت كل شيء، وكان لالا أسماء كانت لا تزال حية وكأنها السيدة الحقيقية للمنزل.

أظن أنني منذ أن كنت طفلة لم يتوقف الناس عن وضعي في شباكهم، فكانوا يوقعونني في شباكهم، ويمدون إلى شراكهم عن طريق عواطفهم وضعفهم، فلقد كانت هناك لالا أسماء، ثم كنتها زهرة، والسيدة جميلة، وتغادير، والآن حورية؛ كان لدى شعور بأنني أختنق. ولم يكن بوسعي أن أفلت من حورية، كان عليّ أن أعود وأعيش من جديد في دوار تبريكة، سجين في دار تغادير، كي أعيش في أفق وحدوي يشكله كل من طرف الزقاق المثقوب ومعبر الطريق الحديث السريع، والفئران التي تحدث أزيزا على السقف.

اتفق معكم على أن هذه الفكرة لم تكن طيبة من جانبي، ولكنني لم أعد أقدر على العيش هنا، ولذا ففي الساعة التي كان ينبغي عليّ فيها أن أعود

إلى منزلنا في شارع جان بوترن، كنت أمكثُ لدى السيدة، وكنت أستمِر في تدسيق المطبخ، فأجلى الأواني، البلاط الصيني والصنابير، وكنت أفعلُ ذلك حتى لا أتأمل في حياتي، وكى لا أفكر في أمرى.

ذات يوم، عادت السيدة فرومجا مبكرة عن موعد قدومها قليلاً؛ وعندما رأتني، فطنت كل شيء، فراحت تعانقني قبل أن تنزع واقى المطر من على ملابسها، وقبل أن تنزع مغاتيحها من باب المنزل، قالت: "إن ذلك يسعدنى يساً عزيزتى، كنت أنتظر هذا اليوم، وكنت على يقين من أنه سيأتى"، ولم أدرك كثيراً ما كانت تريد أن تقول لى، ثم أشارت إلى الغرفة التى تقع فى نهاية المنزل، إلى جانب المطبخ، تلك الغرفة التى كان لها مخرج إلى سلم الخدم؛ وفى هذا المكان، كنت قد وضعت حقيبتى ومذياعى القديم وكل ما أملك، ولم تطرح على السيدة أسئلة، فعلتُ كل ذلك على الفور كما لو كان ذلك أمراً متفقاً عليه بيننا، كما لو كنت أقيم لديها منذ أشهر وأعوام. كان ذلك الأمر مريحاً لى من حورية؛ وحتى مارى هيلين كانت مُخفية، كانت تريدُ أن تعرف كل شيء فى حياتى وتتدخل فيها؛ ولم أفكر حتى فى نونو آنذاك، فحتى هو كان يسجننى فى شبكة صيده، كان يود أن يخرج معاً، ويريد أن أقبله خطيباً لى، وكان عطوفاً علىّ وله بسملة طيبة، وكنت أسرح معه كثيراً، ولكننى كنت أخشى أن تلتقطه الشرطة لأنه كان كاميرونيا لا يحمل مستندات شخصية، وكان لدى إحساس أنه، إن آجلاً أو عاجلاً، سوف يُقبض عليه فلم أرد أن يقبض علىّ معه.

وفي منزل هذه السيدة كانت السكينة، وهناك، كنت على يقين أنه لن يحدث شيء، فلقد كان منزلها يقع في حي هادئ، في شارع صغير منحني، به منازل صغيرة لها حدائق، وكانت المباني مباني أثرياء، وكان هناك أطفال شقراء يرتدون ملابس موحدة، فلم يكن للشرطة أن تأتي وتمسكوا هنا. في البداية وبعد إقامتي في باسي، كنت أنام طول الوقت، وكان يبدو لي أنني لم أقم منذ سنوات، ذلك أنني كنت أعيش تحت وطأة الهروب، أو كنت أخشى أن تقبض علي شرطة زهرة، وفي شارع جان بوتن، كانت مشاجرات السود، والآنسة ماير، والعصابات الملقبة "بالبانك"⁽¹⁶⁾ والتي كانت تهزول في الأزقة مسلحة بالعصى كي تضرب العرب، وكانت هناك أيضاً صفارة البوليس التي كانت تنطلق غالباً، وصوت عربات الإسعاف المبحزن.

أما الآن فأنا حتى التاسعة أو العاشرة صباحاً، وفي بعض الأحيان، كانت السيدة تيقظني، كانت تجذب الستارة، لينزل ضوء الشمس بين جفوني، وكنت أرى من خلال النافذة الكرم الأحمر، وأسمع العصافير تُرقِّقُ، فأجلس كالكرة على الفراش حتى أواجه لحظة نهوضي، في حين أن السيدة كانت تجلس على طرف الفراش تمرر برفق راحة يدها على وجنتي كما لو كنت قطاً صغيراً. حتى صوتها أيضاً كان يداعبني، فكانت تلفظ بكلمات عذبة جداً تندرج كالحلم، وتقول: " لا تتحركين يا عزيزتي، وظلي هكذا،

(16) هي مجموعة من الناس الذين يعرفون بمعارضتهم للنظام الاجتماعي بشكل دوري

هنا منزلك، دعيني أهدهدك، إنك ابنتى الصغيرة، أنتِ الابنة التى كنت أنتظرها، فدعيني أذود عنك، ومعى لن تخشى شيئاً، سوف أعتنى بك، فأنتِ ابنتى، يا طفلى الصغيرة...". كانت تقول كلمات كهذه بالقرب من جسدى، فى أذننى وأشياء أخرى بصوتها الأجلج الحنون، وكانت يديها الدافئة الجافة تنزلق على وجهى وتداعب شمرى فى رقبتى، وكانت تخلل أناملها فى قرطى؛ ولا أعرف إن كنت أحب ذلك، فلقد كان أمراً غريباً، كان بمثابة حلماً ينبسط، فيبدو لى أنسى أتموج فوق غيوم، وكنت أرتعش وأشعر بموج يتجول فى ظهري، ويصعد بطنى، وأشعر بكل عصب فى جسدى، من أقدامى حتى يدي، ولم يكن بوسعى أنتحرك، فكنت أنام فى هذه الحالة، وعندما كنت أفتح عيني ثانية، كنت أرى النهار ساطعاً تكون السيدة قد مضت إلى عملها، حينئذ كنت أنهض وأذهب إلى صالة الاستحمام وأخذ حماماً منعشاً لكى أستيقظ.

لم أعد أذهب بعيداً من أجل قضاء المشتريات، فالآن أخشى أن أفقد هذا الحى، وأخشى أن أبعد عن هذا الشارع الهادئ، فلا أرى ملامة الرقم "8"، فكنت أذهب إلى متجر الخبز فى طرف الشارع، وبالقرب من محطة المترو، كنت أشتري الفاكهة والخضر والجبن، ولهذا كانت النقود لا تكفى، وحتى لا أطلب من السيدة، كنت أنفق من مدخراتى الخاصة، فلقد كنت أظن أن السيدة فروماجا جعلتنى أعمل لديها لأننى حاذقة وأننى أعرف الشراء، ولم أرد أن تعلم عنى أننى أصبحت كسولة، وأننى لم أعد أدخر لها؛

إلى حد أنني - ولرات عديدة - لم يعد لدى النقود الكافية للشراء، فسرقْتُ أشياء، علب سمك السيمون المحفوظ، وبسكويت ومساحيق غسيل للمنزل، فلم أقتد خفة يدي، وكنت ماهرة دوماً، وكان تجارُ الحي سُدجُ، فلم يكونوا على حذر مني. مرة واحدة فحسب، تعرضتُ لمشكلة، لم أدرك على التو ماذا حدث، ولكن تركَ هذا الأمرُ لدى انطباعاً غريباً كما لو كان هناك سرّاً أو مَعْناً سرياً لم أتوصل إلى فهمه: كانت هناك بائعة من بائعات المتجر الصغير، شابة عظيمة الهيكل، شعرها مُصفرٌ، عندما مررت من أمامها نظرت إلى بإيمان، وظننتُ أنها رأتني وباغتتني وأنا أهم بسرقة طفءة تبغ، فأخرجتها من جيبِي حتى أدفع ثمنها، ولكنها قالت وبمِطْن شديد مركزة على كل كلمة: "إِذَا، أَنْتِ الجديدة؟"، فتمتمت: "الجديدة ماذا؟"، فأمعنتُ النظر في بعينيهما الشاحبتين الباردتين، وقالت: "نعم، نعم أيها القلب الجميل"، ووضعتُ كل شئ في الحقيبة ومدتها إلى دون أن تأخذ مني نقود، فسررت مهرولة لثلاث تلاميذي.

وفي بعض الأحيان، كنتُ أهتف إلى حورية بعد الظهر، وحتى تمرر لها الأنسة ماير الكالة التليفونية، كنت أقول لها أنني أهتف من مكان بعيد، من إنجلترا أو أمريكا، فكانت تقول "أحقاً؟" بصوتها الزماری المنخفض، وبعد لحظة كنت أسمع صوت حورية الخفيض الأجنس، وكاننت تحدثني بالعربية وأجيبها بالفرنسية.

— أين أنت؟

— فى باريس وليس فى أمريكا.

— متى ستعودين؟

— لا أعرف، أسمعى: أننى منهكة فى عملى.

— أواه.

— بلى، أؤكد لك ليس لدى مطلقاً الوقت، ثم أننى بعيدة فى الطرف الآخر من المدينة.

— أواه، أواه.

— لماذا تقولين أواه، أواه، ألا تصدقيننى، اسمعى سوف آتى كى أراك متى استطعت أن أفرغ نفسى، أليس لديك حاجة إلى شئ؟ هل مازال لديك نقود؟

— حسناً، مازال هناك القليل.

— يجب أن أتركك الآن، سوف أحدثك ثانية.

— لماذا تكذابين على؟ لن تأتى حتى موتى.

— اسمعى أنا لا أكذب عليك، لن أستطيع أن آتى الآن. سوف أحدثك

ثانية.

— حسناً.

— إلى اللقاء.

كنتُ فى خذى من نفسى، فلقد كانت نصف ساعة فى المترو تكفى كى أكون هناك مع حورية، ولكن لم يكن هناك من سبب سوى أن فكرة

الدخول إلى شارع جان بوتن كانت تجعلنى أتقيأ، فلقد كان ذلك بمثابة حائطاً يفصلنى عن هذا المكان.

جاء نونو إلى ذات صباح، لا أعرف كيف عرف المكان، أظنه قد انتزع الإجابة من أنف مارى هيلين، رغم أنها كانت قد حذرتنى منه، أو يكون على الأرجح قد استفهم عن المكان من المستشفى، فعندما كنت ماضية لقضاء المشتريات، وجدته. على الأرجح أنه أنتظر لوقت طويل بزاوية باب مرتدياً قميصه الجلودى فحسب فى برد الخريف، فكان ينفخ، وكان مزكوماً، وبدت عليه السعادة حين رآنى، ولم يكن بوسعى أن أصرفه، فلقد كان خائفاً. قال: " لقد تغيرت "

— أحقا ؟ إلى الأفضل ؟

فضحك وقال: " يبدو عليك الآن أنك امرأة ".

كان ذلك بسبب الملابس التى كانت السيدة فروماجا قد ابتاعتها لى ؛ بنظراً لونه أسود، وقميصاً من الصوف على هيئة حرف فيه⁽¹⁷⁾، ووشاح أحمر طوقت به رقبتى.

أظن أننى كنت فى هلع من مقابلة أحد من حياتى الأخرى، ولكننى كنت مندهشة لأننى فى الواقع كنت فرحة بلقاء نونو.

(17) وهو ما نقول عنه فى اللهجة المصرية وبعض اللهجات العربية على هيئة رقم 7.

اصطحبني أثناء إجرائي للمشتريات، وكان يحمل العلب، فلقد كانت مذاكبه عريضة ورقبته سميكه، وكان وجهه وجه طفولي، وكنت مذهشة من حجمي أمامه، فكان يبدو لي أكثر قصراً مني. رآه التجار لطيفاً، فكانوا يمزحون معه، وكان هناك من قال لي: "أهو أخ لك؟". وللمرة الأولى منذ عدة أسابيع، كنت أمزح، وكانني أخرج من حلم.

قال لي نونو بعض الأخبار عن شارع جان بوتن: الأنسة ساير في متاعب، فلقد دخلت الشرطة إلى منزلها، فلأنها لم تصرح بكل سكان الكوخ، هددتها الشرطة بدفع غرامة، وقال نونو: "كانت العجوز الشمطاء تبكي وتقول: إن ذلك ليس خطئي، هؤلاء السود يشبه بعضهم البعض الآخر، فأنا لا أعرفهم" وقلت له: "وخالتي".

كنت ألقب حورية كذلك، وكانت لا تقول شيئاً، كانت توارب غرفتها وتغلقها على الفور، فلقد كانت تخشى الشرطة، وتظن أنه سيتم القبض عليها وإرسالها إلى زوجها، بيد أن العسكر كان همهم الأفارقة، أما نونو فقد هرب من السقف، ولهذا السبب جاء إلى هنا. قلت لنونو:

"وأي تقيم الآن؟"

فالتفت نحو المدينة الأخرى، كما لو كان من الممكن رؤيتها من المكان الذي كنا فيه، وقال: "أعارني صديق مبيت سيارات، وهناك أنام فيه..."

— "وأي يكون ذلك؟"

فتأمل، وقال: "إنه أسم غريب، يسمى شارع جافلو"، ثم اظهر لي طرف ورقة حيث كان مدوناً على عجل: "28 شارع جافلو"، فاعتقدت أن ذلك اسم محارب كامبيرونى. وقال نونو: "فى الليل، تمضى الأمور على ما يرام، أما فى النهار فالأمر محزن جداً، فأذهب لتدرب فى المعهد الرياضى، لأننى سوف أشارك فى بطولة الشهر المقبل، ويقول مدربى أنه سيكون بوسعى أن أمتحن لعبة الملاكمة، وسيعطينى كل الأوراق اللازمة للإقامة".

عندما عدنا إلى المنزل رقم "8"، أدخلت نونو حتى يحتسى القهوة، فكان معجباً بهيئة المنزل، وكان يسير برفق كما لو كان يخشى أن يقرقع أرضية البيت، عبرنا الصالون حتى المطبخ الضخم الأبيض، وكانت دهشته تسرنى، فلقد مرقت منذ وقت طويل بيوت الأثرياء، فبعد فيلا السيدة دلاهاى، لم يبدو أى شئ خارقاً، أما نونو فقد كان كالأطفال أمام اللعب الجديدة، فكان يتفحص ماكينة القهوة الكهربائية، وحماسة الخبز، ويشد الأدرج التى تسير على كرات، وكان يدور السلال الغير قابلة للصدا، ويقول: "حقاً هنا الثراء".

... "أبحق يعجبك ذلك؟"

فضحك ضحكته البراقة، وقال: "هذا أفضل من مبيعات السيارات الذى أقيم فيه"

وضعت زراعى حول رقبتى، وقلت له: "إذا ما غدوت ملاكاً شهيراً سيمكنك أن تشتري منزلاً مثله فتأمل وقال: "إذا ما حدث ذلك، سوف أتزوجك أنت".

كان يبدو عليه الجد إلى حد أنني انطلقت في الضحك، وقلت له: "توقف عن خداعك، عندما تصير ملاكماً شهيراً، ستفكر في أن تتزوج من عروس جميلة شقراء"، فنظر إلى في عتاب، وقال: "لماذا تقولين ذلك، سوف أتزوج منك أنت".

اعتاد نونو أن يأتي كل صباح تقريباً عدا أيام عطلة نهاية الأسبوع، ذلك أن السيدة فروماجا كانت تبقى في المنزل، وكان يساعدني في حمل المشتريات وكنت أعد له وجبة إفطار بالبيض ومزبدات محمصة وأكواب كبيرة من الحليب الساخن.

لم تكن السيدة فروماجا تقول شيء، ولكن على الأرجح أن شخصاً ما قال لها ذات يوم عن شيء ما، ذلك أن وجهها تبدل وأصبحت عنيفة وشريرة معي، فكانت تزجرني إذا ما قلت لها نعم أو لا، وكانت تعود فجأة فيبدو عليها الغضب كما لو كانت قد نسيت شيء، حزمة مفاتيح أو ملف أو شيء، ولكنها كانت تفعل ذلك حتى تعرف إن كنت مع نونو في المنزل، فأدركت ذلك الأمر على الفور، وقلت لنونو ألا يأتي إلى المنزل وأن ينتظرنني في الشارع، فسخر مني قائلاً: "إن سيدتك غيورة".

ضايقني ذلك الأمر، بالرغم من أنه أصبح كذلك، وكان لدى إحساس أن شيئاً ما يتم تدبيره، ولم أكن أعرف ما هو. وفي غضون هذه الفترة، سلمتني السيدة فروماجا خطاباً هامضاً. كان مدوناً في أعلاه: "الشرطة القومية. مكتب شرطة الدائرة السادسة عشرة"، وكان ذلك استدعاء لي بغرض

تسوية حالتي، وكانت السيدة فرومجا تعرف ذلك الأمر، فدبرت كل شيء، إذ كانت صديقة لمدير مكتب الشرطة، فقدمت شهادات الإقامة وإقرارات على الشرف، وكان كل شيء مُعد. تظاهرت بأنها تحاول أن تُدرك الأمر، فقالت: "أظن أنهم سيقبلون طلب تسوية حالتك، ثم سيكون بإمكانك الحصول على الجنسية"، فكنت كالصعوبة، ولم أقدر على قول: "ولكنني لم أطلب شيئاً"، ثم تذكرت زهرة وزوجها وشقتهم، حيث كانوا يسجنونني على مدار أشهر، ودوار تبريكة، والفئران التي كانت تعدو على السقف وتحصدُ صوتاً بمخالبها على الصفيح، قتلت شكراً "لسيدتي، فعانقتني.

عندما عدت من مكتب الشرطة، بشرتي محمرة، بداية بسبب الطقس الذي كان حاراً، ولأن المُستخدم في مكتب الشرطة كان ملاطفاً كثيراً تجاهي، فاستوجب الأمر أن أقص عليها كل شيء، الأوراق التي وقعت بها والبصمات الإصبعية، والإملاء⁽¹⁸⁾ وقصة اسمي الذي كان قد اختاره لي المُستخدم: ليز هنريت، فلقد رأى أن ذلك الاسم يناسبني. ضحكست السيدة فرومجا وضربت يديها، وكانت متحمسة وكأن كل ذلك كان لها هسى. وبإلطبع، لم أقص عليها حكاية المُستخدم الذي مال إليّ، واضعاً يده فوق عنقي، ثم سألتني برفق: "كيف نقول كلمة أحبكِ بالعربية؟"، فأجبتُه "كفى..."⁽¹⁹⁾، وهي أغلظت كلمة كنت

(18) من بين شروط الحصول على الجنسية الفرنسية إجابة الإملاء. (المترجم)

(19) الكلمة التي وردت في النص الفرنسي هي saafi وهي كلمة تاريجة تُستخدم في العربية

المغربية (صافي) لحث المحاور على التوقف عن حديثه. (المترجم)

أعرفها، لأنها كانت الكلمة التي تصيح بها حورية في وجه الرجال الذين كانوا يضايقونها في تهربكة. ولم أقص عليها ذلك لأنه لم يكن بوسعها أن تدرك ما أقول، وكانت لن تدرك كم كان الأمر سيان بالنسبة لي، فلقد حدث في وقت متأخر للغاية، وأنه ما كان لي أن أمنح هذه الأوراق، بل كانت هذه الأوراق ينبغي أن تُعطى لحورية.

رقت السيدة قليلاً وقالت لي: "لا ترحلي؟ قولي لي أنك لن تتركيني أقع على الأرض"، كانت تتحدث كحورية وتغادير، الناس كلهم متشابهون. كان من الممكن أن أمكثُ معها كثيراً، وكان من الممكن أن أبقى معها حتى هذه اللحظة، لو لم يحدث ما حدث تلك الليلة، وأعتقد أنه حتى لو أنني لم أصير في هذا الوضع الجديد، وحتى لو لم يحدث هذا الشيء، كنت سأمضي أيضاً الليل معها. وجدت صعوبة في فهم كيف تم ذلك الأمر؛ وبعد العشاء تحدثنا سوياً. منذ وقت قليل وأنا أشغل معها السجائر الأمريكية ونحن نتحدث؛ كنا نشاهد قليلاً التلفاز بطرف أميننا دون أن نوليها اهتماماً حقيقياً، وكان الطقس لا يزال حاراً، كان ذلك في نهاية سبتمبر، وكانت نوافذ المنزل منفرجة على أشدها، وكان هناك قليل من المطر يتساقط على أوراق الأشجار، وكان كل شيء هادئاً في شارع مريونييه، ولم يكن يتصور إنسان أن أشياء مخيفة تحدث في مدينة كبيرة جداً مثل هذه.

أعدت السيدة فروماجا كوب شايبا المسائي، ووضعة فيه أوراق وزهور بمذاق القفل والفانليا المنفرة قليلاً، واستلقيت على الأريكة، وكان

لدى إحساس بأننى أتموج، كلاً لم أكن نائمة، ولكننى شعرت بجسدى خفيف جداً، ولم يكن بوسعى أن أحرك ذراعى ولا ساقي، وكان يبدو لى أن وجه السيدة دان منى، براقاً كالنجم، وضحكاتها غريبة، وكانت عينيها السوداويين المتدتين تشبهان عين قطرة؛ كانت تتحدث وتكرر يعذوبة: "يا طفلى الصغيرة!، يا طفلى الصغيرة!" كما لو كانت تمؤ. أحسست بيدها الجافة والحارة تتدحرج على جلدى من خلال قميصى المفتوح، وأخذت تمبث فى أزرة تدي، فكان قلبى يندق ويثطم، وكنت أنصت إلى صوتها الذى كان يخرخر قائلاً: "يا طفلى الصغيرة!"، وأردت أن تتوقف وأن تصمت وأن تختفى، أردت أن أعود إلى مكان لا يكون فيه أحد، كنت أبغى دار المقابر التى كنت أذهب إليها أمام البحر، عندما كانت الشمس تسبق فى النصب التذكارى، فى العشب، النصب التذكارى التى لا تحمل اسماً، والعصافير المعلقة فى الريح بأجنحتها الحادة المشابهة للمناجل الكبيرة.

عندما استيقظت فى الصباح، كان فى جافاً وكنت أشعر بألم فى وجهى، ولم أتذكر جيداً ما حدث، فلقد نمت على أريكة الصالون وتدثرت بقميص حمام السيدة المصنوع من الحرير اليابانى وما أزعجنى بداية، هو رائحة الجلد الروسى التى كانت تصدع رأسى، فجلت هنا وهناك عبر المنزل الخالى مصطمةً بالأثاث، ولم أكن أعرف عما أبحث، فلم يكن بوسعى أن أفكر فى شئ. أعددت الماء الساخن لقهوتى، ثم دخلت الشمس إلى المطبخ، وفى

الخارج كان الجو رائعاً، فالكرمة الخالية من الثمر أخذت تصهب من خلال إطار النافذة، وكانت هناك مجموعة مؤلفة من عصفير السدوري تعقق.

وفجأة، وبينما كنت أحتسى قهوتي، أصبح كل شيء واضحاً أمامي: ينبغي عليّ أن أرحل عن هذا المكان، وكنت أشعر بقلبي يدق بشدة، وكان ألم جبھتي يشتد، وعدت للخلف فقلبت مقاعد، وكنت أردد: "العجوز الشمطاء! العجوز الشمطاء!" مثلما كانت تقول ماري هيلين عندما كانت تتحدث عن الآنسة ماير.

الآن أتذكر ما كانت تقصه عليّ لالا أسماء، فلقد كانت تقول: لا تشربي من شاى شخص لا تعرفيه لأنك بهذا تشربين شيئاً لا تريديه"، وكانت تحدثني عن رجل كان يدعو الفتيات لاحتساء القهوة ويجملهن تشربين دواء حيوانات، وعندما كن ينمن، كان يحملهن لديه ويغتصبهن ويقطع رقابهن.

وتذكرت الشاى الذى كانت السيدة تعده لي وعينيها السوداوين اللتين كانتا تبرقان بينما كنت أترنح برأسي. بالأمس، على الأرجح، أنها أكثرت من دواء البروهيبينول ففقدت الذاكرة، كنت أمقتها، فلقد خدعتني، ولم تكن صديقتي، بل كانت شخصاً ما كالآخرين، مثل زهرة والسيد دلاهاى ومثل المستخدم فى مكتب الشرطة، فكنت أبغضها، وكان من المفترض أن أقتلها، "الغبية، الغبية العجوز".

ارتديت ملابسى، الجينز والقميص الصوفى الذى جئت به، ثم ألقيت بلا تريث كل ما ابتاعته لى السيدة فروماجا: السلسلة الذهبية الصغيرة مع الشارة التى حُقر فيها اسمى، وألقيتها فى المرحاض وجذبت طرادة الماء، ولكن نفيير المياه لم يفلح فى ابتلاعها، ثم بحثت عما يجب أن أفعله كى أنتقم لنفسى، ولم أرد أن أسرق شئ، لم أرد أن أخذ أى شئ من عندها، وأردت فحسب أن أمحوها من ذاكرتى، هى وزرائعها. ذهبت إلى مكتبها، وشرعت فى إلقاء كل كتبها على الأرض، وكنت أخذ الكتاب من على المكتبة، وأنظر فى العنوان، ثم ألقيه فى وسط الغرفة، ثم أصابنى جنون، فبضيت فى تطهير الكتب تدريجياً بسرعة، فأحدث ذلك ضوضاء شديدة، ضوضاء أوراق تتصزق، وكانت الكتب تصطدم بالحوائط. فعلت نفس الشئ فى صورها وفى خطاباتنها وفى أوراقها، وأظن أننى كنت أتلفظ بكلمات فى ذات الوقت، كنت أصرخ وأسبها بالعربية، وبالفرنسية وبكل ما أعرف، فجعلنى ذلك على ما يرام. عندما فرغت من هذا الأمر، أصبح مكتب وصالون السيدة يشبهان حقلاً بعد إعصار، وحينئذ أخذت حقيبتى ومذيعى القديم ورحلت.





كان شارع جافلو بمثابة المكان الأكثر غرابة في مدينة باريس؛ ففي البداية لم أصدق أنه موجود؛ وعندما جاء نونو يستقل دراجته النارية ليبحث عني (أو بالأحرى بالدراجة التي استعارها) ثم دخلنا تحت الأرض، ظننت أنه يأخذ طريقاً مختصراً وأننا نعبر نفق، ولكن الشارع كان مستديراً تحت الأرض في رواق مبني بالخرسان، تقع على جانبيه أبواب مبيت السيارات، وكان صوت الدراجة يدق كالجحيم؛ وكانت هناك سيارات تسير فيه مشعلة فوانيسها مستخدمة منبهاتها. وبسبب ما حدث، كنت منهكة، فالتصقت في قميص نونو، وانتابني إحساس بأنني مشردة، فلم أعد أعرف إلى أين أذهب وماذا سيحدث لي، و أظن أن دواء الروهيبنول لم ينتهي تأثيره بعد حتى هذه اللحظة.

بعد ذلك، هويت طريحة الفراش؛ وكانت شقة نونو الكائنات أسفل الأرض صغيرة، ولم يكن بها ضوء على الإطلاق، اللهم إلا شعاع يمر من خلال جُب فيصل حتى المطبخ؛ وفي الواقع لم تكن بشقة، إنما كان مبيتاً للسيارات أو قبواً تم تهيئة مرحاض فيه لكل الدور تحت الأرضي وكذلك مطبخ. أما بقية المساحة، فكانت موزعة إلى خلايا من الأسمنت بها أبواب ثقيلة من الحديد المخطط بالخدش وأسقف من القُنب، ولكن ذلك كان شيئاً حسناً بالنسبة لنا، لأننا لم نكن نستمتع إلى الضوء، إلا صوت شبكة المجاري من آن إلى آخر، أو صوت مراوح التهوية. لم أكن أدرك ماذا ألم بي، فظننت راقدة طول الوقت تقريباً على الفراش الذي وضعه نونو في غرفته من أجلني وحدي؛ أما هو فكان ينام في الصالة. كان ذلك بالأحرى مبيتاً للسيارات، أرضيته الأسمنتية مطلية بلون رمادي، وعليه باب كبير بمصراعين. فضلاً على ذلك، كان يسود فيه دراجته، وكان ينام على الأرض على فراش من الكرتون الورقي. كان نونو عطوفاً، فلقد أعطانى غرفته، وكان يأسف لرؤيتي في حالتي هذه جامدة على الفراش؛ وكنت أشعل القليون، ثم أسعل. كنت خائفة القوة، ولم أكن أقدر حتى على تحريك ذراعى أو على أن أدير رأسى؛ ولم أعد أتناول الطعام، فلم أكن أشعر بالجوع على الإطلاق. ففى بعض الأحيان كان الرضيب يملأ فمى، فكان على أن أميل إلى جانبيه حتى أبصق، ولم تكن الدورة الشهرية قد أتتني بعد، ولقد حدث كل ذلك وكأن كل شئ توقف فى داخلى.

كان نونو يقول إن ذلك قدرٌ، كان يبدو عليه أنه يدرك أمرى، قال لى ما يجب فعله: إلقاء الملح فى النار، وضع ريش أو قذاة، رسم علامات على الأرض، النفخ فى الدخان، فكنت أستجيب لكلامه، وأصدق أى كلام يقوله وأى ضحكة يطلقها، فلقد كان هو الشخص الوحيد الذى يربطنى بالعالم. عندما كان يعود من التدريب، كان يشتم الشارع، المرق وغاز الدراجات، فكنت أمسك بيده، يده الربعة بأناملها القاسية وجلد كلية يده الناعم كالأكرة المستنفذة وأقول له: "قص على كل ما رأيته بالخارج، وكل ما يحدث فى الشوارع"، فكان يقول لى أنه رأى حادثة، أو أن شاحنة اصطدمت بسيارة بالية فاقتلعت جناحها، وكان يقص أنه رأى اسكوتلنديين يعزفون مزامير القربة، وأنه رأى مارى هيلين، وكان يأتينى بأخبار عن شارع جان هوتن، وكنت أسأله: "وخالتي حورية؟"، فكان يهز رأسه ويقول: "لم أراها، ولكن يبدو أن السيدة فرو..." ولم يكن يقدر على ذكر الاسم، فلقد كان ذلك يضحكه، ويستطرد: "ربة عملك، يبدو أنها تبحث عنك، إنها تحنق عليك حتى الموت، إنها هى المعجوز الشمطاء التى ألقت اللعنة عليك، سوف أقتلها". لم يقل نونو لأى شخص حتى لمارى هيلين أنسى أقيم لديه، ولو أن السيدة كانت قد عثرت على لألقتنى من باب فرنسا وكأنى مجرمة، رغم أننى لم أسرق منها أى شئ، بل هى التى سلبتنى شيئاً ما وكذبت على.

كانت تأتينى كوابيس فى نومى، ولا أعلم إن كانت تأتى فى الليل أو فى النهار، فكنت أرى أننى فى بطن حيوان كبير يهضمنى بهبطى، وذات

يوم، صحت وجاء نونو، فداعب طالعي، وكان يحدثني برقة كأنه يحدث طفلة، وعندما أراد أن يعود إلى كراتينه، مسكته وضممته إلى بقدر ما استطعت، فشعرت بعضلات ظهره كأنسها أحبال، اتجه إلى وأطفأ المصباح، وكنت أطوق كل جسده، وكان يرتعش ولم أعرف لماذا، فبدأ لي ذلك الأمر غريباً، فهو يرتعش ولست أنا التي ينتابها خوف، ولم تفعل شيئاً هذه المرة، رقدت فقط وجهي إلى وجهه؛ ولم يكن نونو يتحرك، فلقد طوقني بذراعيه وراح يتنفس في رقبتى. وذات مساء، ضاجعني برفق، ثم اعتذر لي وقال: "هل آلتك؟"، وكانت هذه هي المرة الأولى بالنسبة لي، ومع ذلك لم يدهشني ذلك الأمر، فلقد كان لدي إحساس بأنني أعرف ذلك منذ وقت طويل جداً.

ثم مضى كل شيء يتحسن قليلاً في حياتي، فأخذت في التحرك من فراشي، وذهبت إلى للمطبخ، ثم سألت نونو ساعة الإفطار: "هل الطقس جيد؟" فرد: "انتظري سوف أذهب كي أرى"، ثم دفع المنضدة الصغيرة، وفتح كوة الباب، وتمكن ثانياً جسده من إخراج نصفه حتى الجُنب الذي كان يجلب شعاع الضوء، ثم عاد والعرق على قميصه وقال: "السماء كلها زرقاء"، وأراد أن أصدق معه فوق دراجته كي نمضي لنقوم بجولة.

عندما عاودت الخروج إلى الشارع للمرة الأولى، صعدت السلم الواقع بجوار باب مبيت السيارات، ثم الصعد الكهربائي وصعدت حتى أعلى المبنى. كان ذلك في الصباح، فلقد مضى نونو إلى صالة التدريب، وكان كل شيء ساكناً، اللهم إلا الهزة في كل طابق من المبنى، وصعدت عالياً حتى الطابق الرابع

عشر؛ كان هناك مكاتب و شركات تأمين و محامون وشركات سفن، أو شيء من هذا القبيل؛ دخلت إلى المكاتب، ودون أن أتوقف، سرت حتسى الزجاج الكبير، فرأت الكاتبات هذه الفتاة السوداء فى كومة شعرها وفى بنطالها الجينز البالى ونظراتها المصوبة إليهن، فانتابهن خوف شديد، وأظن أنه للمرة الأولى أدركت أنه يوسعى أن أخيف إنساناً .

اتكأت إلى الزجاج ونظرت؛ ولدة لحظة، ظلت متجمدة من الدوار الذى انتابنى، فلم أكن قد رأيت فى حياتى قط مدينة أعلى من هذه المدينة؛ فلقد كانت هناك أسقف ومبانى وشوارع عريضة لا يدركها البصر، وميادين وحدائق، وأبعد من ذلك التلال، وحتى تعرج النهر الذى يتألاً فى الشمس؛ كان ذلك مشابه لأعلى الشلال فى دار المقابر أمام البحر مع ظهور النورس التى تحلق فى واجهة السماء. كان هناك دخان وهياكل سيارات تتألاً صغيرة كالجعران. أحدثت فى الضوضاء دواراً، دوى صامت ومستمر يصعد كل شيء فى آن واحد تخترقه أجراس تنبيه سيارات وصفارات إنذار الشرطة وعواء الإسعاف. كانت يدي موضوعة على الزجاج السميك، ولم أستطع أن أبعد نظرى عما أراه. كانت السماء تعبها سحابة كبيرة سوداء، وكانت هناك أشعة الشمس فى جانب وقطرات المطر فى جانب آخر، وأقسم لكم أننى لم أر منظراً أبعد من ذلك.

سمعت صوتاً خلفى، صوت أن قليلاً، فكانت هناك امرأة تقول لى بركة: "آنتسى، آنتسى، ألا تشعرين أنك على ما يرام؟"، ولكننى لم أفهمها

على الفور، التفتت، ونظرت إليها ضاحكة، وكانت هناك دموع في عيني لأنني أحسست أنني سعيدة فجأة، وقلت لها: "كلا تمضي الأمور بخير، تمضي الأمور بشكل حسن للغاية، أنا، أنا أردت أن أستمتع بالمنظر"، ولم تسكن من روعها ابتسامتي، على ما أظن، ذلك أنها تباعدت. كانت شابة، شاحبة، شعرها طويل أشقر، وعيناها خضراوين. كان بصحبتها نساء أخريات، إحداهن بدينة قليلاً وأخرى تشبه السيدة فروماجيا، ومن المحتمل أنهن قد استدعوا الأمن لأنني عندما خرجت من المكتب نحو المصعد الكهربائي، فتحت الأبواب المعدنية، فخرج رجل يتفحصني بتمعن، كان يرتدي زياً أزرق اللون، ويحمل أصفاداً على زناره، ثم دخلت المصعد وأغلق بابيه. كنت متعبة، ثملة قليلاً، وعندما بلغت مبيت السيارات في الطابق تحت الأرضي، تمددت على الفراش، ونمت قسماً كبيراً من النهار، حتى أن نونو، عندما عاد من صالة الملاكسة، لم يوقظني. نظر إلى وأنا نائمة، جلس وظهره متكاً إلى الحائط دون أن يحدث ضوضاء كما لو كان أخى الأكبر.

بعد ذلك، عاودت الخروج، ولم أنقبه إلى أنني كنت سجيناً طوال هذا الوقت. في الخارج، كانت السماء شاحبة وكانت الشمس تدلف أسفل الغيوم، وكان الطقس بارداً حتى الأشجار على حافة نهر السين تغيرت، فأوراقها الصفراء كانت تسقط مع الريح.

فكرت في حورية، و ما إن تمكنت من السير، ذهبت سيراً على
الأقدام في اتجاه جارد دي ليون⁽¹⁾، وكنت أشعر بالبرد، فأعارني نونو قميصه
الجلدي العريض كثيراً من على المنكبين، وكنت أحسب كثيراً هذا القميص،
فكنت أشتم فيه رائحة نونو، وكان بالياً من على الأكواع، وكان لدى إحساس
أنه يحميني كنوع من الآلات الواقية.

كان شارع جان بون على حالته المعهودة عنه دوماً، حتى أنه كان
يخيل لي أنني رحلت عنه بالأمس فقط: الفسائق البائسة، أكياس القمامة،
العصايات، وفي نهاية الشارع، قبل الطريق المسدود، يقع باب المبنى في
حديده الأسود وزجاجه القذر. طرقت الباب، ثم جاء رجلٌ أسودٌ لا أعرفه
ليفتح لي الباب، كان قصيراً ونحيفاً، به لحية صغيرة، ونظر إلى دون أن
يقول شيئاً، ثم أتجه نحو المطبخ حيث كان يغسل الأواني. كانت ماري هيلين
تحتفظ ببرجال في خدمتها، وكان باب الآنسة مائير موارباً والضوء مشعلاً،
فعبثت المر دون أن أحدث صوت وطرقت باب الغرفة.

عندما جاءت حورية نحوي، وجدت صعوبة في التعرف عليها،
فأصبحت بدينة جداً، وكان^{هناك} ازرقاق دائري أسفل عينيها، ولكن طالما
توهج لرؤيتي، وقالت لي: "كنت أنتظرك، رأيت في نومي أنك ستعودين
اليوم"، كان ذلك هو ما تردده دوماً، فقلت لها: "أترين، ها أنا أتيت إليك".

(1) من كبرى محطات القطار في باريس. (المترجم)

لم تسألني عن شيء، ماذا فعلت، وأين ذهبت، فربما بالنسبة لها، هي المروعة في أعماق هذه الشقة، الوقت لم يكن يمر بها بسرعة، وقالت: "كنت أنالم كل يوم، وأقول لنفسى كل يوم: هل ستأتى اليوم، هل ستتهلف لى؟"

فى خلال بضعة دقائق، جمعت كل الأشياء، وضعت الفسيل فى الأكياس، الأدوية، علب الخرطال، وكل شيء، وكانت حورية متوجسة كثيراً من الخروج لأنها منذ شهر لم تُسد الإيجار، أما أنا، فلم أعد أخشى الآنسة ماير، ولا أى إنسان. حينما خرجت، قرعت الباب بشدة حتى أن قطعة جبص من السقف هوت فى السلاالم، وكنت سعيدة، وانتابنى إحساس أن حياة جديدة فى طريقها للبدا. وضعت يدى على بطن حورية وقلت لها: "أيتحرك جنينك؟"، فمشت ببطن متدمرة: "نعم إنه لايتوقف، إنه شيطان صغير".

فى الأيام الأولى بشارع جافلو، كان الأمر بالنسبة لى بمثابة عيد، فلقد كنت سعيدة للغاية للعثور على حورية التى لم أعد أتركها. أحضر نونو آلة صوتية كبيرة وكل مايلزم وتلفاز ملون له شاشة كبيرة، وعندما سألته أين وجد كل ذلك، تحاشى السؤال بضحكته، ثم مننت الموسيقى حواظ مبهت السيارات. ثم دعا أصدقاء أفاقه، وأخذنا نرقص على صوت الشرائط، على إيقاع الموسيقى الأفريقية، الرأى والرجاج والروك، ثم أخرج أصدقائه طبولهم المعروفة باسم دجون - دجون وشرعوا فى دقها، وكانت هناك أيضا آلة موسيقية غريبة، السايزا التى حملها حكيم، رفيق نونو، فى خُرج، وكانت

على هيئة قيثارة منمنمة تحدث صوتاً متدحرجاً عذبا يبدو وكأنه يأتي من كل الاتجاهات في ذات الوقت.

شربنا الكوكا مع عرق قصب السكر والفودكا والبيرة، وكانت حورية تشعل سيجارة من سيجارة وهي تجلس على الأريكة في وضع إنسان منعبد، ثم حاولت أن ترقص كما تعرف وهي تفرغ الأرض بأخمص قدميها، متواركة، لكن بطنها المكتنز وتديها المنتفخ كانا يمنعاها، وللمرة الأولى منذ وصولها إلى هذا المكان، كانت تضحك، فلقد نسيت كل شيء، شارع جان بوشن والعجوز الشمطاء. كانت الموسيقى تصعد من الأرض، وتهز كل حوائط المبنى، وتلق في أعلى واحد وثلاثين طابقا، حتى الشوارع المجاورة، شارع شاتو دي رانتيه، تولبيك، جان دارك، حتى مستشفى السالبتريير وجار دي ليسون. كانت الموسيقى تضع لونا رمليا أحمر على الجدار من أرض أفريقيها، وكان حكيم يعزف، جالساً في ثوبه، مائلاً إلى السانزا، والعرق يتصبب على وجنتيه ولحيته الصغيرة، فكان يبدو عليه أنه ساحر. أما نونو، فكان عارياً تقريباً، لامعاً من العرق، وكان يفرغ بأطراف أصابعه على الطبول، وحورية كانت تفرقع بأخمص أقدامها العارية على الأسمنت مع دقات أسورتها الذخاسية.

كان المصعد الكهربائي معطلا، فأمسكت بحورية على السلام إلى أعلى المبنى حتى الباب الذي يؤدي إلى الأسقف عن طريق سلم الإطفاء الصغير، وكان نونو قد كسر القفل. كان الليل قد جاء، ولكن، في باريس

لا يخيم الليل تماماً، فلقد كان هناك ضوء أحمر يشبه الفقاعة فوق المدينة؛ ثم جاء حكيم ونونو يلحقون بنا، وجلسنا على حصى السقف بالقرب من منافذ التهوية، وأخذ نونو يدق الطبل، بينما كان حكيم يعزف على آلة السنازال. كنا نغنى ونقول: آه، آوه، أهو، أهيه، أهيه، ياوه، يا.. فقط، وبمذوبة شديدة، فلقد كنا في مقتبل العمر، ولم يكن لدينا نقود، ولم يكن لدينا مستقبل، وكنا نشعل الغليون باستمرار؛ ومع ذلك فكل هذا، السقف، السماء الحمراء، نخير المدينة، الحشيش، وكل ذلك، وهي أشياء لم تكن ملكاً لأحد، لكنها كانت في حوزتنا.

ثم كنا نفعل هكذا كل مساء، فلقد كان ذلك بمثابة دار عرضنا المراثية. وفي النهار، كنا نظل مختبئين تحت الأرض كالصراصير، وفي الليل، نخرج من جحورنا، ونذهب في كل مكان، في ممرات المترو، في محطة توليبياك، أو أبعد من ذلك، حتى محطة أوستيرليتز. كان حكيم، رفيق نونو، يبيع بضائع من أفريقيا السوداء: حلى، وعقود وأدوات زينة، وكان يسخر من ذلك الأمر، فكان يقوم به لیسدد مصاريف دراسته في الكلية في جامعة باريس السابعة، وكان يقيم في المدينة الجامعية بانطوني⁽²⁾. كان يحدثني عن جده الحاج ماقوبا الذي كان يعمل قنصاً في الجيش الفرنسي، والذي شارك في الحرب ضد الألمان. وفي ممرات المترو، كل الطنطن يدق كل

(2) إحدى الضواحي الباريسية. (المترجم)

مساءً في محطة بلاس ديتالي، وفي محطة أوسترليتز، والباستي، ولوتيل دي فيل، وكان ذلك يحدث دورانياً في الممرات، صاخباً حيناً كسهبوب عاصفة، وحيناً آخر رقيقاً ومنظماً كقلب يدق.

كنت أعرف كل الموسيقيين، فكنت أنتقل من محطة إلى أخرى، وأجلس متكئة إلى جدار ثم أنصت إليهم. وفي محطة أوسترليتز، كانت هناك مجموعة من الولفز⁽³⁾، وفي سان بول، كان هناك عازفون من مالى ومن الرأس الأخضر⁽⁴⁾، وفي محطة توليبياك، كان هناك الأنثيين والأفارقة؛ وكان كل هؤلاء يعرفونني، فعندما كنت آتي إليهم، كانوا يشيرون لي، ويتوقفون عن العزف حتى يضافحوني بأيديهم، وكانوا يعتقدون أنني أفريقية أو أنثيية، وأني صديقة نونو الصغيرة، وربما هو الذي كان يفخر بأن يقول لهم ذلك.

وفي هذه الفترة أخذت أخرج مع حكيم، فكنت أذهب كي ألقاه في محطة توليبياك أو في أوسترليتز، وكنا نسير في الليل على غير هدى، في الريح الباردة، فنذهب نحو النهر، وكان حكيم يتحدث عن نهر السنغال الكبير، ولم يكن قد رآه البتة، غير أن والده كان قد حكى له عندما كان حكيم طفلاً عن ماء النهر البطئ جداً، وقطارات الرمال التي تنزلق نحو البحر. أما جده الحاج، المكفوف، فكان يحدثه أحياناً عن النهر في كلمات

(3) قبائل يتميز أفرادها بشدة سواد البشرة ويمشون أسنماً في الشمال الغربي من السنغال،

ويتحدثون لغة تسمى لغة الولوف. (المترجم)

(4) دولة أفريقية صغيرة تقع غرب السنغال، ولغتها هي البرتغالية. (المترجم)

دقيقة جداً وواقعية جداً وكان الماء الوحل الأصفر يمر من أمام عينيه وبه زوارق محملة بالنساء والأطفال تحلق أمام مقدمتها طيور القسبر⁽⁵⁾؛ وكنت أتحدث بدورى عن مصب نهر بورجرج، كما لو كان ذلك مشابهاً للنهر الذى يحكى لى عنه، لأنه كان النهر الوحيد الذى أعرفه، وهو الذى رأيته لأول مرة عندما غادرت منزل لالا أسماء، وكنت أصبره كل يوم كى أعود لدوار تبريكة.

كنا نجلس فى المقاهى ونحدث؛ كان حكيم طويلا ونحيفا، أنيقاً دوماً فى حلتته السوداء؛ كان يقص على أشياء غريبة. وذات يوم، حمل إلى كتاباً يبدو بالياً وطالعتُه أعددُ من الأيادى المتسخة بالدهون، وكان عنوانه المعذبون فى الأرض، وكان مؤلفه يدعى فرانتز فانون⁽⁶⁾؛ وقدمه حكيم إلى وقال فى غموض: "طالعيه، ستدركين كثيراً من الأشياء"، ولم يسرد أن يقول لى ما هى هذه الأشياء، ووضع الكتاب على منضدة المقهى أمامى، ثم قال: "عندما تتمين مطالعته، يمكنك إعطائه إلى شخص آخر"، فوضعت الكتاب فى حقيبتي دون أن أسعى لمعرفة المزيد منه.

(5) جمع قبيرة، والتي تعرف أيضا بالقنبرة. (المترجم)

(6) فرانتز فانون Frantz Fanon كاتب مارتينيكى الأصل ولد عام 1925 وتوفى عام 1961، عرفت كتاباته بنزعتها الثورية المناهضة لفكرة الاستعمار، ومن أهم مؤلفاته: "المعذبون فى الأرض" 1961 و "البشرة السوداء" 1952 و "أقنعة بيضاء" 1952 وكتابته "من أجل الثورة الإفريقية" الذى نُشر بعد مماته 1964. (المترجم)

لم يكن حكيم يحب نونو، وكان يقول أنه كالعصفور، يحجل وينهو ويتمطر، وهذا كل ما يمكنه عمله، ولم يكن يحترم حتى مهنة الملاكمة، وكان حكيم يقول أن نونو مختل عقلياً، حُجر في يد الفرنجة أو لعبة، وعندما يُكسر سوف يلقي به الفرنجة في سلة القمامة. كان حكيم يلقيه بالطفيلي لأنه سمح لنفسه أن يقيم عن طريق صديق له، بغضت حكيم، ذلك لأن نونو لا يستحق أن يقال عنه السوء، وكان هناك شيء لم يرد حكيم أن يقوله لي، شيء ما في حياة نونو؛ ولرات عديدة حاول أن يحذرنى منه، فبداية قال لي: "أتعلمين ماذا يعنى أن يكون المرء معتوهاً؟"، فقلت له: "عندما يكسون مجنوناً، أليس كذلك؟"، فأطلق حكيم بسمته الساخرة الشهيرة قائلاً: "إنه جواب ردي ولكن ربما جوهره ينطبق عليه"، ولم يُرد أن يستمر في الحديث من هذا الأمر.

ذات يوم من أيام الأحد، بينما كانت السماء تمطر، اصطحبني حكيم إلى بورت دوريه⁽⁷⁾ حتى نشاهد متحف الفنون الأفريقية، وأظن أنني لم أذهب من ذي قبل إلى متحف.

وفي المتحف، كان حكيم منفعلاً، إلى درجة الهوس، ولم أكن قد شاهدته كذلك مطلقاً. مسك يدي وقال: "أنظري إلى الأقنعة المزيفة"، وكان يتحدث بصوت خفيض قليلاً، ومختلق، ثم استطر: "أنظري يا ليلي، إنهم

(7) على أطراف مدينة باريس. (المترجم)

نسخوا وسرقوا كل شئ: سرقوا التماثيل والأقنعة، وسرقوا الأرواح وسجنوها هنا في هذه الحوائط، كما لو أن كل ذلك لم يكن سوى أدوات زينة، ومجموعة أسلحة، كما لو كانت أشياء تُباع في مترو توليبسك، ورسوم ساخرة، ومواد بديلة"، فلم أدرك جيداً ما كان يقول، وأحسست بيده التي كانت تطبق على يدي كما لو كان يخشى أن أفر منه، وقال: "انظري إلى الأقنعة، يا ليلى، إنها تشبهنا، إنها سجيئة وليس بوسعها أن تعبر عن نفسها، إنها مفزوعة الإرادة، مع أنها في ذات الوقت هي أصل كل ما يوجد في العالم، إنها محفورة في التاريخ عبر الزمن، كان لها وجود بينما كان سكان هذه البلاد يعيشون في الجحور تحت الأرض، وجوههم مسودة من السناج⁽⁸⁾، وأسنانهم مهشمة نظراً لنقص الغذاء"، ثم اقترب من الواجهات الزجاجية وأسند قبضة يده عليها، ومضى يقول: "آه يا ليلى، ينبغي إطلاق سراحهم، يجب حملهم بعيداً عن هنا، ينبغي حملهم إلى المكان الذي سلبوا منه، في أرو شيكو، في ابوميه، في بورجوز، في كونج، في الغابات، في الصحارى، في الأنهار". فجأة، اقترب الحارس منا، مرتاباً من رنين صوت حكيم، ولقبضة يده التي كانت تدق على الواجهة الزجاجية، فاصطحبني حكيم بعيداً عنه، ثم توقف أمام دولاب خشبي معروض فيه أطراف فخار مكسور، أعواد حفر، شئ من مجرفة مصنوعة من الخشب، وقال: "انظري يا ليلى: أقسلُ شئ من بلادنا يساوى كنز أو جوهرة رائعة"، ورأيت قناعاً له فم ثائر، قناعاً سونجيا يشبه

(8) السناج هو سود الدخان. (المترجم)

الموت مثقوب ببثر، ورأيت الدمى الأشنقى منتصبة كجيش من الأشباح، ورأيت وجه الإله فانج العريض بعينيه المغلقتين وكأنه يحلم. كنت أشاهد الشقف وأطراف الخشب المسودة و المستنفة من جراء الأيدي التي سلخها الزمان. لم أعرف ماذا كانت تقول اللافتة الموضوعة بجوار هذه الأشياء، شئ يتعلق بالأشنتى على ما أعتقد. انطلق حكيم يقول: "ها هي عظامنا وأسناننا، أتري، ها هي قطع من أجسادنا، إنها تحمل نفس لون جلدنا، إنها تلمع ليلاً كأكواب براقّة"، و ربما كان حكيم أيضاً مجنون. ولكن ما كان يتفوه به كان يجعلنى أرتعش، فلقد كان قوله عميقاً كالحقيقة. دلفنا أيضاً فى المتحف، أمام القروس والطبول و الأصنام، وكان هناك أيضاً زورق مصنوع من الخشب أكلته ديدان الخشب، وكأنه وضع هنا بعد حادث غرق، عندما تم نزع مياه النهر المجهول.

لكن صوت خطوات الحارس الخفيض كان يضايق حكيم، فخرجنا على عجل من المتحف؛ كان حكيم يختنق من الحنق، وقال لى: "هل رأيتى؟ إن الحارس يراقبنى كى لا أسرق شئ، ولكنى لا أخطف مسهرولاً عظام أجدادى". كان يبدو عليه التعب، ويبدو شيخاً كبيراً؛ وقال ثانية: "هل رأيتى؟ هذا الحديد المطروق وأعمدة الدرايزين فى شكل...، لا أعرف ماذا، الرماح أو السهام أو ملابس باننيا".

بعد ذلك، استقلينا القطار حتى إيفرى - كوركورن لكى نعود

كان الحاج مافوبا يعيش بمفرده فى مبنى كبير أبيض فى اتجاه منطقة فيلابيه⁽⁹⁾ بالقرب من الطريق السريع، وكان المصعد الكهربائى معطلاً، وكان باب المدخل مهتماً، وبلاط السلم كان مذكوباً بصفائح معدنية، وكان هناك أطفال فى كل مكان من المبنى ؛ وبينما كنا نصعد السلم، رأينا طفلاً شديداً البدينة أبيض البشرة يهبط أربع درجات من السلم بعد أربع، وسمعت صوتاً أجشاً للغاية قادم من امرأة كانت تنادى: "سلفادور ادوندى قاس؟"، كما كان هناك شباب عرب يشعلون الغليون جالسين على درجات السلم، وإلى أعلى قليلاً، كان هناك فتاتان تهبطان السلم، وطفل أشقر يضع نظارة وكان يصيح: "تبا لكم / انتظرونى، أنا الذى أخرجتكم"، بينما كانت الفتيات يرددن عليه قائلين: "بسببك أنت، أيها الغبي الصغير، لم نخرج إلا الساعة السادسة".

كان العجوز يجلس فى غرفته وحيداً، يجلس على مقعد من الحديد أمام النافذة وكأنه يمكنه أن يرى الخارج. قال حكيم: "صباح الخير يا جدى"، فوضع الحاج يديه على وجهه حفيده، وأبتسم ثم مد رأسه وقال: "هل أحضرت شخصاً ما معك؟"

ضحك حكيم. "إن أذنك دقيقة يا جدى، لا يمكن للمرء أن يخدعك،

يا جدى"، فقال الحاج: "من هذا؟"

(9) ضاحية من ضواحي باريس الجنوبية. (المترجم)

اقتادنى حكيم إليه، ووضع الحاج يديه على طالعى مزحجاً إياها برفق على طول وجنتى ولمَسْتُ أصابعهُ المنفرجة جفونى وأنفى وشفاهى، ثم تتمم: "إنها تشبه ماريما، فمن هى؟"

تمتتم باسمى، وكان حلقى مشدوداً، فلقد كانت هذه هى المرة الأولى التى التقى فيها برجل مثير مثله، كان جميلاً للغاية بوجهه ذى لون الحجر الأسود والشبيه بوجه الرقيق، وبشعره الأبيض المجعد الذى يخط تاجاً فوق رأسه. لم يكن هناك مقعداً آخر فى الغرفة، ولذا جلست على الأرض أمام الجدار بينما كان حكيم يغلى الماء لإعداد الشاي.

كان الحاج يتحدث برقة وهذوء، فى صوت أجش قليلاً، متكئاً على الكلمات التى كان ينتقيها بعناية، ولم يكن يتوجه بكلماته إلى بصفة خاصة ولا إلى حفيده، بل كان يتأمل ملياً كما لو كان ينتزع الذكريات من ذهنه، أو كما لو أنه كان يخترع حكاية، ثم تحدث ببساطة وهو يرتشف الشاي عما كنت أنتظر منه: شهر السنغال الكبير، الذى يجرى فيه الماء الأحمر بصحبة الأشجار المبتورة والتماسيح. كنت أنصت إلى صوته الحنجري تارة والغنائى تارة أخرى، وكان يتحدث عن قريته مسقط رأسه، القسى تسمى يامبا، وهى قرية حوانطها من الطين حيث تَحُطُّ النساء عليه وأناملهن مبللة شكل نبات القطيفة⁽¹⁰⁾. حدثنى عن أبيه وعن أمه وعن عشرة أطفال أنجبهم، وعن ضوضاء الأصوات فى الصباح، وعنه حينما كان أكثر شباهاً، عندما كان يسير لدة

(10) نباتات ذات فلتقين. (المترجم)

ساعتين حتى يصل إلى مدرسة النهر ويرتل القرآن حتى المساء. وحينما كان يتحدث إلى، كان ينغم كلماته ويهز أعلى جسده كما كان يفعل وهو في الثامنة من عمره، فغدا صوته حاداً وواضحاً كمصوت طفل.

قال حكيم: "توقف يا جدى، سترهق ليلى..."، وهو واقف بالقرب من الباب كما لو كان سيرحل، فرد عليه الحاج: "كيف أرهقها، إنك أنت الذى لا يريد أن يستمع"، فكان يتوجه إلى، ووجهه ملتفت إلى جانب بضيئه الضوء المنار عبر النافذة، قائلاً: "إنه لا يريد أن يقرأ الكتاب المقدس، إنه لا يريد سماع الحديث عن الرسول، ولا يحب إلا ... ما أسمه؟ كاتبه فانو..."، فقلت: فانو.

— نعم فانو، أعترف أنه يقول أشياء طيبة، لكنه ينسى المهم منها والأكثر أهمية.

ثم صمت كثيراً قبل أن يقول: "وما هو الشئ المهم يا حاج؟"

— أنه حتى الإنسان القافه جداً كنز فى عين الله.

وعندما غضب حكيم، صوب المعجوز من عبارته بدهاء قائلاً: "ولكن

دعنا من كل ذلك، إنه لا يعتقد فى الله، وأنت يا ليلى هل تعتقد فى الله؟"

— لا أعرف.

— ولكن... كاتبه المفضل فانو يقول أشياء مضبوطة جداً، حقاً يأكل

الأثرياء جلد الفقراء، فعندما جاء الفرنسيون إلى بلادنا، أخذوا شسبابا

ليسخروهم في العمل في الحقول، وأخذوا فتيات لخدمة مآدبهم ولطهي أطعمتهم وليضاجعنهن في فراشهم لأنهم كانوا قد تركوا نساءهم في فرنسا، ولكي يخيفوا الأطفال السود، جعلوهم يمتقدون أنه يوسعهم أن يأكلوهم. فقال حكيم: "وأرسلوهم إلى المجزرة بفرنسا على ساحات الحرب في تريبول".

فغضب الحاج قائلا: "ولكن ذلك لم يكن نفس الشيء، فلقد كنا نحارب ضد أعداء البشرية".

... وكنتم تعرفون لماذا ستمتون ؟

... كنا نعرف...

كان هناك صمت بينما كان الحاج يشعل الغليون وهو شارد أمام النافذة المنفرجة، وكان المطر يتساقط في سكينه، وكان الحاج يرتدى قميصاً أقرينياً فضفاضاً أزرقاً شاحباً أطرافه من اللون الأبيض، ولم يكن به رقبة، وبخطالاً أسود اللون، وكان ينتعل حذاءً ضخماً من الجلد مبرنق باللون الأسود وجوارب من الصوف؛ وكان يجلس صامتاً مستقيماً على مقعده والسيجارة بين أنامله الطويلة.

عندما رحلنا، تحسس الحاج طالعي مرة ثانية، وتحسس عيني وشفتي، ثم قال ببطء: "عندما تكونين شابة، بياليلي، ستكتشفين العالم، ستريين، هناك جوانب كثيرة طيبة في العالم، وسوف تمضين بعيداً كي تجديها"، وقال لي ذلك كما لو كان يباركني، فأحسست برعشة وقسار وحب.

بينما كنا نخرج من المبنى والليل يسقط، رأيت للمصرة الأول معسكر
البوهيمين على السهل الطينى بين ممرات الطريق السريع، كانوا يشبهون
الغرقى فى جزيرة.

هكذا اعتدت أن أقوم بزيارة الحاج، فكنت أذهب إليه مرة من كل
أسبوع، أكثر من ذلك قليلاً أو أقل منه قليلاً؛ ولحسن الحظ أنه كان لا يرقب
قدومى أو على الأقل لم يكن يظهر لى أنه كان فى انتظارى. عندما كنا ندخل
إلى غرفته الصغيرة، لم يكن يتوجه بحديثه إلى حكيم، وكان يسدرك أنسى قد
وصلت، فيدير رأسه ويقول: "لىلى؟"، ولذلك كان حكيم يقول أن المكفوفين
هكذا، لديهم حاسة أخرى، يشتمون الروائح أكثر من الآخرين كالكلاب.

فى القطار المتجه إلى إيغرى، كانت هناك عصابة من الفتيان
والفتيات، تتراوح أعمارهم بين اثنى عشر أو ثلاث عشر عاماً بالكاد، وكان
بينهم أيضاً أطفال، رثو الثياب، سفهاء، مزعجين، ومع ذلك سعدت كثيراً
لرؤيتهم، فكانوا يسألوننى، وكنت أراهم يتناقلون سيجارة فيما بينهم، و
يتقرزون، و يلفظون بصوت عالٍ كلاماً بذيئاً ناظرين بطرف أعينهم إلى وقع
ذلك على سكان الضواحي الذين كانوا يتذمرون؛ وقبل محطة إيغرى بقليل،
جاء اثنان من رجال الضبط لإيقافهم، فلاذت عصابة الأطفال بنفسها بالقفز من
النافذة على منحدر قبل المحطة بقليل، وتعلقوا فى خارج القطار ممسكين
بالنافذة من الخارج، ثم فروا وهم يضحكون.

وفى هذه الأثناء التقيت بجيانيكو.

كنت أترك مبكراً "سجن" جافلو وأمضى أعمل لمدة ساعة أو ساعتين في الحى، فلقد كنت أقوم بأعمال النظافة لدى بياتريس التى كانت تعمل محررة في جريدة في الدائرة الخامسة⁽¹⁾ وكنت أعمل أيضاً لدى زوجين محالين للمعاش بشارع جان دارك، وكانت حورية تبقى في المنزل كى تقوم بطهى الطعام، كانت تخرج قليلاً في وقت الظهيرة تقريباً، لتتنزه بمفردها يصاحبها بطنها المنتفخ في حديقة المبانى التى تقام فوق المنزل الذى تقيم فيه، وأثناء ذلك تعرفت على السيد في، وهو فيتنامى كان يدير مطعماً في حينها.

ولم أكن أرى نونو كثيراً، فعندما كنت أترك المنزل، كان لا يزال نائماً في صالة مبيت السيارات على أوراق الكرتون؛ ومنذ المرة التى احتضننى فيها بعد قدومى إلى مبيت السيارات، لم أدعوه كى ينام أمامى، فلم أكن أرغب في ذلك، كما أننى خشيت أن يغدو هذا الأمر قصة بيننا، إذا ما تبيتتم ماذا أريد أن أقول؛ وأظن أن هذا الأمر جعله حزيناً للغاية، لكنه ظل عطوفاً علىّ وكان شيئاً لم يكن.

بعد الظهر كنت أمضى للقاء حكيم فى مقهى بجوار جامعة السربون؛ كان حكيم يلقبها بمقهى "الأس"، وكان يقول إنها تشبه مدخل الجحيم؛ كان يحمل الكتب والكراسات وكنت أشرع فى القراءة، فلقد رأى أن

(1) الدائرة الخامسة من باريس هى الدائرة التى تنتشر فيها أكبر الجامعات والمدارس

الفرنسية وأهمها جامعة السربون وكوليج دى فرانس. (المترجم)

أجد في خطواتي وأتقدم للثانوية كطالب حرة أو إلى دراسة القانون إذا ما استطعت؛ وفي مجال اللغة الفرنسية والتاريخ والفلسفة لم يكن لدى أي صعوبات، فلقد كانت دروس لالا أسماء لا تُقارن في هذا الصدد، إذ علمتني في العمر الذي كان فيه أقراني يلعبون بالدمى أو يظلون لساعات طويلة أمام الرسوم المتحركة. كان حكيم يجعلني أقرأ مقتطفات من نيتشه، من هوم، من لوك، من بوتي⁽¹²⁾، كما كان يحمل إلى أوراق مصورة، وكان يعنى بهذا الموضوع عناية فائقة؛ وأظن أن الأمر كان بالنسبة له أن اجتاز اختباراته الخاصة. اطلع حكيم جده على أمرى، فعندما ذهبت إلى إيفرى - كوركورن، سألتني الحاج: "أين أنت في الفلسفة الآن؟"، وتجاوزنا حول مشكلات الأخلاق والعنف والتعليم والأفكار الاجتماعية والحرية،... الخ؛ وكان يقول لي يوما أفكاراً رائعة كما لو كانت تنبع من أعماق الزمان وأنه عثر عليها بكرة في ذاكرته.

قال لي: "الله يخلق الحب والنوى، يخرج الحي من الميت والميت من الحي"؛ وكان يقول: "أدربين ما المفاجعة؟ إنه اليوم الذي يكون فيه الناس كالقراش المنتور والجبال كالعهن المنفوش"؛ وكان يقول: "أعوذ برب الفلق من شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد"؛

(12) إتيان دي لا بوتي Etienne de la Boétie أديب فرنسي ولد عام 1530، وكان

صديقاً لأديب الشهير مونتني، ومن أشهر مؤلفاته "خطاب حول العبودية التطوعية".

(المترجم)

وكان يدير وجهه للنافذة ثم يتحدث فكانت الكلمات تأتي من أعماقه عذبةً ورنانةً.

كان يتحدث من النبى وعن خادمه بلال، الذى كان أول من آذن للصلاة، والذى عاد — بعد الهجرة، عندما لفظ النبى أنفاسه الأخيرة بين ذراعى عائشة — إلى أفريقيا وجانب كل الغابات حتى النهر الكبير الذى قاده إلى شاطئ المحيط كان الحاج يتحدث عن ذلك الأمر كما لو كان يعرف بلال، كما لو كان هذا الأمر قد دب فى عائلته هو؛ ورأيت حكيم جالساً على الأرض يرتشف كلماته، ولم أنس قط قصة بلال، فبالنسبة لى كانت هذه القصة قصتى أنا الخاصة.

دعانى حكيم كى أذهب إليه فى مدينة أنطونى الجامعية⁽¹³⁾؛ وهناك كان عالماً آخر، فلم يكن كشارع جافلو، ولا كمحطات المترو، وكنا بعيداً عن كوركورن. كان الفضاء رحباً محاطاً بالحدائق الجميلة الخضراء كالريف الذى تحلق فوقه طيور العمق والشحور، وكان هناك طلاب من كل بلاد العالم، أمريكيون، إيطاليون، يونانيون، يابانيون، بنجيكويون، وحتى أتراك ومكسيكيون. ودعانى حكيم إلى مطعم المدينة الجامعية، فقام بتسديد ثمن وجبتى بالبطاقات التى كانت معه؛ تناولت رافيولى⁽¹⁴⁾ وشريطية⁽¹⁵⁾ وأطباق

(13) مدينة أنطونى الجامعية هى من أشهر وأقدم المدن الجامعية بفرنسا. (المترجم)

(14) نوع من المعجن المطهى المحشو باللحوم. (المترجم)

(15) نوع من المعجن المطهى على شكل شريط. (المترجم)

لم أكن أعرفها، ومن الحلوى، أكلت مثلثات من القشدة، النافعة⁽¹⁶⁾، بشراة، ضحك، فأما هو فقد كان كعادته يأكل قليلاً، فأكل طرف حلوى، ثم ما لبس أن وجد كل شئ مقززاً.

بعد أن انتهينا من تناول الطعام، أراد حكيم أن أصدق معه إلى غرفته، وقال إنه يريد أن يرينى كتبه. لم أكن أرغب فى خصوصته، فلقد كنت أعلم أنه يريد أن يفعل بى، هذا كل ما فى الأمر، ولم تكن لى رغبة فى أن يصير الأمر معه كذلك، إضافة إلى أننى كنت أريد أن نفل أصدقاء، وأن نستمر فى الذهاب إلى الحاج لننصت إليه وهو يتحدث عن النبى.

وكنى أدرك أن ذلك الأمر يضايقه، وكان غيوراً لاعتقاده أن نونو صديقى، ولكنه لم يكن يجسر على أن يقول شئ من هذا القبيل. مضينا إلى الصالة، ثم جلسنا على الأريكة وأخرجت من حقيبى كتاب "وراء الخير والشر"، ثم قلت له: "فسر لى لماذا يتحدث نيتشه عن العقد ؟"، فنظر إلى من خلف زجاج نظارته، وكانت تبدو عليه علامات رجل قاسٍ فى لحيته الصغيرة ونظاراته الفولاذية، وأعتقد أنه أراد أن يشبه فى هيئته هذه ملكولم اكس، ولهذا السبب لم يكن يخرج البتة نون كى قمصانه البيضاء وانتقاء رباط عنقه. لم يكن يرغب فى أن يبدو مشابهاً لأفارقة نانسير أو أنتييسه سول فى ملابس البيجتى والدريدلوكس، وكان يهضم كل ذلك وفى نفس الوقت كان

(16) شرب من الحلوى كثيرة السكر. (المترجم)

يشفق عليهم، فلقد قال لى ذات يوم: "أتعرفين ما أكثر الأشياء التى تؤلّفى؟ إنه النظر إليهم والظن بأن حتى نصفهم لن يصل إلى سن الرشد، وكأنهم فى طريقهم للموت".

كان يتحدث إلى أيضاً عن أفريقيا، عن لوائح الحساب، عن مرتزقة بيافرا⁽¹⁷⁾، عن الأطفال الذين يموتون من الجوع، عن السيدا⁽¹⁸⁾، عن الكولرا. كان يحب نيتشه كثيراً، ويؤثر فنانو أيضاً، وكان قد قرأ على مقتطفات من "سادة وعبيد" لربورنو فراير؛ ومع ذلك لم يكن يحب الروايات، ولا الشعر، إلا محمود درويش وتيماجن هوات، فكان يقول: "الروايات مثل الغائط، ليس فيها أى شئ، فليست هى من الحقيقة، ولا من الكذب، إنما هى زوبعة فحسب"؛ وكان يقبل على مضض الشاعر رامبو وجون دون، ويأخذ على رامبو حديثه بالسوء عن السود ونشاطه فى التجارة الغير مشروعة. وذات يوم قلت له: "إنك تعتقد فى الأساس مثل جدك، بأن كل شئ جاء فى القرآن"، وأظن أنه غضب، ولكنه بعد تأمل أجاب: "هذا حق، لا يمكن أن يكون هناك شعر أعظم من القرآن، الإعجاز أن هذا الكلام ذكر منذ أكثر من ألف عام وأننا نعلم أنه ليس بوسعنا أن نأتى بأفضل منه"، فقلت له حينئذ: "إذا ربما يمكن الإتيان بأسوأ منه؟"، فنظر إلى فى دهشة، وأظن أنه لم يدرك ما أردت أن أقوله له.

(17) بيافرا Biafra هى جزء من جنوب شرق نيجيريا. (المترجم)

(18) تقابل الأيدز فى الإنجليزية وهو مرض فقدان المناعة الجسمية. (المترجم)

كانت لى حياتين: أشطرت النهار ببقاشى مع حورية والنظافة لى محررة الجريدة، وأقوم بإجراء المشتريات فى الحى الصينى حيث كان كل الناس فى هذا الحى يرون أننى طيبة، وكنت أمضى أشاهد نونو وهو يتسدرج فى صالة الملاكمة فى باريس⁽¹⁹⁾، ثم كانت هناك مواعيد الدراسة فى السربون مع حكيم، أو بالقرب من شارع أساس⁽²⁰⁾، وكان حكيم فخوراً بتقديمى إلى زملائه الطلاب، وكان يقول لهم: " هذه لىلى، طالبة حرة تتقدم للثانوية هذا العام بالقسم الأدبى".

فى الليل، كان كل شئ يتبدل فى حياتى: كنت أغدو كالصرصار، وكنت أذهب حتى ألحق بالصراصير الأخرى فى محطة توليبياك أو محطة اوسترليتز أو ريمير سياستوبول، وعندما كنت أصل إليهم عبر أنبوبة ممر المترو وأسمع دقات الطبول، كنت أرتعش، فلقد كان شيئاً رائعاً، و لم يكن بوسعى أن أقاومه، كان يحدث لى ذلك وكأنى أعبر البحر والصحراء مشدودة بحبل هذه الموسيقى.

كان الأفارقة يرتادون على الأرجح محطة الباستى أو سان بول، أما الأنقييون فقد كانوا يذهبون إلى محطة ريمور سياستوبول، حيث تكون بصحبته سيمون أحياناً، والتي عرفتها عن طريق نونو، فى المرة الأولى التى التقيت بها. فى الغالب، كانت معرات محطة المترو مكتظة بالناس، ولكننى

(19) حى يقع فى شمال باريس. (المترجم)

(20) شارع بجوار جامعة السربون بباريس. (المترجم)

كنت أفلق في التغلغل إلى الصف الأول، كانت سيمون فارعة الطول، شديدة السواد، وجهها عريض إلى حد ما، وعيناها محدبتان، كانت تصفف شعرها على طريقة التكوير بربطه بخرق حمراء، وكسنت تردى ثوباً طويلاً أحمر داكناً. ظننت أنها تشبه إحدى المصريات القدماء، فقال لي نونو: "هذه سيمون، من هاييتي"، كان صوتها خشناً متذبذباً ساخناً يدخل إلى أعماقي و إلى أحشائي. كانت تغنى بلغة المستعمرات الفرنسية، في كلمات أفريقية، كانت تغنى عن سفر العودة عبر البحر وماذا يفعل إناس الجزيرة عندما يموتون. كانت تغنى وهي واقفة، دون أن تتحرك تقريباً، ثم تأخذ فجأة في الدوران حول نفسها هازة أردافها، فينفرج ثوبها الفضفاض حول جسدها، وكانت جميلة إلى حد أنها كانت تدهشني.

تحدثت معي ذات مساء، وكان هناك هجوم مباغت للشرطة، فتبعثر كل الناس، و وجدنا أنفسنا وحيدتين في المحطة في طرف ممر طويل، وكان ينبغى علينا أن ننصرف، فأعطيتها بطاقة مقروء، واستقلينا المترو إلى محطة بلاس دي ايتالي، وكانت تجلس على مقعد من المقاعد التي بجوار الباب وأنا أجلس بجوارها، وفي العربة الرثة، كانت تبدو كأميرة بأهدابها الكثيفة، وشفقتها السفلى التي تقيم هدب، ووجنتيها العريضتين الناصبتين؛ و سألتني عما كنت ومن أين أتيت، لا أعرف لماذا قلت لها ما لم أسرى به إلى أحد، ولا حتى إلى نونو، ولا لماري هيلين، ولا حكيم، قائلة أنني لم أعرف ماذا كنت أو من أين أتيت، وأنه تم بيعي ذات ليل من الليالي

وأنا أحمل قرطى الذى يمثل الهلال الأول للقمر، فنظرت إلى لحظة طويلة،
وابتسمت إذ كانت متأثرة، أعتقد ذلك، وطبقت على يدي، كانت يداها
عريضتين وبافنتين ومفعمتين بالقوة، وقالت: "أنت مثلى، ياليلى، نحن
لأنعلم من نحن، و لم يعد جسدنا معنا"، وكان أمراً غريباً أن أسمعها تتحدث
هكذا مع اهتزاز عربة المترو وبريق ضوء المحطات الذى كان يمر على وجهها
ويضى قزحية عينيها فتصبح فى لون بنى شفاف كحجر كريم.

اصطحبتنى إلى منزلها، وكانت تقسم فى منزل صغير به حديقة
صغيرة، فى شارع صغير له أسم عجيب، لابيت أو كاي، وكانت تعيش فيه مع
صديقتها، طبيب هايتى، لمارع جداً ونحيف وأنيق، وأساس آخرين، من
هايتى وأيضاً من الدومنيكان، وكانوا يتحدثون معاً هذه اللغة العذبة السريعة
التي لم أفهمها، ولو لم تكن سيمون ممي، أظن أنني كنت سأرحل على الفور
لأن هؤلاء الناس كانوا يرعبوننى ولاسيما ماريتال جوايبييه، صديق سيمون
الذى كان ينظر إلى بعين ثابتة كما لو كان يريد أن يطالع روحى، وكان هناك
بينهم أيضاً بعض البيض، رجل متقدم فى العمر يزعم أنه ناقد فنى وكان
يشبه السيد دلاهاى إلى حد ما، وكانت هناك نساء ترتدين ملابسهن على
الطريقة الأفريقية، وتحملن عقود ثقيلة وأدوات زينة مثل تلك التى كان
يبيعها حكيم. كان دخان السجائر والحشيش يشكل نفثات كثيفة تدور حول
شعاع النبق المضادة تابعة مدونات الموسيقى الهادئة التى تبدو وكأنها تنبعث
من كل جوانب الأرض حتى من النوافذ.

لم يكن هناك مَنْ يهتم بأمري، كنت واقفة أمام مدخل الصالة،
وأدخن الغليون محاولة أن أرى سيمون، من تكويرة شعرها القرمزية وقرطسها
الذهبي.

قدم الناقد الفني تجاهي، وقال لي شيئاً ما في صوت منخفض، وبما
أنني لم أفهم، مال إلى أذني كي يكرر: "إنها رائعة"، اعتقد أن هذا ما قاله،
ثم استطرد: "إنها كل روح السنكسار"⁽²¹⁾، فلم أقبل نعم أو لا، وربما ظن
أنني لم أدرك ما قاله، ونظرت في وجهه بامتعان وريدت بقوة طالما أنه يسمع
هذه الأبيات لامييه سيذار⁽²²⁾: إلى رقصاتي

رقصاتي رقصات زنجية رديئة

إلى رقصاتي

رقص آخذة الغل

رقصة الإفلات من السجن

رقصة مفادها أنه من الحسن والطيبة والشرعية أن أكون زنجية.

نظر إلى الناقد الفني دون أن يتحرك ثم أنطلق في التصفيق، وصاح:
"أنصتوا، أنصتوا، هذه الفتاة الشابة لديها شيء تقوله لكم"، ثم أخذت سيمون

(21) السنكسار هو كتاب يضم أسماء الشهداء والقديسين. (المترجم)

(22) أديب فرنسي ولد في جزر المارتينيك عام 1913، وعُرف بتنزعه المناهضة للفكر

التقليدي الاستعماري، كما حاول في مؤلفه أن يبرز دوره المساند للزواج. (المترجم)

تغنى لا من أجل أحد سوى، وكنت أعرف أنها تغنى لى لأنها كانت تغف فى نهاية البهو ولأنسها كان تمد يدها نحوى، وصوتها كان ينددن بكلمات فرنسية عذبة جداً تتوافق مع موسيقى الدف.

ثم أخذت أشعل سجائر مختلطة بالحبشيش، وكنت قد شاهدت فى الماضى أماكن يتم فيها فعل ذلك، فى الفندق مثلاً، كانت الأميرات تتجمعن من آن إلى آخر فى إحدى الغرف، ثم تشعلن الغليون معطية إحداهن السيجارة إلى أخرى، وكانت تخرج آنذاك رائحة ورقة فظة قليلاً، مسكرة قليلاً، فكان ذلك يثملنى ويجعلنى أنام .

وهنا لم يكن الأمر كذلك، كان هناك رجل هايتى يعطينا السيجارة، وكذلك كانت هناك الموسيقى وصوت سيمون يدور فى المكان بعذوبة، فاشتيمت الدخان بقوة كما لو أننى أردت أن يعبرنى من جهة إلى أخرى، وشربت أيضاً الكحول و الويسكى و البيرة وعرق قصب السكر؛ وأتذكر أنه لم يكن بمقدرتى أن أتوقف عن ذلك. وبالطبع، غدوت بعد ذلك ثملة تماماً، غير مدركة لما حولى، ثملة بحق، كما نرى أحياناً فى دار العرض المرئية. كنت واقفة أمام سيمون وغنيت أنا أيضاً، كنت أكرر كلماتها، وأنا أرقص فى نفس الوقت؛ كنت ثملة ولكننى على العكس من ذلك، لم أفقد صوابى، فكل شئ أصبح صافياً أمامى، كنت أكرر كلمات أغنية بالتدرج على نغمة الدف الصغير تقول: أنصت إلى المدينة التى تنبض

فى قلبى، فى دى

نحن الآخرين

البحر مفقود بعيد

...

كان الناس يتمايلون كما يحدث وقت الزلزال، رأيت الحوائط تنموج وظلُ الناس يتنسل واللون القرمزي لتكويرة رأس سيمون يتضخم ويملاً كل البهو، فأخذنى الطبيب جوييه، ثم طرحنى على الأريكة، ومسحت سيمون وجهى بمنشفة مبللة بالماء البارد، وكانت حركاتها رقيقة جداً وأمومية للغاية، فكانت تتحدث ببطئ، وكان لدى إحساس أنها سوف تمضى لتغنى لا من أجل شئ إلا لى بصوتها الخشن الأجش قليلاً، ولكن لم يكن الأمر بالنسبة لى دق الدف العذب، إنما كان صوت فؤادى فى أذنى.

رحل الناس البعض تلو البعض الآخر، ربما خشوا أن أسبب لهم مشكلة ما، فهم إناس مشهورون، من بينهم نقاد فن و رجال سينما و سياسيون، و لذا فهم ينصرفون دوما قبل الآخرين.

فضلا على ذلك، كان صديق سيمون يتشاجر معها، وكان ذلك أمراً غريباً بالنسبة لى، وكنت أنصت إليهما من بعيد، كما لو كنت طفوت فوق جسدى، وكما لو كانوا يتحدثون أمام شخص آخر، ثم تركونى على الأريكة ومضيا إلى غرفتهما، فسمعت صوت الطبيب الخشن وصيحات سيمون، وظننت أنه يضربها، أو يعذبها، ثم أخذت تتأوه بشكل منتظم، فأدركت أنها يتضاجعان.

كنت أرتعش من الحمى على الأريكة؛ وفي لحظة ما، مضيت أتقيأ في المطبخ، كنت أترنح، فقلبت مقاعدًا، وكان هناك اثنان من الهايتيين لا يزالان يشربون، وعندما شاهداني في حالتي هذه، مضيا يبحثان عن الطبيب، وسمعتهم يتحدثون عنى بلغة المستعمرات، وقال مارتياال جوييه: "ربما هي غير راشدة، من الأفضل حملها إلى منزلها"، وأظن أنه قد هتف إلى كل مكان حتى عثر على حكيم، فحصل على عنوان مبيت السيارات بشارع جافلو، فبدأت أدرك أن الدنيا ضيقة، وعندما تحسن البحث، نبليغ كل ما نريد، أى أن هؤلاء الناس الذين يتمتعون بقيمة ما، مرتبطون بعضهم ببعض الآخر، ويصطحبون معهم الآخرين، الذين لا يساوون شئ مثل نونو ومثلى. فكرت فى كل ذلك بينما كان صديق سيمون يستخدم الهاتف؛ وكان عقلى يغلى؛ ورأيت فى نفس الوقت وجه سيمون، حينها الكيسيرتين الشبيهتين ببقرة مصرية واللتين كانتا تُعبران عن ضيق عميق، وفجأة أدركت لماذا قالت لى إننا متماثلتان وإن أجسادنا لم تعد ملكاً لنا، لأننا لم نرغب فى أى شئ مطلقاً، وأن الآخرين هم الذين يقررون مصيرنا دوماً.

ظلت سيمون فى المنزل، بينما حملنى مارتياال وأحد رفاقه إلى السيارة. كانت السماء تمطر فى خارج المنزل، وكانت مستنقعات المياه الصغيرة الحجم ترتعش على البلاط الأسود فى الشارع، وكانت السيارة تمر فى الشوارع الصامتة والخالية؛ وأظن أنهما كانا يبحثان عن صيدلية ليلية، وهبط الطبيب كى يشتري دواء لى، قطرات من برمبران، أو شيئاً من هذا

القبيل؛ ثم تركاني في الشارع أمام الباب، باب مبيت السيارات، ونظر إلى مارتيال جوييه في صمت، ثم لفظ رفيق الطبيب جملة بلغة المستعمرات لم أكرث بها، ربما قالها على الأرجح بلغة الجاوة⁽²³⁾، ثم رحلاً، وعندما تبدلت الإشارتان الحمراءوتان، اختفيا.

بعد ذلك، كان فصل الشتاء، ولم أشعر ببرد مثل هذا البرد مطلقاً؛ وكانت تغادير قد قصت على من ذى قبل كل ما يحدث في فرنسا في فصل الشتاء: السماء رمادية سوداء، الأنوار مشعلة في الشوارع اعتباراً من الساعة الرابعة من بعد الظهر، والثلج، رقائق الجليد، والأشجار العارية تماماً والمفتولة كالأشباح. ولكن فصل الشتاء هذا كان أكثر سوء مما قالت.

جاءت طفلة حورية إلى الدنيا في شهر فبراير، ويوم ولدت الطفلة، ظننت أنها ربما هذه هي المرة الأولى التي يحدث شيء مثل ذلك: أن يولد طفل تحت الأرض، بعيداً عن ضوء النهار كما لو كان في أعماق مغارة.

وربما لهذا السبب بدأت أفكر في الجنوب الفرنسي وأن أعود إلى الشمس، حتى تسطع الشمس على جلد الرضیعة، وحتى تتخلص من تنفس الهواء العفن في هذا الشارع الذي لا تُرى منه السماء.

كنا نخطط لهذا الأمر مع نوتو، قلنا أنه سيفوز بمباراته بسهولة، وسيمكنه آنذاك شراء سيارة، ثم نسهب جميعاً مع حورية والرضیعة نحو

(23) الجاوة لغة اصطلاحية لمجموعة من الأندونيسين. (المترجم)

الجنوب متخذين الطريق الشاسع الذى يمر بإيفرى كوركورن، فى ممراته الثمانية التى تشبه نهر، وخططنا أن نمضى إلى مدينة كسان وإلى مدينة نيس وإلى مونت كارلو وحتى إلى روما أيضا فى إيطاليا، وسننتظر قدوم أبريل أو مايو حتى تكون الرضيعة قد كبرت وتستطيع حينئذ تحمل مشقة السفر، أو حتى شهر يونيو طالما أننى سوف أتقدم لاختبار الثانوية؛ ولكننا لن نذهب أبعد من ذلك، لأن ذلك السفر سيكون طويلاً جداً، وسيكون الوقت قد فات للمضى إلى أبعد من ذلك. كان يونيو شهراً سعيداً، فلقد أجريت مباراة الاختيار فى الثامن من يونيو، وكان نونو يتدرب طوال الوقت، فحينما كان غير متواجد فى صالة التدريب بشارع باريس العريض، كان يتمرن على الملاكمة فى مبيت السيارات، فلقد صنع لنفسه كرة ملاكمة من جوال بطاطا حشاه بالخرق البالية.

كان الطقس بارداً فى شارع جافلو، ولحسن الحظ أن نونو كان قد أحضر مدفأة كهربائية، كانت حينما تعمل تحدث صوتاً كموت طائرة، وترشيدا للاستهلاك، أرانى نونو كيف أنه زور فى عداد الكهرباء ثاقباً بالشنيور على جانب غطاء العداد ثقباً صغيراً حتى يوقف عجلة العداد عن طريق إبرة حياكة، ولحظة مرور مفتش الكهرباء، كنا ننزع الإبرة من العداد ونخفى الثقب عن طريق قطعة صغيرة من العجين الملون باللون الأزرق. كانت تنقصنا النقود، فكان نونو يتدرب، ولم يكن لديه الوقت كسى يعمل، فكانت النقود تسد عوزنا بالكاد؛ وعندما كان يعود للمنزل فى المساء، كان يضمحل

من التعب، وكان أحد الأعضاء الاشتراكيين قد وعده ببطاقة إقامة لو أحرز النصر في المباراة، ولذلك لم يرد أن تفوته هذه الفرصة. أما حورية فلقد كانت تشبه في الآونة الأخيرة - أكثر فأكثر - ملكة النحل، فكانت تظل راقدة على الفراش، بالقرب من المدفئة التي كانت تموء، ضخمة ومثبلدة، ووجهها منتفخ من الحمل، و لم تكن ترغب في أن تعتنى بها مساعدة اجتماعية، و لم تكن ترغب في أن تُعرض على طبيب أيضاً، فلقد كانت تخشى أن يتم إخطار الشرطة عنها وأن يرسلوها آنذاك إلى زوجها، إضافة إلى أنها كانت في مأمن تحت الأرض، كالعنكبوت في شقه، يصنع طفلة، و ما من أحد يمكنه العثور عليها هنا، والخطر الوحيد كان يتمثل في صديق نونو، ولكن من الأخبار الأخيرة، علمنا أن جزيرة بورا بورا⁽²⁴⁾ تعجبه، ولم يكن هناك خطر كبير من أن يمضي إلى باريس وسط المطر وحببات الجليد.

عندما جاءت لحظة الولادة، طلبت حورية مولدة وليس طبيب، وكان نونو مذعوراً، فكان يجري في كل الاتجاهات، وكان يتقد صوابه، وبما أننى لم أكن أعرف إلى أين أذهب، فقد استقلت القطار حتى إيفرى كوركورن وذهبت إلى المعسكر البوهيمى، ووجد جيانيكو المولدة، ثم تفاوض معها باللغة المانوشية⁽²⁵⁾، وقبلت أن تأتى في مقابل خمس مائة فرنك. كانت تدعى جوزيفا، كانت فارعة الطول، مسترجلة قليلاً، وجهها عريض بارز التقاطيع

(24) جزيرة فرنسية في المحيط الهادى. (المترجم)

(25) لغة البدو الرحالة. (المترجم)

ويدها قوية ؛ ولم تكن تتحدث بالفرنسية تقريباً ، ولكنها اطمأنت إلينا عندما سمعتهى أحدثها بالأسبانية ، وكانت لديها لكفة الجالسيين⁽²⁶⁾ القاسية.

اصطحبتها بالقطار ، وقبل أن تمضى إلى شارع جاسفلو ، أرادت القيام ببعض المشتريات لها ولحورية ، فاشتريت قطناً ولصقة مشمعة وبواء البيتادين وكمادات وأمور من هذا القبيل ، وأيضاً أعشاب من عند الصينيين : زعتر وقويسة ، ومرهم فى علبة مستديرة مزخرفة بصورة نمر ؛ واشتريت أيضاً كوكا وحلوى وسجائر.

بلغت مبيت السيارات ، فعلقت ملاءة عبر الحجرة التى كانت ترقد فيها حورية حتى لا يزعجها أحسد ؛ وظلت هكذا ثلاثة أيام كاملة دون أن تخرج تقريباً ودون أن تتحدث. كانت تقول أن هناك رائحة سيئة فى المكان ، وكانت تطلق البخور وتشعل السجائر. وفى خلال هذه الأيام ، لم نكن أنا ونونو بوسعنا أن نمكث فى المكان ، كنا طوال الوقت فى الخارج ، فكنت بعدما أفرغ من عملى فى منزل بياتريس ، أمضى كى ألحق بنونو فى صالة التدريب فى باريس ، وكنت أراه يلاكم ظله ، وكان يقفز الحبل ، فكنت أجلس فى ركن من الصالة وأشاهده يتحرك ؛ وكان كل الناس يعتقدون أننى صديقه ، حتى أن العضو الاشتراكى جاء ليتحدث معى ، ولم يكن يلقبه بنونو أو ليون ، إنما كان يتحدث عنه ذاكرأ اسمه العائلى "اديدجو" ، فكان يقول : "ينيفى على

(26) مدينة وميناء فى سيراكوزا. (المترجم)

اديدجو أن يجتهد، ولا ينبغي عليه أن يرتكب الحماقات، قولي له ذلك"؛ وأعتقد أنه كان يلصق بممارسات نونو، وللأشخاص الذين كانوا يكسرون المنازل والسيارات وللشرائط التي يجلبها من وقت إلى آخر ويقوم ببيعها. كان العضو الاشتراكي قصيراً، وشعره منتفش، وكان يبدو أنه رجل رياضي أو رجل شرطة؛ ولم أكن أحب أن يأتي ليتحدث معي، ولم أكن أحب أن يقول "اديدجو" هكذا كما لو كانت له حقوق على نونو وكما لو كان من نصرائه. ولمرة أو اثنتين، حاول أن يعرف موقفي من القانون أو هل لدى بطاقة إقامة، ولم أكن أحب أن يطرح علسي أسئلة، ولم أكن أحب أن يخاطب كل الناس بصيغة المفرد، كما لو لم يكن هناك اختلاف بينه وبيننا، ولكنه ربما كان ببساطة لطيفاً. كان ذراعه الأيسر مبتور وربما كان هذا الأمر وراء ذلك، فكان يذلف نحو الناس، ويقول لهم بصوت عالٍ: "أمسك هذا، عاونني في ارتداء قميص الصوف، هل لك أن تفعل؟" كان إحساسه بالصدقة عنيف إلى حد ما، فكان يقول دوماً لنونو: "لا عليك، بطاقة إقامتك مسألة محلولة"، كما لو كان بوسعه أن يسوى هذا الأمر مهما كان.

وضعت حورية أنثى، فعندما مدت من منزل باتريس المحررة، كانت الرضيعة قد خرجت إلى الدنيا، ملتصقة بصدر حورية، وكانت المولدة متعبة، فلقد احتست عدداً من كؤوس الخمر ثم نسامت بعمق على الأريكة، حتى أن ضوء النيون لم يوقظها.

كان يهدو على حورية النعاس هي أيضا، وكانت الغرفة تفوح برائحة مقرزة: بول، عرق، رائحة حامضة، ولو كانت هناك نافذة في أي مكان، لفتحتها على آخرها حتى أدخل الهواء والشمس. فكرت في أنه ينبغي أن يرحل الطفل بسرعة وإلا فلن يقو على العيش تحت الأرض.

وفي الأيام التالية، أصابتنا الحمى، وكنا جميعاً منهكين، كما لو كان كل منا أنجب الطفلة، فكنا ننام بالتناوب تبعاً لنظام الرضاعة؛ وكانت أطراف ثدى حورية مشققة، ولذا كانت تجد مشقة في الرضاعة، وكانت هناك بقع من الدم على فراشها، فقدمت المولدة وأسقت حورية لبناً ويانسوناً وذلك ثديها بمرهم. كانت حورية ترتعش من الحمى، وكانت الرضعة تعوى، وفي النهاية، أرسلت بيساتريمس المحورة صديقة لها كانت تعمل معاونة بمستشفى، فحملت حورية ورضيعها إلى قسم الولادة بالمستشفى، وكانت متوقعة للغاية ذلك أنها تركت نفسها تحمل على نقالة دون أن تقول شيئاً.

كنت أذهب كي أراها كل يوم بعد الظهيرة، وكانت تقيم مع أمهات مثلها، في غرفة جميلة بيضاء في الطابق الأرضي؛ ومن خلال نافذة الغرفة، كانت ترى أشجار السرو، وأشجار جنبة الرباط، وعصافير الدوري وهي تحلق في الهواء، وحتى السماء رمادية اللون كانت رائعة. كنت أحمل إليها حلوى جافة وشاي في كظيمة⁽²⁷⁾، وحتى أمزج مع حورية، كنت أقص عليها

(27) الكظيمة هي الجهاز الذي يحتفظ بحرارة الشاي لمدة من الوقت، ويطلق عليه في بعض

البلاد العربية التي ثبتت في لهجتها العامية المصطلح الغربي "تورموس". (المترجم)

أى شئ، فكنت أقول لها أنهم سوف يعطون اسماً لرضيعتها، وسيسمونها باسكال لأنها ولدت في اللحظة المناسبة قبل أن يطبق قانون الدم الجديد⁽²⁸⁾، وكانت حورية توافق على ذلك، ولكنها كانت ترغب في أن يُضاف اسم "مليكّة" إلى اسم الطفلة، لأن "مليكّة" هو اسم أمها هي؛ وهكذا سُميت الرضيعة "باسكال مليكّة"، وفي سجل الأحوال الشخصية، أرادت حورية أن تكتب الاسم الحقيقي للأب "محمد"، حتى لا تكون الفتاة من أب مجهول. وحتى حكيم جاء في زيارة حورية، ونظر إلى هذا الكائن الصغير أحمر البشرة، الذي يقتله النعاس في الهد بجوار حورية، قائلاً: "يبدو عليها أنها فرنسية صغيرة".

فجأة صارت حورية قلقة، فقالت لى: "ولكن إذا أردت أن أصود لبيتى، ألا يأخذوها منى؟" هدأت من روعها على قدر استطاعتى، وقلت لها: "ما من أحد يوسعه أن يأخذها منك، هي أبنتك، وليست ملكاً لأحد سواك"، وأظن أن هذه هي المرة الأولى التي كان لحورية شيئاً تملكه؛ وعلى الرغم من كل ما عانت منه، وعدم الثقة في مستقبلها، إلا أنها كانت محظوظة.

غَيْرَ قُدُومِ باسكالِ مَلِيكَةِ كل شئ بحق في شارع جافلو، فلقد أدركت أن ما من شئ سيبقى كما كان من ذى قبل، وكان ذلك شئ طيب، فبدائية، لم

(28) قانون الدم هو القانون الفرنسى الذى كان لا يمنح الجنسية إلا لمن كان أبويه فرنسيين. وعلى العكس منه. هناك قانون الأرض -وهو قانون يعمل به حتى اليوم- وهو منح الجنسية لمن ولد على الأرض الفرنسية بعد مرور عمر معين. وكان قانون الدم يحتم على من يحصلون على الجنسية أن يكون له اسم فرنسياً. (المترجم)

تعد حورية تفكر في الرحيل، و لم تعد ترغب في أن تعود إلى بلدها، فالآن بعد أن أصبحت تمتلك الرضيعة، تشعر بأنها قوية، والمدينة والناس لم يعودوا يرعبونها؛ وكل صباح، تلف الطفلة في خمار صوفى، ثم تمضى إلى الخارج، في الحدائق، في الشوارع أو تعود صديقتها، السيد في، وحتى يكون لها عملاً، طلبت من بياتريس أن تعينها بدلاً منى، فاشتريت بياتريس مهداً للرضيع؛ وكانت حورية تمضى كل صباح لتعمل لديها. ولم يكن بوسع بياتريس وزوجها أن ينجبا أطفال، ولهذا كانوا متأثرين من وجود هذه الطفلة التى تنام في منزلهم؛ ثم اعتادت حورية أن تتركها وقتاً طويلاً أثناء ما كانت تمضى للقيام بالمشتريات، أو عندما كانت تمضى تتابع دروس محو الأمية. كان لبسكال مليكة حجرة أنيقة، فلقد أزاحت بياتريس وزوجها المكتب والأرفف المليئة بالمكتب، وفرشوا الحجرة بالسجاد ذى اللون الوردى، وكان ذلك يشكل منظرأ هادئاً مع الضوء والشمس. عندما كانت حورية تعود إلى الجحر الأسود فى شارع جافلو فى المساء، كانت الطفلة تبكى وتصرخ ولا ترغب فى النوم. وظننت منذ بداية الأمر أن بياتريس وزوجها قد فكرا فى تبني باسكال مليكة، ولكنهما لم يصرحا بذلك الأمر.

رأيت سيمون مرة ثانية، فذات مساء، عدت إلى محطة ريومير - سيباستوبول، وكان يبدو لى أننى منذ سنوات لم أذهب إليها، وعندما سمعت ضربات الدف تدق فى الممر من بعيد، ارتعش جسدى، ولم أكن أعلم إلى أى حد كنت أفتقد ذلك الأمر، إضافة إلى أن كل ما حدث مع ميلاد الطفلة غير

منى وربما كبر من عمرى، كما لو أننى أصبحت أدرك الآن ما كان وراء هؤلاء الناس، وكل هذه المشاهد والمعنى الخفى من هذه الموسيقى.

فى الممر، فى تقاطع الأنفاق، كان العازفون يجلسون ويدقون الطبل، وكان هناك هؤلاء الذين أعرفهم، الأنتيين والأفارقة، وعازفين لم أراهم من قبل قط: صبي شعره طويل، بشرته صفراء ذهبية، من جزيرة سان دومينيك على ما أعتقد، ولم تكن سيمون تغنى، بل كانت جالسة وظهرها للحائط، ووجهها مقلع بنظارات سوداء، فمكثت بجوارها، وعندما تعرفت على ابتسمت، ولكننى رأيت وجنتها اليمنى متورمة، فقلت لها: "ماذا حدث لك؟"

هزت منكبيسها ولم تجب، وكانت موسيقى الجامبيه والديجون ديجون تنطلق فى إيقاع هادئ، وكانت بطيئة، هادئة تماماً. وكان كل ذلك يحدث تحت الأرض، ويصل حتى الطرف الآخر من العالم وكأن هدفها هو إطلاق موسيقى الجانب الآخر خلف المياه، كأغنية وكلمة. كنت فى حاجة إلى هذه الموسيقى، وكان ذلك يسعدنى، فلقد كانت مشابهة لصوت المؤذن الذى كان يعبر فوق الأسقف ويدخل فناء لالا أسماء، ومشابهة لصوت أجدادى فى بلد الهالين.

وفى لحظة، انطلقت إشارة تدل على أن الشرطة جاءت، ففر الجميع بسرعة، داقو الطبول والجمهور، فوجدت نفسى وحيدة مع سيمون كائنة التى ذهبت فيها إلى منزلها، ولكنها سألتنى هذه المرة وكان صوتها مخنوق

ومتكدر: "ليلى، هل يمكننى أن أمضى إلى منزلك هذه الليلة؟"، وكانت تعرف أين أقيم منذ ذلك المساء الذى وضعنى فيه مارتيال أمام باب مبيت السيارات، ولم أسألها لماذا تريد أن تأتى معى؛ و عدنا سيرا على الأقدام عبر باريس وسط رذاذ المطر.

أمضت سيمون يومين فى مسكننا، ومكثت دون أن تتحرك، راقدة على فراش أحضره نونو، وكانت ترتشف قليلاً من الكوكا، ثم تعاود النوم. كان المخدر يملئها، وقصت علىّ قليلاً مما حدث لها، فلقد أصبح صديقها مجنوناً، اتهمها أنها تخونه، ضربها، ثم اغتصابها ومعه شخص آخر؛ ولم ترد أن أقوم بإبلاغ الشرطة، فكانت تقول أن ذلك لن يفيد فى شئ، وأن الطبيب جواييه رجل مهم، وله أصدقاء فى كل مكان، يعمل فى هوتيل دى ديبه⁽²⁹⁾، ولن يصدق أحد عنه ذلك.

ذات ليلة، جاء صديقها يبحث عنها، وسمعت السيارة تتوقف خلف باب مبيت السيارات. لا أعرف كيف خمن أن سيمون مختبئة لدى، كان له جواسيس فى كل مكان. لم يحدث أى صخب، فلقد طرق برفق باب الحريق، فأحدث صوتاً خفيفاً كنت أسمعه فى نومي، وعندما أضأت المصباح، وجدت سيمون جالسة على فراشها، وعينيها منفرجتين على أشدهما كما لو كانت تنصت إليه؛ وكان يحدثها بهدوء من خلف الباب بنغته، لغة

(29) مستشفى شهير فى باريس يقع على نهر السين. (المترجم)

المستعمرات المنغمة والعذبة، فقلت لسيمون: "أتريدى أن أقول لسه أن يمضى؟"، وكانت لها نظرة غريبة، مخلوبة اللب، خائفة ومجنوبة، ورايت وجنتها متورمة، والدم الذى جف على قوس حاجبها، فشعرت بالضرب والخزى، وقلت لها: "لا تنصتى إليه، لاتجيبه، سينتهى بالرحيل عن هذا المكان"، ولكن الأمر كان أقوى منها، فأخذت تحدثه عبر الباب، فلم ترد أن تستيقظ الطفلة، كانت تهمهم فى صوت منخفض، فى البداية بالفرنسية، بالشتائم، ثم بلغة المستعمرات.

انتهت إلى فتح الباب؛ وفى الفيش، كانت السيارة المرسيديس واقفة، فوانيسها مضاءة، ولم يكن هناك سوى صوت غطيظ فتحات التهوية التى كانت تنطلق رويداً رويداً؛ وظلا يتحدثان طوال الليل، وفى لحظة، استيقظت، وكنت أشعر بالبرد، فلقد جعل باب مييت السيارات الموارب الهواء المبلل يمر إلى، ورايت المرسيديس، وكانت أنوارها هذه المرة غير مشعلة، وكانت سيمون وصديقتها يتحدثان وهما جالسان على مقعد السيارة الخلفى. ومع مطلع الصباح، رحلت معه دون أن تقول لى أى كلمة، فوجدت مشقة فى إدراك كيف أن امرأة مثل هذه تتعلق إلى هذا الحد بمثل هذا الرجل. اعتدت أن أذهب إلى منزل سيمون فى فترة ما بعد الظهر، عندما كان ماتريال جوييه خارج المنزل، كى أتعلم العزف والغناء بمفردى فى المنزل الصغير ببيت دى كاي، وكانت مصارع النوافذ مغلقة، فكسنت سيمون نخط مثلثاً بالشمع المشتعل فى آخر البهو، وفى المنتصف كانت تضع ما كانت

تحب من فواكه السوق، المانجو، الأناناس، العنب الهندي. لم أجسر على سؤالها لماذا. لم أطلب منها شيئاً على الإطلاق ولهذا كانت تحبني كثيراً. كانت ساحرة، كانت تتعاطى العقاقير أيضاً وتدخن الكوكايين عن طريق بيبية⁽³⁰⁾ صغيرة في لون الأرض السوداء. كانت جميلة في عينيها الواسعتين كعيني امرأة مصرية، وجهتها المكدبة التي كانت تلمع كرخام أسود.

كانت تعزف على بيانو إلكتروني متصل بمكبرتي تكبير صوت، وكانت تجعل الصوت منخفضاً للغاية، خشناً جداً حتى أسمعها بشكل أفضل، وقالت لي أنني يجب أن أتعلم عزف الموسيقى لأن إحدى أذني لا أسمع بها وأن كل الموسيقيين كانت لديهم معضلة، فكانوا أصماء، أو مكفوفين أو ببساطة مخبولين.

كان الدكتور جوييه لا يعود إلى المنزل خلال فترة النهار، وكان طوال الوقت في مستشفى لاسالبتيرير، يعالج أصحاب الأمراض العقلية، وكان هو أيضاً مجنون.

لم يكن ليحب ما تفعله سيمون بشمعها وقرايينها، فكان سيغضب إن عرف ذلك. ولكن سيمون كانت تخفي كل شيء قبل أن يصل، وكانت ترتب الشمع والبخور، وتضع السجادة في موضعها والمقاعد المريحة في أماكنها.

وضعت في ذهنها أن تعلمني الغناء، وكنت أجلس على الأرض بجوارها في ثوبي، أما هي فكانت تمد ثوبها الطويل على ساقيها كتاج

(30) الأنوبة التي يوضع فيها التبغ والكلمة فرنسية وعربية. (المترجم)

قرمزي، وكانت تعزف بيدها اليسرى على لوحة المفاتيح، يدها العريضة والخفيفة التي تهزول على النوتات، فقط ثلاث، أربع، خمسة نغمات أو اثتلاف ممتد، وكان على أن أتابع الصوت؛ ولهذا السبب كانت تعزف بيدها اليسرى حتى تتمكن من الغناء على الجانب السليم بالقرب من أذني السليمة، ولم أقل لها شيئاً ولكنها كانت تعرف أنني نصف بكماء؛ وكان أمراً لا يصدق أن تختارها فكرة تعليمي الموسيقى كما لو أنها كانت قد أسرقت أن هذا الأمر يشغلني وأنتي أعيش لهذا السبب.

كنا نمضي معا فترات بعد ظهر في منزل لبيت اوكي، وكنا نعزف الموسيقى، ونحتسي الشاي، وندخن الغليون، ونثرثر، ونضحك دون أن نعرف لماذا. كان لدى إحساس أنني ليس لي من صديقة كسيمون، تذكرت زمن الفندق، الأميرات اللواتي كنت أرقص لهن واللواتي كن يحملنني للحمام أو في مقاهيهن على شاطئ البحر؛ ولقد كانت كل تصرفات سيمون تصرفات أميرة منهن، إلا أن جزءاً من حياتها كان مأسوياً ولم أفهمه جيداً وسيظل سرا، وهو جزء من الجنون.

علمتني الغناء على موسيقى جيمي هانديكس، "محترقاً مع مصباح منتصف الليل"، "أيتها المرأة الماكرة"، "ضباب بنفسجي"، "الحجرة مليئة بالرايا"، "شمس حبك"، "فودو الطفل"، وموسيقى نانا سيمون، "الأسود هو اللون الحقيقي ليشرة حبيبتي"، "كنت أضع سحراً عليك"، ومودي وترز وبيليه هوليداي، "أيتها السيدة المتكلفة"، ولكنني لم أكن أغنى الكلمات،

كنت أحدث أصواتاً فقط، ليس فحسب من شفاهي وحلقى، إنما من أقصى أعماقي، من أعماق رثتى، من أمعاني. فقط أربعة أو ستة مقاييس، وكانت توقفنى، ثم أكثر فأكثر. كانت يدها ترقص على لوحة المفاتيح وكان لزاماً على أن أفعل مثلها مجموعة من ثمانى وحدات أو كانت تغنى بصوت خفيض وكان على أن أتابع وأغنى: "هابليبو، بابالولالى، لاليانولا.."

كانت تتحدث أحياناً عن جزيرتها فى الطرف الآخر من العالم وعن الموسيقى التى تتجاوز البحر حتى الأرض القديمة التى أنتشل منها أجدادها وببوعوا. كانت تلفظ أسماء الأمم، وكانت هذه الأسماء ترن بطريقة غريبة، وكأنها كلمات موسيقية: "ايبو، موكو، تم، ماندنكا، شامبا، غانبا، كيومانتي، أشانتى، فون..."

كأسماء آبائى الذين نسيتهم.

كانت تتحدث عن الفقر، وتقول: "إن الهاييتى هو الإنسان الأكثر قسوة فى العالم"، وكانت تقول: "إن الأسود يخون الأسود كزمن ديسالين⁽³¹⁾"، وكانت تقول: "عندما يفتابنا الجوع نوجه أعيننا نحو الداخل"، وكانت تتحدث عن شارع سيزار، عن بورت او برنس، كانت

(31) جان جاك ديسالين Jean Jacques Dessalines هو إمبراطور هاييتى ولد فى غينيه وعاش بين 1758-1806. كان عبداً أسوداً، ثار ضد رولسمبو وطرده من الجزيرة ثم أعلن نفسه إمبراطوراً على هاييتى عام 1804 بعد أن أمر بمذبحة ضد البيض أقتيل على أيدي خصومه. (المترجم)

تتحدث عن القلب الذى يدق وسط الزحام، عن أمها روز كارول التى كانت تنشد فوتو⁽³²⁾ فيما مضى حتى تحضر الموتى، كانت تدق الدف، وكانت هناك عين مفتوحة فى منتصف زاوية كهري فى فناء منزلها كذلك التى صممتها سيمون بالشمع. كانت تحكى، كانت تغنى، كانت تتحدث مع الدف، كانت ترى قدوم الاوس حتى هنا، حتى شارعها. كانت تردد أسمائهم، أسماء النباتات، السلاح الحقيقى، فواكه الروح الحقيقة، العنب الهندى والعسلق الداكن الذى يغطى الجزيرة بظله. وكنت أنصت إليها، وكانت هذه الأشياء مسلية لحد أننى كنت أنام من سماعى لها. ومن أجلس، كانت تعزف على لوحة المفاتيح، والنوتات التى كانت تكررهما دوماً، كانت نوتات خفيفة، أو كانت تقزع بأطراف أصابعها الدف الذى كان يتحدث، على السراد، على الديجون ديجون وكان الصوت يتغلغلنسى كما فى مسرات محطة ريومير - سيباستولبول، كان يصعدنى ويملأنى تماماً وكنت شبيهة بشعبان يتراقص أمام المروض، شبيهة بعيساوة⁽³³⁾ الأعيان، وكنت أدور حول نفسى حتى الدواخ.

لم نعد نتحدث. فقط هى جالسة القرفصاء فى وسط ثوبها، تهز نصف جسدها الأسفل، وتعزف الموسيقى وتغنى أغنياتها الأفريقية التى تأتى

(32) اللوتو vaudou عبادة روحية اعتادها زنوج الأنلى وزنوج هايتى. (المترجم)

(33) العيساوة Aissaouas هى فرقة دينية مسلمة نشأت فى شمال أفريقيا فى القرن

من الشاطئ الآخر من البحر وأنا كنت أردد حركاتها وجملها، حتى حركات عينيها وإشارات يدها بون أن أدرك، كما لو كانت هناك قوة مغناطيسية تقبضني إليها. كانت تفعل ذلك إلى أن تغرق شعل الشمع في الجس.

وعندما تنتهي، كنا نصير منهكتين، فكنا ننام على الأرض، على الوسادات المتناثرة في رائحة الدخان. وفي خسرج المنزل، كانت الناس تتحرك، وربما المقرو، القطارات، السيارات، الناس يهرولون كالحشرات المجنونة، الناس الذين كانوا يشتررون، يبيعون، يحسبون، يضربون، يخزنون، يستثمرون. نسيت كل شيء، حورية، ياسكال مليكة، بياتريس وريمون، ماري هيلين، نونو، الأنسة ماير، السيدة فروماجا. كل ذلك تزحلق وسار. الصورة الوحيدة التي كانت تأتي، ثم تستغرقني، هي نهر السنغال الكبير، ومصب الفاليميه⁽³⁴⁾، وحافة الطريق المنشطة في الأرض الحمراء في بلد الحاج، و إلى هناك كانت تحملني موسيقى سيمون.

ذات مساء، ماد مارتياك جوييه مبكراً عما هو متوقع، وفتح باب البهو، ثم جلس على العتبة لحظة طويلة ينظر. في خارج المنزل، كان الليل. كان الشمع المحتضر يصدر ضوءاً واهناً، وخمنت نظرة الطبيب الذي كان يفتش في الظلام؛ ولم يقل شيئاً، عبر البهو مصطدماً بدف سيمون، ثم مضى مستقيماً نحو صالة الاستحمام. من المفترض أنه غضب بشدة بسبب عبوره

(34) الفاليميه Falémé مصب يفصل السنغال عن مالي وتبلغ مساحته 650 كيلو متر مربع.

بصمت عبر هذه الأشياء. أوقفتنى سيمون ودفعتنى نحو الباب قائلة لى: "أذهبى، أذهبى، من فضلك"، وكان يبدو عليها الرعب، فقلت لها: "تعالى، أنت أيضاً، لا تبقى هنا". كنت على يقين من أنها إن كانت قد شاءت أن تسألنى معى هذه اللحظة، لكانت طليقة، ولكنها لم تفكر حتى فى هذا الأمر. وضعت نقوداً فى جيبى، وقالت لى: "هيا، استقلى سيارة أجرة كى تعودى للمنزل، فالطقس بارد"، ولا أعلم لماذا فكرت فى هذه اللحظة أننى لن أراها ثانية. كانت لا تستطيع أن تقرر مصيرها، ولهذا كانت كالرقيق، فلو قررت مصيرها، لمرة واحدة فقط، لما عادت تخشى مارتيا، ولا تخشى أن تكون بمفردها، ولن تكون فى حاجة إلى أن تخدر دنسها، أو تأخذ أقراص التميستا، كانت ستغدو حرة.

أما على مستوى الحاج، فلم تكن الأمور تمضى على ما يرام أيضاً، فلقد كان المحارب القديم يخشى الشتاء، وكنت أذهب إليه متى استطعت، بالقطار أو بالأتوبيس، إلى كوركورن حتى طريق فيلابيه. كان الريف مثلجاً، وكانت هناك طبقات جليدية خفيفة على المنحدرات، وكانت هناك حقول رمادية شاسعة حيث تحجل طيور الزاغ⁽³⁵⁾، وفى الشقة الصغيرة فى البرج B كان الحاج يجلس أمام النافذة مرتدياً قميصاً من الصوف السميك فوق قميصه الأزرق، وكان يضع قلنسوة متلبدة حتى عند النوم. كان يحلم عالياً بالنهر الكبير الذى يسرى ببطئ شديد عبر الصحراء حيث يسطع الضوء حتى

(35) الزاغ هو نوع من الغربان. (المترجم)

الكبير الذى يسرى بهبطى شديد عبر الصحراء حيث يسطع الضوء حتى فى الليل، وربما لهذا السبب كنت أمضى لرؤيته حتى يحدثنى عن النهر، وكان يحكى لى أيضا عن نهر فاليميه والمدن: كيه⁽³⁶⁾، المدينة⁽³⁷⁾، ماتسام، ويامبا قريته، كما لو أنه مازال يستقل زورقا كبيرا مصنوعا من جذع شجرة مع النساء والأطفال ناظرا للبيوت الملتصقة بالشاطئ وهى تمر، وطيور الكركى⁽³⁸⁾ التى تحلق فى السماء، وطيور الغاق⁽³⁹⁾. حدثنى عن مريما للمرة الأولى، حفيده، أخت حكيم، وقال أنها ماتت هناك ذات صيف وهى تمضى لتتري أمها، فلقد أصيبت بداء إبيضاض الدم فى أثناء فصل الأمطار، ودخلها البرد، وجمدها يوما بعد يوم ثم قتلها. ولم يرينى الحاج صوراً لها، ربما كان ذلك لا يفيد فى شئ. أرانى فحسب كتابها المدرسى، لأنه كان فخوراً بنتائجها، فلقد كانت فى السنة الأخيرة من الثانوية فى مدرسة سان لوى.

وكان ينسى أحيانا أنسها ماتت، فكان يحدثنى كما لو كنت أنا ماريما، ماريما الجديدة. وكان هناك شقاً فى داخله، عميقاً جداً كمظلمة مكسورة لا تتوقف عن إيلايه. ولم يرد أن يعود إلى هناك مطلقاً، فكان يقول: "لقد هدموا كل شئ، هناك طرق فى كل مكان، أترين، معابر، مطارات، وكل

(36) Kayes مدينة بمالى تقع بالقرب من السنغال. (المترجم)

(37) Médine قرية فى مالى تقع بالقرب من السنغال. (المترجم)

(38) طيور طويلة الساق. (المترجم)

(39) طيور من الفصيلة البجعية. (المترجم)

الزوارق قطعت مؤخرتها حتى يوضع محرك، فمعجوز مثلى ماذا يفعل هناك؟ ولكن عندما أموت، أريد أن تحملينى إلى بلدى، حتى يتم دفنى فى الأرض بجوار أبى وأمى، فى يامبا، على شاطئ نهر الفاليميه، فهناك ولدت وإلى هناك يجب أن أعود". عاهدته على أننى سوف أمضى معه رغم علمى بأن هذا الأمر على الأرجح مستحيل... وأنا أيضاً، لدى دار مقابر أود أن أدفن فيها.

وأيضاً، كان يتحدث عما رآه فى العربية السعودية ريثما قبل الحجر الأسود للملك جبرائيل، وماء منبع زمزم والذي جلبه فى زجاجة بلاستيكية صغيرة، وجبل عرفات حيث تحرق رياح الصحراء أعين المسافرين، كان وجهه مداراً إلى النافذة، وكنت أرى الجدار الكبير للمبنى المجاورة، كنا نسمع غطيط ليس من بعيد، من هناك حيث توجد جزيرة البوهيميين، ولكن ذهنه لم يكن هنا، لقد كان فى مكان آخر، فى ضوئه. ظللت مع الحاج حتى هبط الليل، وأعددت لنفسى الشاي، وغسلت الأواني، ثم رتبت أشياءه، وربما كنت أعرف فى داخلى أننى لن أراه ثانية، كالיום الذى وقعت فيه لالا أسماء فى المطبخ وأدركت أنها ستوفى.

كان الشتاء هو الذى أهلكه، فكان يشعر دوماً بالبرد، وكان حكيم قد اشترى له مدفأة تعمل بالزيت، وتدور فى النهار والليل، فكان الطقس حاراً فى الغرفة الصغيرة حتى أن العرق كان يسيل على البلاط، وكان الحاج يتوقف عن الكلام كي يسعل سعلة ثقيلة كانت تحدث صوت كمطرقة الإحداة فى جرف رثتيه، وهذا ما كان يؤلمنى. وكان حكيم قد قال لى أنه يعانى من

الاستسقاء الموضعي، وهو مرض كان يمنعه من التنفس، ولكنني كنت أعتقد أنه البرد فحسب، الرياح والمطر والسماء التي تمضي في الغيوم الرمادية والشمس الشاحبة، وأنه لكل هذه الأسباب كان يستنفذ قواه.

عندما أحسست أنه متمسك للغاية، انصرفت، وقبلت يده فأسند راحة يده للحظة على جبينى، ثم هبط بها على عينيى، على أنفى، وجنتى، شفتى. وقال: "إلى اللقاء، يا ابنتى" كما لو كنت بحق ماريما، وربما كان يظن أننى بحق هى، وربما كان قد نسى، وربما غدوت شبيهة بها من فرط المجيء إلى جدها، من فرط سماعه يقص على ما عاشه هناك على شاطئ النهر، وأنا لا أعرف جيداً من كنتُ.

بينما كنت أمضى نحو محطة كوركورن، عبرت جزيرة البوهيميين، وتحولت عن الطريق المباشر حتى أرى جيانيكو، فذات مساء، جاء نحوى كما لو كان يرقبني. كانت تبدو عليه الغرابة، وطلب منى سيجارة، وقال لى بصوت مختنق قليلاً: "برونا ساعت طفليها"، وعندما بدا على أننى لم أفهم، كرر وبدأ صبره ينفذ: "حقيقى ما أقوله لك، برونا ساعت طفليها". هبط الليل، وكانت المصابيح تضى نجوم صفراء على طوال الطريق وليس بعيداً، على حافة الركام الأسمنتى، وكان مبنى المتجر الكبير مضاءً كقصر أسطورى.

كان قلبي يندق بشدة، وسرت خلف جيانيكو، على طول درب الكلاب المؤدى إلى معسكر البوهيميين، وكنت أسير بسرعة، ولم أصدق ما قاله

لى جياننيكو، فلقد كان يبدو لى أن ما قصه علىّ هو قصتى أنا، عندما القائى
أشخاص مجهولون فى حقيبة كبيرة وحملونى وباعونى من يد إلى يد حتى
وصلت إلى لالا أسماء .

قادتني جياننيكو إلى كوخ خشبي سقفه من الصفيح يتكأ إلى عمود
أبيض، رأيت بعض الأطفال عن طريق مصباح غازى موضوع على الأرض.
وحول الكهف، كانت هناك أكوام من الفضلات، كراتين، علب صدئة، مربسة
مشتريات مستنفذة، وكان هناك أناس فى العربسة الكبيرة التى يسكنها
الرحالة، نساء ورجال يأكلون، ضوضاء تلفاز، و كلاب مربوطة فى سلاسل،
شعرها أسود مُنتفش. فتح جياننيكو باب الكوخ، وكأنت برونسا تجلس على
فراش من المعسكر، على مرتبة بلاستيكية ترتفع من كل طرف، وبجوارها،
كان هناك طفلان، صبية عمرها ست أعوام تقريباً، وصبى عمره أثنى عشرة
عاماً، كانت نظرتهم حادة وكان حاذقاً. كانوا يتحدثون اللغة الرومانية، وطرح
جياننيكو بعض الأسئلة على المرأة؛ كان طالعها رقيقاً، شعرها نونه أشقر
نحاسي قليلاً، عيناها شديداً الخضرة، صغيرتان، حيويتان كعيسى حيوان.
كانت تنصت إلى ما كان يقوله جياننيكو وكان نظرها يمشى منه إلى، كما لو
كانت تحاول أن تتبين الحقيقة.

ثم نهضت، وذهبت نحو نهاية الحجرة، وسحبت ستارة، وفى
مخدع النوم، كانت هناك عربة طفل سوداء، وفى العربسة كان هناك رضيع
ناثم. قال جياننيكو: "إنها أنثى"، وأضاف بصوت منخفض وبسريرة: "إننى

قلت لها أنك تعرفين إناس أغنياء، أطباء، محامين، وبدون ذلك، لم يكن لها أن تربك طفلها "، ولم أعرف بماذا أجيب، و نظرت إلى الرضيعة النائمة و المخفية كلها تقريباً بالثياب المسردة والملابس، وتساءلت: "ما اسمها؟"

هزت بورنا رأسها، وصار وجهها قاسياً وصلباً، وأجاب جياننيكو بعد صمت طويل: "ليس لها من اسم، من يشتروها سيمنحوها اسماً".

ولكن عندما خرجت من المنزل، قال لي جياننيكو بصوت منخفض: "أعلمين، هذا غير حقيقي، هذه الطفلة لها اسم، إنها تدعى ساجدة"، وفكرت في بياتريس المحررة، ما كانت قد قالت به بشأن طفلة حورية من أنه إذا لم تستطع أمها أن تتولى أمرها، فإنها تحب أن تتبناها. قلت لجياننيكو: "لو كان حقاً أن هذه المرأة تريد بحق أن تباع أبنيتها فأغني أعرف شخصاً ما يشتريها"، قلت ذلك وحلقت مشدود، لأنني فكرت في ذات الوقت أن شخصاً ما كان قد قال نفس الشئ في السابق عندما أختطففت وأنه من المفترض أن لالا أسماء أجابت هي أيضاً: "أستطيع أن أشترىها أنا". كان الطقس مظلماً ورمادياً هذا المساء، وكانت السيارات تمر من جانب جزيرة البوهيميين محدثة غطيط كنهر في فيضانه. اصطحبني جياننيكو حتى موقف الأتوبيس، ثم عدت إلى باريس.

بعد ذلك بثلاثة أيام، مات الحاج، وأخطرنى حكيم بذلك عن طريق صديق له؛ وكنت أعد نفسي "تلقي درس الفلسفة في مقهى لا ديميسبرانس عندما علمت هذا الخبر، فاستقليت على الفور القطار حتى إيفري --

كوركورن، وكانت السماء كعادتها دوما رمادية ومنخفضة، وكأن الأيام لا تمر، بينما كانوا يتحدثون في المذيع عن الثلج.

كان باب الشقة الصغيرة موارباً، فدخلت في هدوء كما لو كان الحاج لا يزال على قيد الحياة، ولم أرد أن أفزعسه. كان المطبخ الذى عادة ما كان يمكن فيه خاليساً، وفى غرفة نومه، كانت الستائر منخفضة إلى النصف. رأيت في البداية حكيم من ظهره، بالقرب من الفراش، ثم أناس آخرين لم أكن أعرفهم، جيران بلا شك، رجال مسنين، امرأه، فارعة وقوية، ظننت أنها على الأرجح أم حكيم، ولكنها كانت فى مستقبل عمرها، وكان فمها على الأخرى عربياً، بشرتها بيضاء، وشعرها مموج ومصبوغ بالحناء، ربما كانت هذه السيدة خادمة أو بوابة المبنى. كان الحاج راقداً على السرير، مرتدياً ملابس على أكمل وجه، دوماً فى قميصه الطويل الأزرق دون الرقبة وبخطاله الرمادى ذى الثنية المكوية الرائعة، وكان يتمل حذائه الثقيل الأسود المصقل، كما لو كان يعد نفسه للرحيل فى سفر، ولم أراه أبداً هكذا من ذى قبل: كان شكله متصلباً كقبضة اليد، وكانت عيناه منتفخة الجفون، وكان فمه وأنفه مغلقين ومشدودين، وكان يبدو على وجهه تعبير عن الحزن والضيق، وتذكرت ما قاله عن نهر السنغال، عن قريته يامبا وعن نهر الفاليميه، كل ما كان يحبه فى الدنيا، وفى أنه مات بعيداً جداً، وحيداً فى غرفته، فى الطابق الثامن من السجرج B الواقع فى طريق قباليه.

الآن الكل صامت، كان حكيم ينظر إلى بينما كنت أتلمس جبهة جده، لبرهة فحسب، فلمست جلده البارد المحبب بأطراف أناملي؛ وكان الجو شديد الهدوء، شديد الصمت، فوددت أن يكون هناك صخب، كما يحدث في الأفلام عندما نسمع النسوة تبكين في تنهدات طويلة مشجية مبالغ فيها، ويكون هناك جلبة من أصوات الرجال وهم يحتسون قهوة الميت، أو كما يحدث لدى المسيحيين في ضففات الصلوات. كان هناك كلب يعوى في الغناء، وكان عوائه عواء حزن، ولكن لم يكن هناك أى شئ آخر، فقط ضوء تلفاز في مكان ما في أعلى المبنى، وكان القادمون ينسحبون واجمبون متحاشون أن ينظروا إلى. وتمنيت أن يكون هناك عازفو التسم تم بمحطة المترو حتى يعزفوا دون توقف موسيقى كصوت الرعد عبر الغابة، تحيط بهم ورود، وتغنى سيمون بصوتها الخفيض، "الأسود هو اللون الحقيقي لبشرة حبيبي". خرجت المرأة البدينة بهدوء، وتبينت أنها تشبه لالا أسماء، كانت لها نفس النظرة الشاردة المتأمللة قليلاً خلف عدساتها، ولا أعلم لماذا مسكتها من قبضة يدها واقتدتها نحو الفراش قائلة لها: "من فضلك، امكثي قليلاً، لا ترحلين"، فهزت رأسها، وكان صوتها أجشاً، مخفناً حينما قالت: "لقد كان طيباً". قالت ذلك كما لو كانت تعتذر، انسحبت ببطء، ودفعت أناملي، فكنتها واحدة تلو الأخرى، وكان عليهما تعبير بالخوف في عينيها الخضراوتين، وكان يبدو لي أن حدقتيهما السوداوين تسبحان في منتصف قزحيتهما.

نهاية، خلصها حكيم منى، ثم مسكنى من كتفى، كما يجرى مع مجنونة بالهستيريا، فقلد كان حكيم بمثابة أخى، وكنت بالنسبة له كما ريما. أحسست على وجهى وكأن أنامل الحاج الهرمة تمر برقعة على عيني، على وجنتي، على شفتي، فلم أعد أفصح فى التنفس، وكان هناك شئ ما ينتفخ فى، فى صدرى، يكظم حلقى، وتمتعت: "كان لى جسداً، ذلك حق، أما الآن فماذا أكون؟"، وكنت أتمتع بكلام غير مترابط، وكان الكلام يخنقنى. فتن حكيم أننى أبكى ولكن لم تكن هى دموع، إنما الغضب، ووددت لو أن أهشم كل شئ فى هذا المبنى، ووددت لو أشق السماء الكثيفة التى كانت قد منعت الحاج من الرؤية، أهشم الزجاج والستائر، أهشم عربات القطارات والأتوبيسات، قضبان السكك الحديدية، السفينة التى تنتظر وقتاً كبيراً كى تشارف شواطئ نهر السنغال ويامبا على نهر الفلاميه.

شدنى حكيم بسرعة لدرجة أننى انهزت على الأرض بجسوار الفراش ورأيت كل ما نزع الحياة عن الحاج، المبوللة، زجاجات الكرتزون⁽⁴⁰⁾، وكل ما سقط منه على الأرض والذى لم يكن هناك وقت كسى ينظفه أحد فعنى حكيم للحظة طويلة فى صدره، وأظن أنه هو أيضاً كان فى حاجة للمواساة؛ وفى لحظة ما، قبّلنى، وشمرت بالدموع تنساب على وجنتيه، ثم انتهى ذلك. نهضت وانصرفت، لم أنظر إلى جسد العجوز كامل

(40) الكرتزون cortisone هو هرمون ذو فعالية فى معالجة التهاب المفاصل الرثياني.

الثياب على فراشه. اعتقدت أنه لن يعود إلى بلاده على شاطئ النهر، سيظل في فيلابيه في دار الموتى حيث سيجدون له موقعاً صغيراً؛ وبدلاً من التسهر، سيسمع ضوضاء السيارات على الطرق السريع، وهل لهذه الأشياء أهمية؟ في القطار، المشابه للصحراء في هذه الساعة، رأيت الليل يسهط عبر الزجاج القذر، أظن أنني كنت أفكر في ماجدة أكثر من الحاج، وكان الثنى على شفتي، ولم أكن قد تناوئت أو شربت شيئاً في الصباح.

قبل أن أدخل باريس، تركت نفسي أقع في شرك مفتشى القطار؛ وعادة كنت أراقبهم جيداً، فكنت أهبط لحظة صعودهم؛ ولكن هذا اليوم، نسيت نفسي، وكنت في حلم، فاترة الهممة، كما يحدث لإنسان على أثر الإصابة بألم شديد. ربما كانوا قد شاهدوني من نى قبل، وعندما نظرت إليهم كانوا أمامي، وجاءوا تجاهي مباشرة متجاهلين الركاب الآخرين؛ وكان هناك الأطفال البوهيميون - الذين رأيتهم لأول مرة مع جيناكو -، فأسرعوا في الفرار مظهرين لهم أصابعهم، ولكن رجال التفتيش كانوا يبهوننى أنا، وفي البداية، كانوا مهذبين معي ورسميين تقريباً.

قال أحدهم: "آنستى، ما معك من بطاقة سفر، تفضلى بإخراج بطاقتك الشخصية لنا"، وعندما قلت لهم أننى ليس معى بطاقة شخصية، ومن ناحية أخرى، حتى لو كانت معى، ما كان لكم الحق في طلبها منى. أصبحوا أقل أدباً وقال أحدهم: "فى هذه الحالة، تمضين معنا إلى المركز".

كانوا عبارة عن زوج من الرجال متناقضين في الشكل، أحدهم فارح وقوى، ذقنه ثنائي وشاربه صغير ولونه أشهب، أما الآخر فقصير وأسمر البشرة ويبدو عليه الانفعال، وهو يتكلم بلهجة مدينة تولوز⁽⁴¹⁾. أخذاني، كل واحد منهم من ذراع، ومروا بي في القطار من عربة إلى عربة حتى الفاطرة، ثم أجلساني بينهما على مقعد صلب بجوار الباب، وقلت لهما إنهما يتمسفون في استخدام القوة وإنه لم يكن لهما أن ينجأ إلى العنف معي، ولكنهما ظلا غير مكترئين بما أقول. استمر القطار في السير نحو باريس، ثم هبط الليل، وكان حارسي يتحدثان فوق رأسي كما لو أنني لم أكن بينهما، كانا يتبادلان أخبار مكتبتهما، ويقصان حكاياتهما، وكان بوسعني أن أثير شفتيهما بأن أقص عليهما أن جدي مات وأنه لهذا السبب افلحا في مباحثتي في القطار، ولكنني لم تكن لدى الرغبة في أن يشفقا عليّ في أي شيء، ولا من أجل أي شيء في الدنيا، ولم أرد أن استخدام الحاج في الحصول على ميزة من مثل هؤلاء المرتزقة.

في محطة اورستريتز، حملاني إلى مكتب صغير خلف منافذ التذاكر، ثم تركاني أنتظر ساعة كاملة، وفي خلال كل هذا الوقت، ظلا أمام الباب يشعلان السجائر ويتبادلان نكاتهما، فظننت أنني سمكة صغيرة في يد رجلين قويين للغاية يرتديان زياً موحداً، ويحملان أصفادهما ومسدسيهما

(41) إحدى مدن الجنوب الفرنسية وتتميز بكونتها المختلفة في تنعيم الأصوات عن اللهجة

الأوتوماتيكين، ولكن ربما كانا يعتقدان أن ما من شيء عديم الغزى فى الحياة، وأن هناك أناس يحبون الاعتقاد فى ذلك.

وصل رئيسهما، أراد أن يستجوبنى، فجلس بالقرب من وجهى، وقال: "ما اسمك؟"

- ليلى.

-- هل أنت بالغة؟

- لا أعرف، نعم، لا، ربما.

-- أين أبوك؟

-- فى أفريقيا.

وهنا ساءت الأمور، وكان رئيس المكتب قصير لا شأن له، يدعى كاستور، وكان ذلك على الأرجح اسمه الذى فككت رموزه من على مظروف وضع مقلوباً على مكتبه.

-- أليس معك مستندات شخصية ؟

كأنت المخاطبة بصيغة أنت علامة على الانفعال؛ وحتى أهدأ الموقف، طرأت على فكرة طيبة، فقلت له: "يمكنك أن تستدعى محاميتى"

- أتريدن أن أصغعك صفقة؟

لم يكن ذلك بمثابة الوسيلة المثلى لتهدئتهم، فقلت: "حسناً، هى ليست بحق محاميتى، إنها السيدة التى تهتم بأمرى، وهى تعمل محررة".

أعجبهم قولي، فأملت عليهم اسم ورقم هاتف بياتريس، على أنها محررة أو معلمة، فلم يكن ذلك مختلف كثيراً، ولم أريد أن يذهبوا حتى شارع جافلو، حيث كانت هناك مضائق كافية تواجه كل من نونو وحورية، ولحسن الحظ، أنني منذ أن دخلت إلى بياتريس، فعلت كالفدائيين في أفلام الحرب، نزعنت عني كل ما يمكن أن يفيد في التعرف على هويتي.

قدمت بياتريس على الفور في سياراتها الصغيرة الإنجليزية، فسدت كل شيء، التذكرة والغرامة، وحتى أنها تلقت منهم وعظاً.

كانت السماء تمطر رذاذاً، وكسنت مساحة زجاج السيارة تحدث صريراً على الواقية من الريح، كما لو كانت السماء تمطر رمالاً، وقلت لبياتريس: "لن أستطيع أن أعود إلى منزلي".

نظرت إلى اللحظة، وبحثت عن شيء تجيبني به، ثم قالت: "إذا شئت، يمكنك أن تأتي لتنامين في منزلي، ريمون لن يقول شيئاً".

ولم يكن هناك من شيء أكثر من ذلك يسعدني، وضعت رأسي على كتفها، فلقد كنت في هذا المساء في حاجة إلى أن أومن أن لي شخصاً ما في الحياة، صديقة أو أخت كبرى.

مكثت وقتاً طويلاً في منزل ريمون وبياتريس، وأظن أنني كنت متعبة للغاية، ولم ألاحظ ذلك، لأنني كنت أغدو وأمود، ومر بي الكثير من الأحداث: رضية حورية ونونو والدروس والمشتريات وسيمون التي كانت

لدينا، والحاج الذى رحل عن الدنيا، وفجأة، لم تعد لدى القوة، كاللحظة التى تركت فيها منزل السيدة وحملنى نونو إلى شارع جافلو.

مكثت عشرة أيام فى منزل بياتريس، أو ربما شهر، لا أستطيع أن أجزم بذلك. فى خسارج المنزل، كان الطقس بارداً، دافئاً، أو لربما كانت السماء تثليج، فظللت راقدة على الفراش الموضوع فى جزء من الصالون يستخدم كمكتب، بينما ظلت بياتريس تنام فى حجرة نومها، وكانت هناك كتب فى كل مكان، فى كراتين وعلى الأرفف، فكنت أمضى وقتى فى قراءة الروايات أو كتب التاريخ وأيضاً الأشعار. كنت أطلع مالابرت⁽⁴²⁾، كامى⁽⁴³⁾، أندرية جيد⁽⁴⁴⁾، فولتيرو، دانتى، براندلو⁽⁴⁵⁾، جيليا كريستفا،

(42) Malaparte كاتب إيطالى عاش بين 1898 و 1957. من أشهر رواياته "الجلد " La peau (1949). (المترجم)

(43) Albert Camus روائى فرنسى عاش بين 1913 و 1960 من أهم أعماله الروائية "الغريب" L'Étranger 1942 "والطاعون" La peste 1947. حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1957. (المترجم)

(44) André Gide روائى فرنسى عاش بين 1869 و عام 1951. من أهم أعماله "الأطعمة الأرضية" nourritures terrestres 1902، "الباب الضيق" La porte étroite 1906 "وعندما لأموت الحبة" Si le grain ne meurt 1920-1924. حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1947. (المترجم)

(45) Pirandello كاتب إيطالى عاش بين 1867 و 1936. من أهم أعماله "لكن حقيقته" 1917 و "سنة أشخاص تبحث عن مؤلف" 1921. حصل على جائزة نوبل عام 1934. (المترجم)

ايفان اليش⁽⁴⁶⁾. فوجدت أنهم جميعاً يستخدمون نفس الكلمات ونفس الصفات، ولم يكن ذلك أمراً مؤثراً، ولم يكن مؤلماً، فلقد كان يتقصي فرانس فانون. حاولت أن أتخيل ما يمكن أن يقوله، وكيف كان يمكن له أن يتحدث عن الدين، وضحكته الساخرة أمام مثل هذه السخافات. كان الشعر الذي طالعتة غريباً، كما لو كان ليس لثني ولا يخاطبني؛ ومع ذلك، كنت أحسب أن أنقني هذه الكلمات لكي أغنيها، لكي أطلقها في الغرفة، ثم أسمعها ترتد، تتحطم إلى ألف قطعة، أو على العكس تسقط مفلطحة على الأرض كفاكهة زائلة؛ وكنت أمسك بكراس أسطر فيها الكلمات التي كنت أعثر عليها وكذلك أطراف جمل:

طقس

ظلال

طائر القيثارة⁽⁴⁷⁾

مصقلة الفجر

يحرف

الأمواج ترتطم

طريقة السماء.

(46) Ivan Illich كاتب من أصل نمساوي ولد في فيينا عام 1926 أنشأ جامعة حرة في

المكسيك. عُرف بمهاجمته القاسية لأنظمة التعليم. (المترجم)

(47) طائر القيثارة هو طائر به ريشتان طويلتان تجعله يبدو كالقيثارة. (المترجم)

وكان ذلك لا يعنى شئ. كانت بياتريس تعود حسوالى الساعة السادسة، كانت تفتح الباب وتدخل تحمل معها نسمة من الديرسة، من الضوضاء، من الدخان، وكان ريمون يأتى بعد ذلك، فكان يحمل الخمر، وكنا نتناول نحن الثلاثة فى المطبخ، فطائر حبقية و جبن، وكنت أحب أن أظل معهما، فلقد كانا أناس أمناء جداً وواضحين جداً وطيبين جداً.

أجلت لحظة التحدث إليهما عن ماجدة، فلقد قلت لنفسى أننى ما إن أتلفظ باسمها، حتى لا يكون أمامى إلا أن أنصرف، وسيعود من جديد الشارع المفتوح والناس الذين يدفعوننى و ضوء السيارات ومدخل شارع جافلو المقابل لدهليز يؤدى إلى مركز الأرض.

كانا يتحدثان عن مهنتهما، فكانت بياتريس تقص ما يحدث فى يومها: صرخات رئيس عملها، المحادثات الهاتفية، مشكلات لم أفهم منها شئ، كما لو كان كل هذا العالم مشفر، أما ريمون فكان يتحدث بكلمات أحادية المقطع، وكان يتدرب فى مكتب محاماة بعيداً فى منطقة سارسيل أو فى منطقة فلرى - موراجيس، وكان مكلف بشئون الآخرين.

حاولت أن أتخيل حياة ماجدة لديهما: ماجدة فى الغرفة المدهونة باللون السورى، لها فراش بهى كله أبيض، والبلىور الذى تنبعث منه موسيقى والذى يعلق فى هذا البلد فوق الرضخ لتعليمهم الصبر، و ماجدة مهرولة نحو المطبخ مائة ساعديها الصغيرين نحو ريمون صائحة: "دادا"، فيقول لها: "جولى" أو "رومى". وعلى أية حال، لم تكن القضية أن يعرفا

اسمها الحقيقي، فربما ذات يوم، عندما تكبر، سأكون بالنسبة لها بمثابة خالتها، ويمكنني حينئذ أن أخبرها بالحقيقة قائلة لها: "سوف أقول لك اليوم اسمك الحقيقي، الاسم الذى ولدت به"، وربما سيقول لها ذلك جيانيكو، فقد تقابله ماجدة مصادفة فى معبر مترو، فى محطة ريموير - سيياستوبول، و يناديها حينئذ صائحا: "ماجدة، ابنة خالتي".

سماها كلير، لأن ذلك الاسم كان اسم أم ريمون، وسماها جوهانا، ذلك أن بياتريس كانت تحب هذا الاسم، وكانت تفتنى لها: "هيا يا جوهانا"، وكانت فى الخامسة عشرة من عمرها أثناء حرب فيتنام كالكثير من الصبية الآخرين.

لم أعرف كم دفعا فيها، فلقد ظللت بالخارج، فى الريح، أسمع صوت السيارات المتدفقة حول الجزيرة، كانت هناك غريبان فى السماء، كما حدث فى يوم ميلادى، ولكن الغريبان لم تكن تصيح صيحات الهلع.

حدث كل ذلك فى هذه الفترة، وربما فعلا ذلك بسبب رحيل حورية إلى منزل السيد في، وأصبحت أميش بمفردى، ولكى أكسب قليلاً من النقود، عُينت من قبل هيئة للنجم كى أضع بطاقة على مناضد المطاعم مع حامله مفاتيح فأجمع القليل من النقود؛ وكنت أنتبه جيداً عندما كنت أمضى أضع حوامل المفاتيح فى مطاعم المركز التجارى، أو عندما كنت أمضى أستمتع للموسيقى فى محطة ريموير، ولم أكن أمر مرتين من مكان واحد قط، وكنت أتحاشى الدهاليز المهجورة والبوابات الكبيرة و لم أكن أنظر إلى أى شخص فى عينيه.

كنت أعرف العصابات من بعيد، حيث كانوا يشكلون مجموعات صغيرة في الشارع بجانب إيفرى أو في جانب ميدان جان دارك، وما إن كنت ألح مجموعة منهم، أسرع فأعبر الشوارع بين السيارات وأختفى في الجانب الآخر، كنت سريعة وماهرة جداً، وما من أحد كان يوسعه أن يلحق بي. وفي بعض الأحيان، كان ينتابني إحساس أن هذه هي الغاية، أو الصحراء، وأن هذه الشوارع عبارة عن أنهار، أنهار كبرى من الماء المغلي الذي تغرس فيه الصخور، وأنني ألقى بنفسى من صخرة إلى أخرى وأنى أتراقص. كانت ضوضاء منبهات السيارات وغطيط المحركات تأتي من تحت الأرض وتصعد عبر ساقي، ثم تملأ أحشائي. وبالرغم من ذلك لم أرى هذا الرجل وهو يتقدم إلى؛ فعلى الساحة الكبرى التى مسحتها الرياح وأضاءتها الفوانيس، كان يبدو طبيعياً ككل الناس، فى واقى المطر وقبعته العسكرية، وكانت يده فى جيوبه، وكان وجهه أشهب، وكنت آنذاك منهمكة فى حصر النقود التى جمعتها من مطعم الفيتناميين، مائة أو مائة وخمسين فرنكاً، فى بضعة دقائق، دون أن أفعل شئ سوى وضع حوامل المفاتيح على حافة كل منضدة مع بطاقة تدل على أنني صماء بكماء.

فى اللحظة الأخيرة، رأيت نظرتي لى، ثم انتابني خوف لأننى عرفت من قبل عيون هابيل القاسية الثاقبة حينما تبعنى إلى مغسل الثياب، ولكن كان قد فات الآوان، فمسكنى من قبعتى يدي ورشدى بقوة هائلة دون أن يقول كلمة. على الأرجح أنه راقبني، ثم جاب المتاجر حتى يعود ويجدنى فى

المكان الذى كان يرغب أن يجدنى فيه، فى حائط التقوية، الواقع بين جدار
البرج والمتاجر المغلقة.

أردت أن أصرخ، ولكنه دفع يده على جوفى ولكمنى كما لو كان
يريد أن يكسرنى إلى جزأين، وفقدت النفس وانهرت وأصبح ساعدى وساقاى
عديمى الحركة. كان هذا أمراً قريباً لأننى مع ذلك كنت أعلم ماذا سيحدث
لى، كنت خائفة القوة كما يحدث للإنسان لحظة الكابوس. نزع أزرع بنطالى
الجينز بإحدى يديه، فلقد كان قوياً ومهمازاً، وبأيدى الأخرى مسكنى من
الخلف فى مواجهة حائط التقوية، وأتذكر أننى شممت البول، وكانت هناك
رائحة مفزعة هاجمتنى، وجملتنى أتقياء، وأبان عن نفسه وحاول أن يفعل
بى وهو يدفع كليتيه، وكان تنفسه يحدث صوتاً، فيرن فى زاوية المبنى.

لا أعلم كم من الوقت استغرق هذا الأمر، ولكنه بدا لى وكأنه أبهى:
هذه اليد الموضوعة على صدرى، وهذه الكلمات الموجهة إلى جوفى، وأنا التى
لم يكن بوسعها التفكير ولا التنفس. وكان يبدو لى أن هذا لن يبلغ نهايته
مطلقاً. ثم انسحب الرجل، وأظن أنه لم يفلح لأننى كنت قصيرة بالنسبة له،
أو لأن شخصاً ما قد ضايقه، فرحل بسرعة، وظللت أنا فى الركن، وكنت
مثلجة وواهنة، وكنت أنزف دماً على الأسمنت. هبطت السلم حتى الشارع
وعدت إلى الكهف، سخنت مغلاة ماء حتى أغتسل فى حمام رضيعة حورية؛
كان كل شئ ساكناً ومختنقاً، وكان يبدو لى أننى صماء تماماً فى هذه اللحظة،
ولم أكن أعلم أين كنت، وأعتقد أننى تقيأت فى الحمام فى نهاية الممر، وأظن

أننى صرخت ، فتحت باب الإنقاذ وصحت فى النفق ، وأنا أزار حتى يصعد ذلك إلى أعلى الأبراج ولكن لم يسمعنى أحد ، فلقد كانت هناك محركات تهوية ، تنطلق الواحد بعد الآخر مع رجة كرجة طائرة ، فابتلع ذلك كل صراخى . فكرت فى سيمون ، فلقد كانت لدى رغبة محمومة فى رؤيتها وفى أن أكون بجوارها وهى تردد مقطعاً موسيقياً ، ولكننى كنت أعرف أن ذلك أمراً مستحيلاً ، وأظن أننى غدت بالغة فى هذه الليلة .

كان أمراً طيباً أن أكون نائمة عن كل شئ فى منزل بياتريس ، فمضى وقت طويل لم يحدث أن كنت فى مأمن دون تفكير فى الغد ، ودون هموم ، وكنت أفعل ما أريد أن أفعله فى الشقة ، فى ترتيب الأشياء بهدوء ، فى مراقبة الرضعة مثلما كنت أفعل عندما عادت حورية من المستشفى ، مع وجود فارق وهو أنه فى منزل بياتريس ، كان هناك الضوء والشمس ، وكان الطقس رائعاً ولم يكن هناك ما تُخشى عقابه ، وكانت نافذة البهو تطل على فناء داخلى صغير حيث ينبت شجر اللبلاب ، وكان ورق الشجرة ملئاً بعصافير الدورى ، حتى أننى ذات صباح ، وجدت دورياً على حافة النافذة ، وكان منشياً عليه ، وكان ريشه مشعث ، فأخذته وسميته هارى ، ثم أخذت كرتونة أحذية من الدولاب الخشبى ، ومن القطن صممت له عشباً أملس ، ثم وضعت فى غرفة الرضعة بجوار فراشها ، وكان ذلك أمراً يبدل على عذوبة وحنان ، كما لو أننى لم أرى شيئاً رديئاً فى الدنيا ، وكما لو لم يكن هناك عصابات ولا عسكر ولا فتيات مقهورات ولا شيوخ يموتون من الجوع فى

أكواخهم القذرة ذات المصارع المغلقة. أعددت قارورة الرضاعة لكليسير، أو لجوهانا - وكنت أفضل هذا الاسم الأخير - ثم أخذت بعض قطرات الحليب الساخن كي أمزجها بباطن الخبز.

في علبه الأحذية، كان هارى مبللاً، ولكن ريشه بدأ يجف من الماء، وكان ينظر إلى وأنا أضع كرات الخبز أمامه دون أن يتحرك، عدا عينه السوداء التي كانت تهرق، ثم أعطيت قارورة الرضاعة لماجدة - لم يكن بوسعي حقاً أن أنسى اسمها الحقيقي - وفي اللحظة التي انتهت فيها الرضعة من تناول الحليب، بدأ العصفور يزقزق ويحمحم في الملبه.

لا أعرف إن كان قد أفلح في التهام قطعة الخبز الصغيرة أم لا، ولكن درجة الحرارة المناسبة في الغرفة الصغيرة أنعشته كليته، وبعد ذلك بلحظة طار، وأخذ يترقع خشب النافذة؛ ومن الجانب الآخر في أوراق الشجرة، كان رفاقه الصغار يطربون في كل اتجاه وينادونه، مما جعلني أفتح النافذة ليغير على الفور؛ وفي خلال ثانية رأيته يختلط بمصفير الدوري الأخرى، كانوا يتزويجون كأوراق في الريح، وبعد مرور لحظة من ذلك، أختفى هارى معهم.

بينما كنت أمد قارورة الرضاعة إلى جوهانا، رأيت المفتشين في الأسفل في الشارع، كانوا يرتدون ملابساً على نهج كل الناس: وقاء مطر وسترة وأحذية تزلج، ولكنني عرفتهم جيداً، فقلد كان لدى حاسة تجاه هذا الصنف من الناس؛ وكانوا ينظرون نحو نوافذ المبنى كما لو كانوا يسعون

للرؤية من خلال الستائر، ثم دخلوا إلى المبنى، ومن الجائز أنهم طرحوا أسئلة على البواب البرتغالي الذي لا يحبني، ثم دقوا جرس الباب بشكل مستمر، فصيح دقهم للباب جوهانا، وكان دقهم يرن في أعماق رأسي كصيحة حشرة.

لم أتحرك من مكاني حتى رحلوا، وكنت مضطربة، ولم يكن بوسعي أن أظن دقيقة واحدة أكثر من ذلك في المنزل، ومع ذلك لم يكن بوسعي أن أترك جوهانا بمفردها تصرخ في مهدها؛ حينئذ بحثت عن رقم هاتف بياتريس في جريدتها، وكنت مضطربة إلى حد أنني وضعت سماعة الهاتف على أذني الصماء، و لم أكن أسمع شيئاً مما يُقال، وكنت أكرر كلماتي كالخبغاء: "بياتريس، من فضلك، عودي فوراً، من فضلك، عودي فوراً، الأمر عاجل، من فضلك يا بياتريس"، وفي اللحظة التي دلفت فيها أغلق الباب، دق جرس الهاتف، وبوضعي للسماعة على أذني السليمة سمعت بياتريس تقول لي: "ليلي، ماذا يحدث؟"، فقلت لها أن تعود، لأنه ينبغي عليّ أن أرحل، وكنت في هذه اللحظة هادئة للغاية، فوضعت سماعة الهاتف قبل أن تطرح عليّ أسئلة أخرى؛ ثم نامت الرضيعة جوهانا، وحينئذ مشيت في الشوارع نحو محطة أوسقرليتز.

عدت إلى شارع جافلو، وعندما سرت في النفق الطويل حتى باب مبيت السيارات حيث طلى رقم 28، كان قلبي مقبوضاً، فلقد بدا لي أنني لن يمكنني أن أعيش في هذا المكان، وأن حياتي لا يد وأن تكون في مكان آخر،

لا يهم أين، بل أنه ينبغي أن أرحل وحسب؛ وكان جياننيكو يقول مثل قولي هذا "أتعلمين، في بعض الأحيان، ينبغي عليّ أن أفر، فالأمر أقوى مني، وبعد ذلك، ربما أعود، ولكنني إذا بقيت هنا، فسوف أقتلك وأقتل نفسي"، وفي هذه اللحظة، أدركت ما كان يعني أن يقوله.

في شقتنا، لم يتبدل شيء، كنا نختنق من جهاز التدفئة الذي كان يرهق شركة الكهرباء حتى الموت، ولاحظت أن نونو جلب أجهزة جديدة، أجهزة تلفاز، أجهزة عرض مرئية، تسجيل كبير، وكانت هناك أيضاً دراجة نارية جديدة، حمراء اللون مقعدها في لون جلد الحمار الوحشي، ولم أدرك لماذا كان لدى إحساس أنني أدخل آنذاك إلى منزل أطفال، وأعطاني ذلك رغبة في أن أضحك وأبكي في آن واحد.

على الفراش وجدت مظلوماً يحمل اسمي، ولم أكن أعرف الكتابة الأنثوية الكلاسيكية، وكان مدوناً عليه: "إلى الأنسة ليلي، باريبي"، فتحتة ولم أدرك الأمر على الفور، وكان ذلك جواز سفر باسم ماريما مافوبيا.

كان الكهف خالياً، فلم يمد هناك أي أثر لحورية ولا لبسكال مالكة، ولم يكن مهدها هناك، فأحدث ذلك الأمر فيّ شيئاً ما، حتى ولو أنني أدركت في أعماقي أنها رحلت من أجل شيء أفضل من هذا المكان وأنها من الممكن ألا تعود.

في جواز السفر، في موضع الصورة، كان هناك خطاب، وتعرفت على خط حكيم الردي، فلقد كنت أجد مشقة دوماً في مطالعة محاضراته.

ما كان يقوله في الخطاب كان سهل الفهم، ومع ذلك فلقد قرأته
واعدت قراءته دون أن أفهم: "عزيزتي ليلي

قبل أن يرحل جدي، كان قد وضع جانباً جواز السفر لك، وكان
يقول أنك كابنته، وأنت أنت التي تستحق جواز السفر هذا، حتى تذهبين إلى
حيثما تريدين، كالفرنسيات، لأن ماريما لم يكن لديها الوقت لتستخدمه؛
ستفعلن ما تريدين، أما بالنسبة للصورة، فإنك تعلمين أنه بالنسبة
للفرنسيين كل السود متشابهون.

أردت ان أراك قبل أن أرحل، فلقد قررت أن أحمل الحاج إلى بلده
على الرغم من كل شيء، ولقد اقترضت من البنك من أجل سراستي، وهو ما
يفيدني في ذلك الأمر، إن الأمر ينطوي على خسارة لأنك لست معنا حتى
نذهب إلى منزل جدي في ياما؛ ولكنك الآن وبحوزتك جواز السفر هذا،
يمكنك أن تذهبي إليها في يوم ما، وسوف أشرح لك أين يوجد قبره. أعانقك.

حكيم "

عندما علمت الأمر، أحسست بالدموع في عيني، ولم يحدث ذلك
منذ موت لالا أسماء، فلم يقدم لي أي إنسان هدية مماثلة، اسم وهوية. وكان
ذلك بمثابة أمر يجعلني أفكر فيه، هذا المعجوز المكفوف الذي كان يضع برفق
أطراف أنامله المستهلكة على وجهي وعلى جفوني وعلى وجنتي. ولم يخطأ
الحاج ولو مرة واحدة، فإذا كان يلتقيني بماريما، فلا يعني ذلك أنه فقد

صوابه، بل كان ذلك ما أراد أن يفعله أن يمنحني اسماً وجواز سفر وبالتالى حرية فى السير.

أدركت أن فصل الربيع لم يكن بعيد عندما أخذت أشجار المركز التجارى فى الأزهار، فلقد كانت هناك أشجار غريبة صغيرة غرسها الفيتناميون، أشجار خوخ، أشجار كرز، أشجار نراقن قديمة، تلك التى كانت تتدثر بزغب أبيض أو وردي، وكانت السماء دائماً شهباء وممطرة، ولكن النهار أصبح أكثر طولاً، وكانت كرات المطر الهشة تدخل السعادة على قلبي.

منذ أسابيع لم أعد أعرف أخباراً عن نونو ولا عن أى إنسان، ولم أعد أذهب إلى محطة ريومير - سبستوبول لكى أستمع إلى موسيقى الجامبة. هتفت إلى سيمون، ولكننى لم أجد على آلة الرد الهاتفى سوى صوت الطبيب جوييه، الصوت الأنيق المحترق الذى كان يرعشنى، فلم أترك اسمى على الآلة. وبمفردي فى الكهف، كنت أسمع، أحياناً فى الليل، طقطقات الديزل أمام الباب، فكان قلبي يبق بشدة لأننى كنت خائفة، ولكن خوفي كان فى خيالى.

جاء نونو ذات ظهر يوم من الأيام، ولو كان قد جاء بعد ذلك بقليل، ما كان لى أن أتعرف عليه، فلقد كان حليق الرأس، وكانت له نظرة غريبة، قلقة، جانبية لم أكن أعهد لها عليه. قدمت له الطعام، فطائر محشوة بالجبن والتى كان يحبها، وتفاخ رمادى أحمر، وخبز من نوع نيتلا. ظننت أنه سوف يقص على ما فعله وأمين كان، لكنه لم يقل شيئاً، فقد تناول الطعام على عجل،

وارتشف أكواب كبيرة الحجم من الكوكاك، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها غير معتنى بذوقه، فكانت هناك شعيرات تنتفش على وجنتيه وذقنه وشفته العليا، فقلت له: "أكنت في السجن؟"

فلم يجب، ثم أشار بنعم عن طريق رأسه، وما إن فرغ من تناول الطعام، رقد على فراشه، واضعاً رأسه بين زراعيه، ثم نام فجأة.

كنت في حاجة إلى الإحساس بحرارته، منذ أيام وأنا أعيش بمفردي في الكهف، دون أن أتحدث إلى إنسان، كنت فقط أستمع إلى الموسيقى على مذياعى القديم ذى البطاريات. رقدت بجانبه، ووضعت زراعى حوله، ولكنه لم يستيقظ، وظلنا ساعات هكذا دون أن نتحرك، كنست أسمع تنفسه، وحاولت أن أخمن أين ذهب أثناء كل هذا الوقت، ولا أفعل شئ سوى أن كنت استنشق رائحته من عنقه ومن ظهره، وعندما استيقظ، تضاجعنا فى هدوء، مثلما فعلنا المرة الأولى. وقبل أن نفعل، مضى يبحث عن واقى فى جيب قميصه، وهو الذى أراد أن يضع هذا الواقى وليس أساء، وأظن أننى لم أكن حتى قد فكرت فيه. ولا فى المستقبل، ولا فى الأطفال، ولا فى المرض.

ثم ذهبنا سوياً على سقف البرج متخذين الطريق السرى: المصعد حتى الدور الواحد والثلاثين، ثم باب إطفاء الحريق، ثم السلم وسلم رجال الإطفاء الصغير. كانت السماء تقطع مربعاً أزرقاً من الفولاذ فوقنا، كنا فذة فى فضاء لامتناهى، وفى هذه اللحظة، أدركت أنه على أن أرحل.

على سطح الأرض، كانت الرياح تهب على كبلات الأعمدة وأعمدة التليفونات، فتحدث صوتاً غريباً هنا في وسط هذه المدينة النائية جداً عن البحر، على الرغم من سير السيارات البطيئة للغاية أسفل المبنى في شارع إيغري العريض باتجاه بلاس ديتالي، وإلى أبعد من ذلك على الأرصفة أو على الطريق المحيطي، والذي كان سيرها في أفواج رائعة للغاية كمد البحر حين يصعد الجرف. وفجأة شعرت بالخواء الذي كان بمثابة رغبة تصعد في فتولني، وكان ذلك بسبب البحر، فمنذ زمن بعيد لم أعد أسمع، وكان ذلك شئ يدعو للدوار، سرت حتى حافة السقف، مائلة تجاه الريح، كما لو كان بوسمي أن أرمق البحر هناك، ولحق بي نونو، ولم يكن يدرك الأمر فقال: "ماذا تفعلين؟ أمجنونة أنت؟ أتموتين؟"، ففكرت حينئذ أنه ربما كان الأمر كذلك عندما يقفز الإنسان من النافذة لأنه يعتقد أنه سيجد البحر تحته. تعلقت بنونو قائلة له: "ضمني إليك، ضمني بقوة يانونو، إنني أشعر بالألم"، وأجلسني أمام مربع محرك المصعد بعيداً عن الريح، وكنت أرتعش من البرد ومن الإضاءة، فنزع نونو عنه قميصه الجلدي القدي ووضعه فوق ظهري، وقال في بساطة: "هاكي باليلي، سأعطيه لك، هكذا ستفكرين دائماً في"، وكان وجهه أملساً ومنبسطاً، ورأسه كبيرة الحجم إلى حد ما، كسرأس القزم، ولكن عيناه كانت رقيقة، سوداء جداً وحائسة جداً. ظننت أنه أدرك أنني سأرحل، وربما أدرك هذا الأمر قبلي، ولهذا السبب جاء إلي.

كل شيء سيتغير الآن، كان ذلك بمثابة لحظة تُختم، كنت على
المسقف في الطابق الثاني والثلاثين إلى أعلى، أعلى السلم الصغير، كنت أسمع
الريح وعيناي تزرفان الدمع من كثرة زرقاء السماء كالليرة الأولى التي وصلت
فيها إلى هنا وحملني نونو إلى هذا المكان.

على المنضدة التي كنت أعمل عليها وإجابات الفلسفة للأستاذ
حكيم، كان هناك خطاب وكيل الدائنين والذي جاء فيه أنهم اكتشفوا تزويراً
في عداد الماء وكيلووات مسروقة دون أي تبرير، وأن البحث جارٍ، وأن
المجرمين سيُكتشف أمرهم وسيتم طردهم ومعاقبتهم كما ينبغي. تركت
الخطاب في مكان واضح حتى يكون نونو على علم به، وضعت الباب
الحديدي لرقم 28 بشدة حتى أن الصوت ارتفع إلى قمة البرج.





استقلينا القطار المتجه إلى مدينة نيس، واستخدم هنا ضميم
الجمع، ولكنني في الواقع، كنت بمفردي التي كان معها بطاقة سفر.
صعد جياتيكو معي إلى عربة القطار، كما لو كان سيودعني، ثم
تسلل في العربة، ومكث في حاملة الحقائب، فعل هذا ليمزح لأنه في الواقع
لم يكن في حاجة إلى ذلك، فلقد كان يعرف كيف يراوغ مفتشى القطار وكان
ذلك الأمر بمثابة مهنته.

لم يكن هناك سوى ثلاثة أشخاص في العربة، اثنان في الأسفل،
وأنا في عربة النوم إلى أعلى، وبقيت للحظة طويلة في ممر العربة أشعل
السيجارة بعد الأخرى، ناضرة إلى الأضواء تتراجع إلى الخلف، ثم هبط

جيانيكو من مجثمه، ولم يقل شيئاً. ولقد رأيت أن الصغعة التسي تلقاها على وجنته تحول موضعها إلى اللون الأزرق - الأسود، وكنت قد فكرت أنه بإمكانه أن يرحل معي عندما علمت أن زوج أمه صغعه.

لم أعد أعرف من منا كان صاحب فكرة الرحيل في البداية، ربما كان هو، فمن فرط تكراره للجملة: "في يوم ما، سأهشم نفسي"، جاء هذا اليوم.

حدثني جيانيكو عن خاله في مدينة نيس، شقيق أمه، رجل يدعى رامون يورسي. ولكي يمكنه الصعود في القطار، كان ينبغي عليه أن يكون في صحبة شخص آخر، ومعى كان أمره يسيراً، ولكنه بأى وسيلة، كان سيسافر، فكان بوسعه أن يبحث عن شاحنة كبيرة في رنجيس⁽¹⁾ أو في محطة خدمة سيارات.

ولقد سبب رحيلي شيئاً ما في نفسي، فمنذ وقت طويل جداً وأنا أقيم في مدينة باريس، وكنت أشعر أنني أقسم بها منذ سنوات وسنوات، حتى أنني لم أعد أتذكر جيداً متى وصلت في محطة اوسترليتز مع حورية. ولقد مرت بي أحداث كثيرة، حتى أنني أشعر بنفسي عجوزة الآن، ليس عجوزة بحق، ولكنني مختلفة، أكثر ثقلاً من خبرتي. والآن لم أعد أخاف من

(1) Rungis منطقة بأحد ضواحي باريس مخصصة لتلقي وبيع البضائع بالجملة حيث تُحمل إليها شاحنات كبيرة من مختلف المدن الفرنسية ومن بعض البلاد الأوروبية.

نفس الأشياء التي كنت أخساف منها، فاستطيع أن أنظر إلى الناس مصوبة عيني إليهم وأستطيع أن أكذبهم وأواجههم أيضاً، وأستطيع أن أقسأ أفكارهم من أعينهم، وأستبطن نواياهم وأجيب عليهم قبل أن يكون لديهم الوقت ليطرحون على سؤالاً، وأستطيع أيضاً أن أعوى كما يعمون بإتقان.

ولكنني لم أعد أستطيع فعل ما كنت أقوم به في السابق على الأرجح، فلا أستطيع أن أسرق في متجر كبير، أو امضى وراء شخص ما وأتخيل أنه من أسرتي، وأتعقب شخصاً ما في الشارع وأقول أنه حبي الكبير. وأدركت أن مارتياك أو هابيل أو زهرة لا يمثلون خطراً، إنما ضحاياهم هم الذين يشكلون خطراً لأنهم مستسلمون.

عرفت أن الناس لو كان لهم الخسيرة بينك وبين سعادتهم، لاختاروك أنت.

عند مدينة ليون، كنت متعباً للغاية، فصعدت على مقعد النوم الذي يعمل بنظام اللمس. كانت المرأة التي ترتدي ملابساً وردية اللون تنام في الطابق الأرضي من عربة القطار، ورأيت في الطابق الأول رأس الأسبانية المستديرة التي كانت تلمع في ضوء المحطة، وسميتها بالأسبانية لشعرها وعينيها الشديديتي المسواد، وظننت أنها ستقول لي شيئاً، ولكنها اكتفت بتفحصي دون أن تحرك رموشها ودون أن تبتسم لي. أما جياننيكو فقد تمدد على مقعد النوم وكان يغط تقريباً، وكان يفوح منه عرقه وملابسه القذرة بشكل لافت للنظر، فكان الأمر وكأنني أنام بجوار متشرد، دفعته نحو حائط

العربة، ولكن اهتزازات القطار كانت تدفعه نحوى بلا توقف؛ ثم خلصت إلى النوم ينتابنى نعاس ثقيل، تقطعه ومضات الضوء وصوت عجلات القطار على شريط السكة الحديد.

ثم انتشلتنى جيانيكو من فتورى، فلقد هبط من مرقدته دون أن يحدث أى صوت، متعلقاً بالسلم الصغير كالقرد، ثم قال لى فى أذنى حتى لا يكون عليه أن يصرخ: "تعالى، يا تاتا ليلى، تعالى كى ترين"، فخرجت تحسماً، وكان الضوء خافت فى عربة القطار، وكان الطقس حاراً، كان هناك رائحة نسمة، وفى ممر عربة القطار، كانت النافذة تقطع زاوية تحجب الروئية، وكانت المنازل وأبراج الأسلاك الكهربائية المتاخمة للبحر تجعله يتسلاً فى أشعة الشمس، وكان القطار يتعرج على طول الساحل ويتخطى الأنفاق، ويخرج منها، أما البحر فكان حاضراً دوماً، لامعاً فى الشمس، فى لونه الأزرق الفاقع إلى حد أن عينى تغرغرت بالدموع من النظر إليه.

كان جيانيكو يرقص فى مكانه، فلقد كانت هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها البحر، وعندما جاء من رومانيا، حمله القطار، هو وأمه وأخوته من تيميزورا، مباشرة دون أن يتوقف، إلا لعبور الحدود عبر الحقول بين ألمانيا وفرنسا، ثم لحقوا بمعسكرات البوهيميين.

من آن إلى آخر، كان يلتفت نحوى باهتسامته العريضة والتى كانت تجعل أسنانه تلمع وسط وجهه الداكن، ليقول، "أترين؟ أترين ذلك؟"

هبط الناس من القطار بعضهم تلو البعض الآخر، في كل مدن الساحل، اجيه، سان رفايل، كان، أنتيب، حتى صرنا بمفردنا في العربة قبل الوصول إلى مدينة نيس ؛ وكان القطار يسير على طول شاطئ طويل من الحصى الأملس، يتبعه طريق حيث تسير السيارات بنفس سرعة القطار، وكانت هناك أمواج تتدفق بانحراف، وطيور نورس تطوف فوق البالوعات، وكانت الشمس تلمع عبر الزجاج، وكان يبدو لي أنني استيقظت، أو نهضت من حلم طويل، كما ينهض الإنسان من مرض.

ودون أن نترك موقعنا في ممر العربة، أخذنا الإفطار الذي حملته من ساريس، برتقالات (مفريضة) وشرائح خبز بائنة مبطنة بقشرة من الشيكولات، ولم يكن بوسعنا أن نتناول لحم الخنزير لأن ذلك كان محرماً بالنسبة لي، أما جيانيكو فكان يقول أن لحم الخنزير لا يعد طعاماً للإنسان، وأذكر أنه ذات مرة ونحن نناقش هذا الأمر، قال لي - ولا أعرف من أين أتته هذه الفكرة - أنه من الممكن أن يجعلوك تأكلين لحم البشر قائلين لك إنه لحم الخنزير، وربت على مؤخرته حتى يبين ما كان من أمر ذلك.

كانت مدينة نيس جميلة كما تخيلتها، مدينة جميلة بيضاء في قلبها العادية وقلبها البصلية، وكان هناك الكثير من الحمام والشيوع، وكانت هناك الشوارع الكبيرة المحاطة بأشجار الدُلب⁽²⁾ والمكتظة بالسيارات

(2) الدُلب هي شجرة للزينة يكثر غرسها على أطراف الشوارع الفرنسية. (المترجم)

حتى على الأرصفة، وكان هناك الكثير من العرب، ومع هذا فلم يكن هذا المكان يشبه أفريقيا، ولا حتى أسبانيا.

كانت مدينة يسعد الإنسان فيها، ويحلم فيها، ويتنزه فيها كما كنا نفعل نحن أنا وجيانيكو مشبكين أيدينا كأخ وأخت.

كان الناس ينظرون إلينا باستغراب لطريقة سيرنا وملبسننا، فكنت أرتدى قميص نونو السجنى وبنطالاً وحذاء ماركة "تكس مكس"، وكان جيانيكو يرتدى بصفة دائمة ثيابه الرثة الفضفاضة وقمصانه الثلاثة الصغيرة ذات الألوان المختلفة والتي كان يضع الواحد منها فوق الآخر على جسده، القميص الأكثر اتساعاً فى الأسفل، ثم الأكثر صغراً، ولكن الأكثر عرضاً، ثم فوقهما قميص مخطط بألوان أزرق - أبيض - أحمر ووردي، وشعره الكث المجعد الأسود، وطالعه النحاسي اللون كالهنود، ولم يكن معنا حقائب، إلا حقيبة صغيرة كانت معى وكنت أضع بها مذياعى القديم، وأشياء صغيرة خاصة بالسيدات وكتاب فرائز قانون الذى كنت أحبه.

كان الطقس رائعا إلى أقصى حد، حيث سرنا النهار كله، بلا هدى، على طول البحر، وفى شوارع المدينة القديمة، وأيضاً فى التلال المليئة بالحدائق القديمة. لم يكن يعرف جيانيكو أين يقيم عمه رامون، لم يكن معه سوى اسمه وعنوانه الذى كان مدوناً بشكل مائل على مظروف هكذا: رامون

يرسو

معسكر إيواء كريما

في الظهر، تناولنا مرة أخرى خبزاً وشيكولاته على شاطئ البحر الملئ بالحصى والذي كان يحاط بغيمسة من طيور النورس، وكان جياننيكو كالكلب صغير، يجرى متعرجاً على طول البحر، وكان يرتص على الحصى وسط طيور النورس، ويؤدي حركات جنونية كثيرة من هذا النوع، ولم أره مطلقاً هكذا، ففجأة، بدا عليه أنه طفل بحق، لقد أصبح طليقاً، ولم يعد يلكس في مستقبله، وأنا أيضاً، لم أعد أفكر فيما يمكن أن نفعله، أين نرقد، وما يمكن أن نأكله هذا المساء. رميت لطيور النورس آخر قطعة خبز كانت لدينا، فلقد كانت هذه القطعة جافة لحد ما، ولو كان بوسعي، لألقيت بحقيقتي الصغيرة الزرقاء في البحر بكل ما تحوى، ولم يمنعني الذياع ولا كتاب فرانز فانون، فالذياع ما هو إلا علبة للموسيقى والكتاب يمكن أن يُستبدل، ولكن ما منعني، على الأرجح، هو الظروف الذي يحوى جواز سفر مارينا وخطاب حكيم الذي حرره لي قبل أن يحمل جده إلى ياما على نهر الغاليميه.

أمضينا كل شهر مايو في مدينة نيس دون أن نفعل شيئاً سوى الذهاب صباحاً إلى مكان إخلاء الشاحنات، وإلى الشاطئ بعد الظهر، ثم التسكع في شوارع المدينة القديمة.

في البداية، كان الأمر صعباً بالنسبة لنا في المعسكر، فلقد كان نائياً عن كل شيء، ويقع في الشمال، في الوادي، ويبعد عن الضواحي وعن أعمدة الطريق السريع، وكان يشبه دوار تبريكة إلا أنه كان في التلال، بعيداً عن البحر، في التلال الوعرة، العارية، حيث تهب الرياح في زوابعات وحيث

يكون للثرى طعم الأسمنت، فلقد سُيدت المدينة إلى الأسفل من المكان الذى تفرغ فيه الشاحنات، وكانت المنازل صغيرة مبنية من الأحجار المطلية باللون الوردى وأسقفها من القرميدة، وهو نمط بروفانسى⁽³⁾. كان هناك فى المجمع حوالى خمسين منزلاً صغيراً، وأتخيل أنه فى يوم الافتتاح فى حضور ممثلين عن السيد رئيس الشرطة والسيد العمدة والمدير الإقليمي للمساكن ذات الإيجار المعتدل، كان المشهد رائعاً وممتعاً، ولا سيما إذا لم يُركز على حفر مكان تفريغ الشاحنات. ولكن بعد مرور سنوات، أصبحت مدينة الصفائح شبيهة بالمدن الأخرى، فلقد طُبع دخان المرامد على الحوائط، وزخرفت الأوراق والحقائب البلاستيكية على ساحة الخط الحديدى، وغدت الشوارع طرقاً مصدعة بالأخاديد الطينية.

ما كان طيباً فى هذا المكان هى المخيمات، حيث كان أمام كسل منزل صغير، مخيم أو اثنين للرحالة، وكان بعضها مبنى من الطوب الأحمر، وفى إحدى هذه المخيمات جعلنا رامون يرسى نقيم مع أبنائه الثلاثة والذين كانت أعمارهم فى عمر جيانيكو أو أقل منه سنّاً، مالكو، جورج وإيغا. فى المساء، كنا نبسط حقائب النوم والغطاء، وكنا ننام حتى على خشب الخيمة ملتصقين بعضنا ببعض الآخر حتى لا نشعر بالبرد.

كان رامون يرسى رجلاً فارغ الطول، قوى البدن، شعره وأهداسه شديدة السواد، وكان يعمل بالمقطوعة فى ساحة التعمير، وكان يتحدث

(3) ريف فرنسى يميل إلى ارتداء طابع شبه خاص فى العمارة. (المترجم)

الفرنسية بصعوبة بالغة ، وقال لي جيانيكو أنه لا يتحدث الرومانية أفضل من حديثه بالفرنسية ، الخلاصة أنه لم يكن يتكلم . في المساء ، عندما كان يعود من العمل ، كان يجلس على طرف الفراش في حجرة المنزل الوحيدة ، ثم يشاهد التلفاز وهو يدخل الغليون .

عندما شاهد جيانيكو يأتي إليه ، لم تبدو عليه الدهشة ، فربما كان يراقبنا وأن أحداً قد أخطره بذلك . كان رامون يرسى يعيش في منزل صغير مع امرأة فارعة شقراء بشرتها حمراء ، تدعى الينا ، وكانت إيفا ابنتها ، أما جورج ومالكو فكانا من امرأة أخرى هجرها رامون .

في الصباح ، في ساعة مبكرة ، كنت أذهب مع جيانيكو والفتيان إلى مقر تفريغ الشاحنات ، وكان جيانيكو يسمى ذلك "عمل" .

كانت عربات النقل تصل بعضها خلف البعض الآخر في ساحة المسحق الكبيرة ، وكان صبيان العسكر يتراصون هناك من كل جانب ، وما إن كانت أكوام القمامة توضع على الأرض ، حتى كانوا يسرعون كالفران قبل أن تقوم الجرافة وتحملها بين فكين من القوالب .

كنت قد رأيت من ذي قبل مستودعات القمامة في تبريكة ، ولكنني لم أ شاهد قط شيئاً مماثلاً لذلك ، فلقد كان الهواء محملاً بالتراب الدقيق اللاذع الذي كان يؤدي العين والحلق ، وكانت هناك رائحة عفنة ورائحة نشارة ورائحة قتييل . كانت الشاحنات تتحرك في الضوء الخافت ، وكنا نرى فوانيس الإضاءة أو منبهات الرجوع للخلف وهي ترسل صوتاً حاداً ، ومن

السقف كانت تسقط أشعة ضوئية تخط أعمدة في التراب، وعندما كان الفكان يتحرك كان لقص قطع الخشب والفصون، كانت الضوضاء مُصمة.

كان جيانيكو ومالكو وجورج يفتشون في الفتات ويحملون لقاياهم إلى: مقاعد معطلة، طناجر مبعوجة، وسادات مخروقة، ألواح خشب منتفشة من المسامير الصدئة، ولكن أيضا ملابس، أحذية، لعب أطفال، كتب. كان جيانيكو يحمل إلى بصفة خاصة الكتب، وكان لا ينظر إلى عناوينها، حيث يضعها على حائط قصير بجوارى بالقرب من مدخل الصالة، ثم يرحل ثانية مهرولا ليقتض في شاحنة قمامة جديدة.

وكان هناك كل شيء، مجلات قديمة "رايدرز دايجست"، وأعداد عتيقة من مجلة "هستوريا"، كتب مدرسية من فترة ما قبل الحرب، روايات بوليسية، أقنعة، أعداد من بيبليويك فسمرت⁽⁴⁾، وردية اللون، مجموعات حمراء وذهبية، مجموعات سوداء. كنت أجلس على الحائط الصغير، في الريح، وأطالع صفحات من هذه الكتب، ككتاب "قيثارة العشب" على سهيل المثال، حيث طالعت الفقرة التالية:

"متى سمعت للمرة الأولى الحديث عن قيثارة العشب؟ قبل الخريف حيث ذهبنا نقيم في الشجرة؛ فلنقول، ذات فصل خريف من ذي قبل، وبالضبط، كانت دولى هي التي حدثتني عنها؛ لم يكن هناك سواها كي تبتدع اسم مماثل كقيثارة العشب."

(4) Bibliothèque verte سلسلة من روايات الأطفال المبسطة لغويا.

كنت أقرأ أى شئ، ففى جحيم تغريغ الشاحنات هذا، كان يبدو لى أن الكلمات ليست لها نفس القيمة، بل كانت قوية جداً، وكانت تدوى فى دائماً، وكنت أقرأ أيضاً الروايات التى كان يلقي بها الناس بعد مطالعتهم لها، مثل "العباءة الدينية"، "الباب المفتوح"، "الباب الذهبى"، "الباب الضيق"، ومع ذلك كانت هناك جملة من الممكن أن تقفز إلى العين وتظل مطبوعة فى الذاكرة: "لماذا نبحر ذات يوم؟"

أو هذه الصفحة القارة من كتاب قديم، والتقى رأيتها بكراً بشكل لافت للنظر وسط جبل الحثالة: السهل الفسيح أبيض

جامد دون صوت

لا ضوضاء، لا صوت، كل المدينة محترقة.

ولكنه يسمع أحياناً، كأنه فى سهل كثيب،

كلب ليس له ملاذ يعوى فى ركن من غابة.

آه ليل العاصفير الصغيرة المفجع.

ريح مثلجة ترتعش وتهزول فى الممرات.

هم، بما أنه لم يعد لهم ملاذ مظلل بالهود،

فلايستطيعون أن يناموا على أرجلهم المجمدة.

فى الشجر الكبير العارى الذى يغطيه رقائق الجليد،

يقيمون هناك، مرتعشون تماماً، من غير أن يكون هناك من شيء يحميهم.

وبعينهم القلقة يشاهدون الثلج، منتظرين حتى مطلع النهار الليل الذي لا يأتي.

وبعد ذلك، أصبحت هذه الأبيات مقطعاً محفوظاً بين جياننيكو وبينى، فمن آن إلى آخر، فى الشارع، أو عندما كنا مقوقعين فى حشائب نومنا، على أرضية الخيم، كان يبدأ فى لهجته الغريبة: "الليل المفجع للمصافير الصغيرة"، وكنت أقول: "لا ضوضاء، لا صوت"، وأظن أن هذه هى المرة الوحيدة فى حياته التى ألقى فيها شعراً.

وفى كل صباح، كنت أهرول نحو مكان تفريغ الشاحنات مع الأولاد، وكان ذلك بمثابة لعبة بالنسبة لى، فكنت أتحمس لفكرة أن نجد شيئاً. كانت شاحنات القمامة تصعد وتهبط التل الصغير كالحشرات الضخمة، ثم كانت أطنان القمامة تسيل وتتبعثر وتُسحق وتدق، وكان التراب اللانزع يصعد فوق كل الوادى، ويصعد حتى وسط السماء مُنسجاً بقعة كبيرة بنية اللون فى زرقة السُكاك⁽⁵⁾، فكيف لم يكن الناس يشعرون بها فى بقية المدينة؟ كانوا يلغون فضلاتهم وكانوا ينسونها، وكانها غواطلهم، ولكن البودرة الناعمة كانت تسقط عليهم كل يوم كغبار الطلع، على شعرهم، وعلى أيديهم، وعلى روضاتهم الوردية. وكنا نجد من كل شيء فى الفضلات، وذات

(5) السكاك هو الهواء بين السماء والأرض فى الجزء الأعلى من الغلاف الجوى. (المترجم)

صباح، جاء مالكو وهو فخور تماماً، وكان يمسك في يديه لعبة، جميل من الجلد المحاك، يمتطيه هجان في ذي أحمر وعمامة بيضاء، واضعاً سيفه في زواره.

وكان هناك شجار أيضاً، فلقد سبقنا مجموعة من الأسبان، وكسانوا فسارعو الطسول، فسي العشرين من عمرهم، وكسانوا يرتعدون أقمصه مشجرة، ويضعون عصابة حول الشعر، سبوناً لأن مالكو وجورج كانا يتحدثان باللغة الرومانية، وقدموا لسيروا ما وجدناه: عجلة دراجة، طناجر، عصي ستائر، سلك حديدى صدئ، قطع من الحديد، آلة كاتبة، مطرية سوداء رائعة، حذاء، ونظروا إلى كتبي، والتي كانت عبارة عن روايات تجسس وكتابات قصائد شعرية باللغة الإيطالية لليوبساردى⁽⁶⁾ أو (نونزيو⁽⁷⁾)، وقلب أحدهم صفحات الكتب وألقاها باذراء، ثم مسكنى من عنقى وحاول أن يقبلنى، فدفعته وقفز جيانيكو عليه وتعلق في رقبتة محدثاً به قطعاً كالمفتاح في وجهه، ثم تشاجروا بعنف غريب، وهم يتقلبون في الفضلات، ولكن دون صراخ، محدثين صوت (هاه) في كل مرة يتضاربوا فيها بقبضة اليد وركلات القدم. حينئذ توقفت الشاحنات عن السير وتجمهر

(6) أديب إيطالى عاش بين 1798 و1837، من أهم مؤلفاته: "مؤلفات أخلاقية صديرة" 1827-1833. (المترجم)

(7) أديب إيطالى ولد عام 1863، من أهم أعماله "النار" 1899 ومسرحية "الدينه الميئة" 1898. توفي عام 1938. (المترجم)

الناس لمشاهدة المشاجرة، كان مالمكو وجورج يتشاجران مع أحد الأسبان، وجياننيكو مع آخر، وكنت أصبح كالمجنونة، مع شعري الأشعث الذي هيجته الريح، وقميصي الجلدي المغطى بالتراب، والحذاء الذي وجدته بجوارى على الحائط الصغير.

ثم جاء موظف يعمل فى تفريغ الشاحنات، وكان عجوزاً، وتلفظ بكلمات عنصرية عن السود والعرب واليهود، ثم تناول آلة رش تصلح لرش نطاق كبير فى تفريغ الشاحنات ورشنا بالماء المثلج بقوة إلى حد أن جياننيكو تزلج على ظهره كالناموسة وحتى أن كل كتيبى طارت أرباً أرباً.

هذا ما حدث لى: نافورة الماء المثلج القاسية مثل السوط مزقت كل كتيبى، وبغضت هذا الرجل، وصحت: " قذير، خنزير، حقير"، ثم قذفته بشتائمى العربية التى كنت أعرفها، وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى أذهب فيها إلى مكان تفريغ الشاحنات.

وكانت هناك فى حياتى سارا، فلقد رأيتها للمرة الأولى مصادفة فى مشرب خمر فندق كونكورد فى منطقة البرومناد تقريباً، حيث أحببت هذا المكان لأننى رأيت فيه نحت لامرأة فارعة الطول، بشرتها برونزية، كانت تحاول أن تهرب من بين كتلتين من الأسمنت، فدخلت إلى صالة الفندق حتى أسأل عمن شيدها، فقال لى حارس البوابة اسم النحات، سوسنفسكى، ودونيه لى على ورقة، وحدث ذلك فى نهاية بعد ظهر يوم ما، ولقد تركت جياننيكو، لأنه لم يكن لائقاً فى قمصانه المقرزة المكدسة بعضها فوق البعض الآخر وشعره

المسخت، ناهيك عن راثحته. وفي نهاية صالة الفندق، سمعت صوت الموسيقى، كان ذلك شيئاً أثار في الفضول، لأنه عامة، بسبب أننى اليسرى، كنت لا أسمع الموسيقى من بعيد، ولكن فى هذا المكان، كان صوتها يصل إلى ثقيلًا ومنخفضاً عن طريق الاهتزازات التي تجرى فوق جلدى وفى جوفى.

سرت عبر الصالة يتودنسى الصوت، وفى لحظة، دق قلبى لأننى ظننت أننى قد عثرت على سيمون، إنها هناك، منتصبه فى نهاية مشرب الخمر، تغنى أغنية "اللون الأسود هو اللون الحقيقي لبشرة حبيبي".

وحتى أنصت إليها جيداً، جلست بالقرب منها على سلم الحاجز، وعندما رأتنى، ابتسمت لى كما لو كانت تعرفنى، وأعتقد أن ابتسامتها جعلت القائم على مشرب الخمر لا يصرفنى، والذي كان ينظر شذراً لهذه السوداء الصغيرة فى شعرها الكثيف المجعد والتي ترتدى بنظراً من الجينز وقميصاً من الجلد القدى.

سمعت كل أغانيها حتى جاء الليل. فى مشرب الخمر، كان الناس يثرثرون وهم يحتسون الويسكى الاسكتلندى، وكانت هناك ثنائيات من رجال ونساء تتكون ثم تتفرق، وكان هناك من بينهم أيضاً من كان يرقص، ولكننى كنت أرتشف الكلمات والموسيقى، وكنت أنظر إلى جسد المرأة الشابة، وثوبها الأسود يقولب جسدها، وأنظر إلى طالعها وشعرها المحلوق قصيراً.

بعد ذلك تحدثت معى، وكنت أجد صعوبة فى فهمها، وكنت أحاول أن أقرأ ما على شففتيها. فى مشرب الخمر، ارتشفت كأساً من مشروب

البيرييه معها، قالت لي إنها تدمي سارا وأنها من شيكاغو، وسمتني "الأخت سوالو"، ولا أعرف لماذا، وقالت لي: "إنني أحب لون بشرتك"، ودونت لي اسمها وعنوانها على مطروف، لأنها سترحل عما قريب، ودونت لها اسمي ولكن بالنسبة لعنواني، لم أعرف ماذا أكتب، فوضعت عنوان بيتايريس.

عاد عازف البيانو للعزف، ومادت سارا إلى منصة الغناء، وظللت حتى النهاية، حتى الليل، وجاء رجل طويل أسمر البشرة يبحث عنها، وكان يرتدي بذلة، ومعطف أخضر اللون، ووشاح أبيض وكأنه ممثل في السينما، واصطحب سارا، فخرجت تتموج بجسدها، ومضت نحو المخرج مبتسمة لي للمرة الثانية بابتسامتها المتوهجة علي وجهها الأسود، فكانت تبدو كنجمة فن، كإلهة، كحورية.

بعد ذلك، كنت أمضي إليها كل يوم، من الخامسة إلى التاسعة مساءً، وكنت أجلس في ركني، على حافة منصة الغناء، ولو أن نادلاً قال لي شيئاً، كان لدى إجابتي الجاهزة: "إنها أختي"، ولكنها ربما أخطرتهم بذلك، فلم يسألني أحد عن شيء.

غنت سارا لي طوال شهر مايو، كانت هناك عواصف، وكان منظر المنظر بديعاً، وأخضر البحر الرديء فأصبح رائعاً، وكان جياننيكو يذهب كل يوم معي على الشاطئ، أو على السد الكبير الذي كانت تشكله كتلات أسمنتية ملقاة، ولكن هذا المكان لم يكن مكاناً مناسباً للفتاة مثلي، فذات يوم كنت أنتظر جياننيكو هناك، فجاء رجل، وأظهر عن نفسه، وكانت له نظرة غريبة،

تأثبه ولم تكن لدى رغبة في أن أصرخ فيه كما حدث في السابق مع المعجوز في دار المقابر: "سر وشأنك"، كما أشار لي صيادون - كانوا يستلقون مركبهم - بحركات مخلصة بالأدب، وهم يتظاهرون بأنهم يرفعون شبك صيدهم، وكانوا يتلفظون بحماقات لم أكن أفهمها، فغضب جيانيكو وصاح فيهم: "يا أولاد العاهرة، سأقتلكم"، وكان ينفز من صخرة إلى أخرى، كان يشير لهم بحركات، ويتظاهر بأنه سيلقى عليهم الأحجار.

وفي معظم الأحيان، كانت هذه التصرفات تقتلني، فلم يكن هناك مكان هادئ في الدنيا، أي مكان، فعندما أجد ركناً منعزلاً، تعرجاً، مغسرة، مكان صغير مهجور، كان هناك دوماً شيء ما بذئ، كفاشة أو متلصص.

ولهذا، ففي فترة ما بعد الظهر، كنت على موعد حتى أستمع لموسيقى سارا التي كانت تداعبني.

وكل يوم في فترة ما بعد الظهر، كنا نتحدث في الفاصل الترفيهي، وعلى كل حال، لم نكن نتحدث بحق لأنها لم تكن تعرف الفرنسية، إضافة إلى أنني لم أكن أسمع جيداً ما تقوله لي، كانت تضحك، وتقول كل مرة: "أختي سوالو، أحب لون بشرتك"، حتى أن تلك المقولة أصبحت لازمة لديها.

كنت أمكث حتى نهاية الغناء، وكان صديقها يأتي يسعى إليها كل مساء، وكانت تمر أمامي دون أن تقول لي شيئاً كما لو كانت لا تعرفني ولا أعرفها، وكانت عيناها تمزحان معي، وتلقى بابتسامة صغيرة تضئ وجهها،

ثم تدلف متموجة نحو باب الفندق عندما يكون الليل قد حل تقريباً، فعشقت سارا طوال هذا الشهر.

فى هذا الفترة أخذت فى التعرض لمضايقات من جانب صبية معسكر كريمبا، من أخوين، داني وهيج ؛ كان داني شعره بنى اللون مجعد، أما هيج فكان فارغ الطول، أحمر البشرة، وكنت ألقبهما بالهنود، نظراً لقمصانهما المشجرة، وعصابات رأسهم وسيارتهما الشيسلر التى كانا يصارعان بها. صعدت فى سيارتهما أنا وجيانيكو ومالكو، وكانا يدلفان فى الشوارع، على غير هدى، جاعلان إشارات عجلات السيارة تحدث صوتاً، وكانا يطلقان صيحات، وكان ذلك أمراً جنونياً، فكانت الشوارع تتوارى خلفهما وهما يسيران بأقصى سرعة، وكانت الريح تدخل السيارة عن طريق نوافذها المفتوحة، وأظن ذلك ما أنعشهما، ولكنهما كانا قد أشعلا الغليون قبل ذلك، ولذا كانت أعينهما حمراء اللون طوال فترة ما بعد الظهيرة. لم يكن ينتابني خوف، ولم أكن أهاب بشر مثل داني وهيج، ويبدو أنني كنت أرى فيهما سلوك الأطفال، والأولاد السفهاء والغرباء والضعفاء أيضاً.

كان داني فى العشرين من عمره فقط، أما أخوه فكان فى الثامن عشر من عمره، وحدث أنهما ركنا سيارتهما الشريسلىر قبل ليل يوم بقليل فى موقف متجر كبير لقطع الخردوات، متجر بريكولتو⁽⁸⁾، أو ميزون فريت⁽⁹⁾،

(8) Bricolou متجر خردوات معروف بفرنسا. (المترجم)

(9) Maison verte متجر أدوات خردة معروف بفرنسا. (المترجم)

لا أتذكر، ثم هبطنا من السيارة وبدأ الأخوان في التجول بأجنحة المتجر وهما يشبهان الهمج في شعرهما المتدلى على أكتافهما، وقمصانهما الشجرة المفتوحة في البرد، وظل الناس وأجمون واضعون رقابهم في معاطفهم، وكانوا يتعقبونهما بالنظر، كما لو أنهما تبيين يهرولان في الأجنحة ؛ وكانا يتحدثان بصوت مرتفع بالأسبانية، وكان أحدهما ينادى على الآخر من طرف إلى طرف آخر في المتجر، وكانا يضحكان، وكانت أسنانهم تتألاً بين طالعهما الداكنين ؛ ثم رحلنا، وكنا نسير بالمصادفة، على طول النهر حتى الجبل، كنا نعبّر كتلات سكنية نائمة غارقة في ضباب ثقبة الضوء الأصفر المنبعث من الفوانيس.

كنا نرتكب أمور جنونية، فلقد ذهبنا يوماً ما إلى المقابر، وكنا نصت للمقابر حتى نسمع الموتى، وكان داني أبه قليلاً، على ما أظن، وكان خال جيانيكو قد حذرنا منهن قائلاً: "لا تذهبا معهما، فإنهما سيسببون لكم المتاعب"؛ وكنت أحب هيج، وذات يوم، جلست في مقدمة السيارة بين الأخوين، ثم توقفنا لنشرب، وكنت أتغازل قليلاً مع هيج، بينما كان كل من جيانيكو ومالكو يدخلان الغليسون وهما جالسان على السيارة من الخارج، فحاول هيج أن يقبلني، ولكنني دفعته عنسي، فأصبح مخبولاً، وكان هناك وريدا ناتنا على جبينه، وكانت عيناه تبرقان، فأخذ زجاجة صغيرة من البنزين من علبة القفزات ورشني بها ثم أطلق النار، فأحسست بهواء شديد، كصفعة على وجهي، ووجدت نفسي خارج السيارة وأنا أصرخ، وكان صدري ويبدأ تشتعلان، فأخمد هيج النار، وغلفني بقميصه ودورني على الأرض،

وأعطاني لكمات بقبضة يده، وكنت مخبولة، ولم أكن أدرك شيء، وفي أثناء هذا الوقت، كان داشي وهييج يتشاجران ويتسابان، وكان جياننيكو ومالكو ينظران إليهما دون أن يتحركا، وأظن أنهما لم يدركا الأمر جيداً. وعندما أدركت الأمر، مضيت فعبرت الطريق وتركتهما هناك، فأخذني على الفور تقريباً قائد سيارة وحملني إلى الطوارئ، وكان يبدو عليه اللطف، فكان يريد أن يبقى معي، ولكنني شكرته، وقلت له أن الأمر لا يستدعي ذلك، فهي حادثة بسيطة، ووضع الطبيب المقيم لي ضمادة، فلقد حُرقت في ثديي وفي رقبتي وفي ساعدي.

سألني الطبيب المقيم: "من فعل بكى هذا؟"، وكنت أشعر بالألم، وأشعر أنني متعبة، ولكنني قلت له أنني تحسنت، وأضافت: "لا شيء، هذه حادثة حدثت لي وأنا أقوم بإشعال النار"، وكان يبدو عليه أنه صدق قلبي، وطلبت سيارة أجرة كي أعود إلى كريما.

بعد ذلك، استلزم الأمر عليّ أن أرحل، ولم يقل رامون يرسى أي شيء، غير أن إلنا جاءت إلى المخيم، وأخذت أشياءي، ثم رتبها في حقيبتي، وأعطتني قميصاً جديداً من الصوف الأحمر والأسود، ثم نظرت إلى بقسوة، كما لو أنها تبغضني، وكان مالكو وجياننيكو يلعبان الكرة في الشارع المحفور، فقلت لإلنا: "وماذا عن جياننيكو؟"، فأشارت لي بعلامة على أنه سيظل معهم، وأعتقد أنها كانت على حق، فمن جرائي أنا، لم تمض الأمور على ما يرام، فأنا أحمل النحاس.

فى مدخل المعسكر، كانت هناك مجموعة من البوهيميين يتجاذلون حول هياكل معدنية، وهم يشبهون القناصة الذين فرقهم فريسة. كان اليوم يوم الأحد مبكراً، ولذا كان مصنع سحق القمامة لا يعمل. وضعت الحقيبة فى حمالة على كتفى الأيسر، بسبب الحرائق، كانت السماء شديدة الزرقة، وكان هناك بعض طيور الخُطاف التى كانت تخط الأفق، وكنت أسمع أصواتها بوضوح. استقلت أتوبيساً حتى محطة القطار، وكانت لاتزال لدى نقوداً كافية كي أشتري بطاقة سفر فى القطار الراحل إلى مدينة باريس.

قبل قدوم صيف هذا العام، طرأت تغييرات كثيرة فى حياتى؛ بداية، تقدمت لبكالوريا القسم الأدبى كطالبة حرة، وكما كان متوقفاً رسبت، فلقد أعدت ورقة الإجابة خالية فى مادة الحساب وفى مادة التاريخ؛ أما فى مادة اللغة الفرنسية، فى الاختبار الشفهي، لم ترد المتحنة أن تصدق أنني كنت طالبة حرة، ففحصت جواز سفرى، ثم نظرت إلى ملفى وقالت: "توقفى عن الكذب، أين أجريت دراساتك؟"، ثم استعطدت: "أين قائمتك؟"، ثم فى النهاية، عندما انتابها خجل من أن تبدو ثائرة، قالت: "من مَن منَ الكتاب تريدون إجراء شرحك؟"، فقلت دون تردد: "إيميه سيزار⁽¹⁰⁾"، ولم يكن هذا الموضوع ضمن المقرر الدراسى، ولكنها ذهشت وقالت لى: "حسناً، سأستمع

(10) كاتب فرنسى ولد فى جزر المارييتيك عام 1913. عُرف بتزعمته المناهضة للفكر التقليدى

الغربي الاستعماري. حاول فى مؤلفه أن يبرز دوره المساند للزوج. (المترجم)

إليك"، فالتقيت عن ظهر قلب قصيدة "كراسات عودة إلى الوطن مسقط الرأس،
التي ذكرها فرانز فانون في كتابه: وبالنسبة لهذا الرب ذي الأسنان البيضاء

الناس ذوي العتق الهش

يتلقى ويلمح قدراً هادئاً بشك مثلثي

إلى رقصاتي رقصاتي رقصات زنجية سيئة

وحتى الأبيات: أوصليني، أوصليني أيتها الأخوة اللاذعة

ثم اخنقيني بوهجك النجومي

اصعدى أيتها الحمامة

اصعدى

اصعدى

اصعدى

أقبعك، مطبوعاً بنسبي

قرنية بيضاء

اصعدى يا متملقة السماء

والثقب الكبير الأسود حيث أردت أن أغرق

القمر الآخر

هناك أريد أن أقتنص الآن اللغة الشيطانية

للليل في سكنه .

وفى مادة الفلسفة كان الامتحان هذا العام عن الإنسان والحرية، أو
 شئ من هذا القبيل، فكتبت بحماس إجابة شغلت عشرين صفحة، ذلك أننى
 كنت أذكر باستمرار مقولات لفرانتز فانون وللينين، ولاسيما العبارة التى
 يقول فيها: "عندما لا تبقى على ظهر الأرض أية إمكانية لاستغلال
 الآخرين، ولا يبقى مَلَك للمال، ولا مَلَك للمصانع ولا يكون هناك عوزة فى
 ناحية وجوعى فى جانب آخر، وعندما يصبح كل ذلك مستحيلاً، حينئذ فقط،
 سنضع آلة الدولة فى الخردة."

ولهذا رسبت، وكنت قد كتبت كل شئ دون أن استريح، ودون أن
 أقرأ ما كتبت، كنوع من الإفلاس، ثم رميت كومة الأوراق على مكتب المراقب
 ورحلت دون عودة، حتى أننى لم أبحث عن اسمى فى سجل الناجحين، فلقد
 كنت أعرف مسبقاً أنه لن يكون فيه.

فى باريس، كان كل شئ كما هو ومختلفاً فى آن واحد؛ ففى منزل
 بياتريس كان الطقس رائعاً، كانت نافذة الصالون الكبيرة تلمع لمعاناً رائعاً،
 أما جوهانا، فلقد كبرت ونبت شعرها، وكانت عيناها مشابهة للعقيق، مع
 نظرتها الثابتة والقلقة.

كنت أمكث معها كل فترة الصباح، بينما كان ريمون فى
 مكتب المحامين وبياتريس فى جريدتها. كانت شجرة اللبلاب مليئة
 بالمصافير، فكنت أحمل جوهانا بالقرب من النافذة المفتوحة حتى تسمع إلى
 زقزقتهم.

قررت أن أرحل، وبفضل مدرس في المركز الثقافي وعقيد في مركز يوسيس كان قد أغرم بي، حصلت على تأشيرة تبادل، على أن إقامتي ستكون في منزل سارا ليبكاب في ولاية بوسطن، وحتى أننى سجلت أسمى في أوراق اليانصيب الذى يوزع بطاقات الإقامة فى الولايات المتحدة حينما علمت أن نصيب الأفرقة كان كبيراً هذا العام ؛ ولم يكن ينقصنى سوى النقود للرحيل، وبدلاً من أن أبيع قسوط أجدادى، اقترضت خمس وعشرين ألفاً فرنكاً من بياتريس، وكنت على استحياء منها إلى حد ما، ولكن المسألة كانت مسألة حياة أو موت، أو تقريباً كذلك. كان لدى انطباع أن بياتريس وريمون أعطيانى هذه النقود حتى أخرج من حياتهما مرة واحدة، وحتى لا يبقى هناك من شئ يربط جوهانا بأمها الحقيقة.

ما كان على أن أقوم بهوداع الآخرين، فلقد كان كهف شارع جافلو مغلقاً، فحينما عاد إيف - صديق نونو - من موريا، أبلغ عن الكهف، فأمر عضو المجلس البلدى بتبديل القفل، ومررت من أمامه فى سيارة أجرة، ذات يوم من بعد الظهر، وانتابنى شعور غريب وأنا أرى الباب المعدنى المظلى بلون أخضر برقم 28 المدون على الطلاء الأسود على حجر الزاوية، كما لو كان ذلك مبيت سيارات أو خزانة فيها عدادات أو أى شئ من هذا النوع، وأن ما من أحد عاش فيه، وأنه لم يكن هناك البتة هذا الليل الذى ولدت فيه باسكال مالكة، فكان ذلك أمراً غريباً، كل شئ بدا معكوساً لى، وعندما خرجت من نفق الشارع، قلت لقائد السيارة الأجرة: "عد إلى الخلف"، فنظر إلى فى المرأة

العاكسة، فكررت له: "من فضلك، أريد أن أمر مرة ثانية من هذا المكان"، ومررتنا ببطنى، وأضاء قائد السيارة مصابيح سيارته، فشاهدت المكان الذى كانت تقف فيه سيارة مارتياىل جواييه المرسيديس ترقب سيمون طوال الليل تقريباً، وكانت هناك بقع زيت على المر تشبه بقع الدم، ربما ماتت، فلقد كان يصيح فيها يوماً أنه سيقتلها ما إن أرادت أن تتركه، ومع ذلك كانت تنسج نفسها لديه، ولم يكن يوسعها أن تهرب منه مطلقاً، ولهذا السبب كانت تضع اليدرة فى أنفها وكانت تبتلع قرص دواء، وكان ذلك بمثابة أسلوبها فى الهروب منه.

تركتنى السيارة الأجرة فى شارع باريس الكبير، أمام مركز الجمائزيم الذى يلعب فيه نونو، وصعدت السلم الواقع بين متجر الأشياء القديمة ويأى الأجهزة الصوتية. فى طابق صالة الجمائزيم، كان باب الصالة مغلقاً، ولكن كان هناك جلبة صوت، فقرعت على البلاط طويلاً حتى أتى أحد الأشخاص، وكان رجلاً فارغ الطول، يرتدى ملابس رياضية، عربسى، لم أكن أعرفه، فسألته: "أين نونو؟".

جعلنى أكرر سؤالى، وصاح باتجاه عمق الصالة: "هل تعرف نونو؟"، ومنعنى من المرور إلى الصالة، كما منعنى من النظر، ثم جاء رجل فى حوالى الأربعين من عمره، فارغ الطول، كان نونو غامقاً، له أنف قوية وشعره مجعد وأشيب، كان يشبه السيد دلاهاى، ولا أعرف لماذا، قررت على الفور أنه هو، إيف لى جن، صديق نونو، نظر إلى لوقت طويل دون أن يقول

شيئاً، تعرف علىّ بالتأكيد هو أيضاً، ولكنه لم يعبر عن شيء، لا تعاطف ولا اشمئزاز، رغم أنني كنت أشاطره نونو، فعل حركة بيده كى يقول أنتهى الأمر، كل شيء أنتهى، وقرأت الأمر على شفتيه، أكثر مما سمعته، كان يقول بصوت منخفض إلى حد ما: " لم يعد هنا، لم يعد نونو يأتى إلى هنا، خسر مباراته، وأنتهى، لم يعد يلعب ملاكمة هنا، ولن يلاكم مطلقاً"، فقلت شبه صائحة: "وأين هو؟ هل تعرف أين يمكننى أن أراه؟"، فهز الرجل كتفه، وقال: "ليس لدى عن هذا الأمر أية فكرة، ربما عاد إلى أفريقيّا، ربما تم طرده من الأراضي الفرنسية، فلقد فسد أمره".

لم أشأ أن أصدق قوله لى، فوقفت على طرف أقدامى، كالحیوانات حتى أرى من فوق أكتافهم كما لو كانوا يخفون عنى شيئاً، فرأيت الصالة القذرة وحلبة المصارعة التى تدر ربحاً، والصبية الذين يضربون على حقائب الرمل، والذين يبدو عليهم أنهم يرقصون، وكان هناك من الشباب سود البشرة، نحفاء البدن من كانوا يتدربون كنونو، ثم أدار الرجل ظهرى ودفعنى العربى براحة يده حتى يتمكن من أن يغلق الباب، وكانت تُشتمُ هناك رائحة حمضية أو رائحة عرق أو عفن كعفن نونو عندما كان يمشى من الثمرين، وفجأة، أحسبت بنفسى وحيدة، وكأننى أدركت فى النهاية أننى راحلة لأن الجميع رحلوا قبلى.

عدت إلى بلاس دى إيتالى كسى أرى حورية، ولم يكسن السيد فى حبينى، ولكن كان ذلك لا يمثل لى شيئاً، فلقد صممت على أن أرى حورية

وباسكال مليكة، فلن يأخذ هذا الأمر سوى دقيقة واحدة، وفي هذه اللحظة، لم أكن متيقنة مما سأفعله. وفي مطعم في تيه تو، كان الباب مفتوحاً للسهرة، ولكن الصالة الصغيرة كانت خالية، وأخرج السيد في رأسه من باب المكتب، وقال لي بصوت رديء: "ماذا تريد؟"، فحاولت أن أمر، لكنه سد أمامي الطريق، فلقد كسان أكثر قوة من رجل قصير ونحيف مثله، وصاح في: "انصرفي! انصرفي!"، وأملت أن يلتفت صوته نظر حورية، ولكنها لم تظهر، فربما كان يحبسها، أو لربما لم يعد لها رغبة في رؤيتي البتة، وربما كنت بحق أحمل النحس للآخرين.

درت كثيراً في خطوط المترو هذا المساء، حتى في جانب محطة ريو مير أو في جانب محطة جارد دي ليون وحتى محطة دانفير - روشرو، وكان هناك أناس غريبو الطباع في عربات المترو وعلى الرصيف، وكان هناك جنود مُسرحين يغنون مرتشفين الخمر متشردين، وكسائت هناك نساء لهن عيون شغافة، وكان هناك سائحون تائهون، وأناس عاديون للغاية يحملون سلات وقبعات. وفي محطة أرايه مقيم⁽¹¹⁾، بحثت عن الجندي القديم، أريتريه الذي كان يبدو عليه بحق أنه محارب، مغلف في دثاره الفضفاض وأقدامه محمية بخرق، ثم بحثت عن يسوع الذي يستجدي راکعاً سواعد من صليب، وماري مادالين بعينها الخضراء اللون وشعرها المنكوش وفمها الملطخ

(11) محطة مترو في باريس تعلق فيها لوحات تاريخية ومعادن صغيرة على صلة بأحداث

قومية بصفة خاصة. (المترجم)

بالدم كما لو أنها انتهت من قرط أحد ما. وكان الأمر غريباً بالنسبة لي، فلمرة الأولى دون شك، صممت الطبول وبق الصمت في الممرات، وفي محطة اوستيرليتز، بدت الأمور وكأنها لحظات تعقب عاصفة، أو لحظة تعقب بق نواقيس، فأدركت أن ذلك بمثابة علامة شوم.

في اليوم الأخير قبل أن أسقط الطائفة إلى ولاية بوسطن، تسكعت بجوار شارع جان - بوتن كما لو كان هناك شيء بحق سأجده هناك، بخلاف بعض الفتيات المتشردات، المربدون ذوي السننيمين، وفندق الأنسة مايبير المؤثث، وتمنيت بغير وضوح أن تخرج ماري - هيلين من المنفى، وأن تسأني نحوي وتسلم عليّ بحرارة شديدة وأن أرى نونو في المطبخ، عارياً تماماً وهو يرقص الجامبه. كانت السماء تمطر، كانت القطرات تذحت مستنقعات صغيرة سوداء، لا شيء تبدل، ومع ذلك كانت تلك حياة أخرى بعيدة جداً. مرت سيارة شرطة ببطيء، فرحلتُ مسرعة، ووجهي ملتفت إلى جانب آخر حتى لا يلحظ أحد إلى أي حد أنا سوداء، فعلى الرغم من جواز سفر ماريما، وخطاب قطاع الهجرة لسفارة الولايات المتحدة الذي يفيد أن اسمي تم سحبه في القرعة، كان قلبي يرتجف كما لو كان أحد سيلتيني إلى خارج الولاية، وحينئذ فكرت أنه ليس هناك ولو مكان واحد لي في الدنيا، وأنه في كل مكان سأذهب إليه، سيقال لي أنني لست في بلدي، وأنه ينبغي علي التفكير في الذهاب للبحث عن مكان آخر.



فى فصل الصيف، يكاد المرء يهتلق بولاية بوستن، فلقد كان هناك بخار يعلى المدينة حيث تختفى ناطحات السحاب. كانت سارا ليبكاب تقيم فى شقة مكونة من حجرتين فى مبنى من الطوب الأحمر بالقرب من نهر شارل ناحية بى. يو. وفى الصباح، كانت تدرس الموسيقى فى مدرسة دينية، وفى المساء، كانت تغنى فى حانة لموسيقى الجاز مع صديقها جوب، عازف البيانو.

فى الآونة الأولى، كانت الأمور تمضى على ما يرام، إلى حد أنسى لم أشعر مطلقاً بالحرية مثلما شعرت بها فى هذه الفترة، فلقد كانت هذه الفترة مثل عهدى بالفندق والأميرات، والغارق أن هنا لم يكن هناك من إنسان يكلف

أحد بالبحث عنى ؛ فكنت أستقل الترامواى وأذهب إلى حيث أريد ، وأظل خارج المنزل طوال النهار فى باك راى أو فى هاى ماركت أو فى ارليجتون أو فى الميناء ؛ وكنت أذهب إلى كمبريدج سيرا على الأقدام مدلغة على طول النهر أو مستقلة المعبر ؛ وفى الفترة التى كانت تمضى فيها سارا لتلقى دروسها ، كنت أقوم بعملية تنظيف المنزل ، فكنت أنظف وأنسق الأوانى ، وأعد طعام الغداء والعشاء ، ولم تكن سارا تطلب شيئاً منى ، ولكننى كنت أرى أن ذلك أمر طبيعى ، عوضاً عن المسكن كما كان يحدث فى منزل بياتريس ، غير أن سارا وجوب لم يكونا يعطيانى النقود ، ولم يكونا يسألانى البتة كم أنفقت كى أشتري لهم الطعام ، ولم أكن أجسر على طلب النقود منسهما ، ولكننى رأيت أن مدخراتى تنهار ولم تعد لى ولو ورقة مالية خضراء ، ولم يكن فى إمكانى أن أزاو عملاً ، وكنت أترصد صندوق بريدى كل يوم على أمل أن أتلقى مظروفاً مدوناً عليه قطاع الهجرة ، وكنت دائماً منفعة قليلاً ، وكان لى شعور بأن مصيدة تطيق على بهدوء دون أن يكون بوسعى أن أفعل شيئاً.

كانت سارا وجوب يعيشان يوماً بيوم ، فكانا لا يدخران نقوداً ، وكانت سارا تقوم بتسديد إيجار الشقة من راتبها الذى تتقاضاه من عملها كمدرسة للموسيقى ، ولكى تنفق على الأمور الأخرى ، مثل السهرات مع الأصدقاء والمطاعم والثياب ، كانت تنفق مائد عزف البيانو فى مشرب الخمر ، وأظن أنهما كانا يتعاطيان منشطات أيضاً ، فكانا يدعوانى من آن إلى آخر ،

ويصطحباني إلى نادي سي. تي. وايو في منطقة باك باي، الذي كان يسميه جوب "بلاك باي" لأننا كنا نستمتع في هذا المكان لأفضل موسيقى جان.

كانت سارا تحب كثيراً أن تقدمني لأصدقائها، وكانت تجعلني أرتدى مثلها أثواباً سوداء ملتصقة على الجسد، قميص أسود وقبعة، أو كانت تجدل شعري إلى ضفائر صغيرة كما كانت تفعل الأميرات في الفندق، وكانت فخورة بي، وتقول أنه ليس لي من مثيل، وأنني أفريقية حقيقية، وكانت تقول لأصدقائها: "إنها تدعى ماريما، وهي من أفريقيا"، فكان الناس يقولون: "آه؟" أو "اوه"، ويطرحون عليّ أسئلة غبية، مثل "أي لغة يتحدث بها هناك؟". وفي البداية، تعودت على لعبة سارا، ثم أخذ ذلك الأمر يضايقني بحق، أسألتهم نظراتهم وجهلهم بكل شيء. في مشرب الخمر، كانت الموسيقى تدق بقوة شديدة، وكان هناك إيقاع ثقيل يدق في جوفى، وكنت أحاول عبثاً أن أضع يدي على أذني السليمة، صوت الوتر الغليظ كان يدخل جسدي، فيؤلني، وكنت أشرب البيرة، المرجرين، الكوبا الحرة، كنت أرتشف الضوء والدخان فأصبح ثملة مثل حورية عندما عادت من العرس.

ربما كنت أحب ذلك أو ربما لم أكن، فلقد كان ذلك الأمر جديداً عليّ، وكنت أشعر وكأن شخص ما بدل جسدي، فلقد أصبحت رفيعة للغاية، نحيفة تقريباً، وكانت عيناى محمومتين، وأشعر بالكهرباء في أناملى حتى أطراف شعري، وكنت أشعر بالكحول يملأ مفاصلى فيجعلها أكثر ليونة،

وكنت أمضى من مجموعة من الناس إلى أخرى، وكان جوب يمسكنى من منتصف جسدى، ثم يتحدث بصوت جهور وبسرعة، فلم أكن أسمع ما كان يقول، أما سارا فكانت تضحك بطريقة عجيبة، ضحكة خفيفة، تغدو شيئاً فشيئاً حادة، وتدور كالشلال.

كانت سارا ليبكاب تحب أن تقص حكايتى، كيف تعارفنا، فسبق اكسيلسيور، أو كونكور، لا أعرف، تمثال المرأة العارية بين حائطين كما لو كان قد وقع زلزال، والأيام التى كنت أجلس فيها على حافة منصة الغناء، كفتاة صغيرة مجدة كى أنصت إليها وهى تغنى لماهيلا جاكسون ولينا سيمون، وكانت تحكى أنها كانت تعاملنى وكأنها أختى الكبرى، وأنها انتشلتنى أنا التى لم يكن لها أحد فى الدنيا، أنا التى كان بإمكانها أن تعرف الدرايوكا وتغنى، وأنها أتت بى لديها هنا، فى ولاية بوسطن، فى هذه المدينة العفنة، حيث لا يستطيع أحد، ولا سيما شخص ذو موهبة، أن يتمكن، مهما كان الأمر، من الخروج من الفسق بل يمضى ليميشه تماماً.

حدث ذلك فى بداية الأمر، ولكن فى نهاية الشتاء، كانت هناك هذه العاصفة، هذا الإعصار الحلزونى الذى قلب كل شئ، ولا أعرف إن كان هذا بحق الإعصار الحلزونى الذى كان السبب فيما حدث، فلقد كان الطقس حاراً جداً، وثقيلاً جداً فى بداية شهر أغسطس، وأحياناً كان الضباب مترامى الأطراف إلى حد أنه كان يغطى أعلى المبانى، ناحية الميناء. وعندما جاء الإعصار الحلزونى يقصد مرتفع كود، كان هناك إنذار، فأغلق الناس

وعندما رأى أنه لن ينالنى أو خاف أن يأتى الجيران بطرقون الباب كى يسألون عما يحدث، تركنى، ثم أخذ يذى ووضعها على عضو ذكوره المنتصب، وأراد أن أستمنيه، وقال إنه مريض، وأظن أنه قال أننى إذا تركته فى هذه الحالة، سوف يهوى مريضاً، فقلت له أن يمضى يستمنى نفسه ثم رحلت.

دلفت طوال النهار فى شوارع بوستن، وأخيراً توقفت الزوبعة الحلزونية التى استهدفت مرتفع كود ومضت تشعث منازل الأثرياء الخشبية فى منطقة مارثيس فينريد.

بعد الظهر، كانت السماء تمطر، وذهبت إلى الشاطئ الآخر للنهر سائرة فى شوارع كمبريدج المصممة على الطريقة الإنجليزية، وكان الناس يخرجون من منازلهم، وكان هناك طلاب وعشاق يفترشون العشب الأخضر، ويحتمون بمظلاتهم الجولفية، وكان المطر الدافئ يخرج رائحة العشب ورائحة الأرض.

شعرت بنفسى خاوية، منهكة ؛ وفى مقهى بجوار محطة السرام، التقيت بجان فيلان، قال لى أنه جاء ليتعلم فى هارفرد وأنه يُدرسُ اللغة الفرنسية فى إليانس شيكاغو⁽¹⁾. لم يكن طويلاً، كانت مقدمة رأسه خالية من الشعر، ولكن كانت عيناه جميلتين خضراوين، مرتبكتين قليلاً، وكانت له

(1) الاليانس Alliance منشئة تعليمية فرنسية تعنى بتدريس اللغة الفرنسية فى كثير من بلاد العالم. (المترجم)

ابتسامة عطوفة. أمضينا بقية النهار في الحديث والسير في الشوارع والذهاب من مقهى إلى آخر ؛ كان صوته واضحاً فكنت أسمعه جيداً ، وكانت يدها كبيرتين جميلتين ؛ وأظن أنني لم أتحدث مطلقاً مع أحد أكثر مما تحدثت معه ، ويبدو لي أنه منذ سنوات لم أتحدث هكذا ، كما كنت أتحدث مع جد حكيم . كنت أحتسى وجان فيلان من المطر تحت أشجار المنتزه ، وعندما بللنا المطر ، جلسنا في مقهى ، ولكني أفرغ من ذلك الأمر ، مضينا إلى غرفته التي تقع في الطابق الأخير في منطقة "ذا أين" عندما جاء الليل ، وكانت هناك نافذة تطل على شارع ماساشوستس العريض.

لم نكن نتحدث بحق بسبب أنسى الصماء ، ولأن الأخرى كانت متعبة ، وكنت أشعر بالخواء يبدق في رأسي. ولم أشأ أن أفكر فيما حدث في منزل سارا ، إذ كنت أتحدث بالكاد ، وكان جان يتحدث غير ملتفت إلى ، فقص عليّ طفولته السعيدة ، حكى لي عن أخوته وأخواته ، في بريطانيا وفي باريس ؛ ومن آن إلى آخر ، كنا نضحك وكاننا نمتنا لفكاهة هائلة.

كان الوقت متأخراً جداً كي أعود للمنزل ، ولم يكن هناك من شيء في الدنيا يجعلني أعود لمنزل سارا ، فتناولت وجان البسكويت المملح الذي كان موضوعاً في الثلاجة ، وأرتشفنا زجاجات صغيرة من الكحول ومن الجين⁽²⁾ ومن الفودكا⁽³⁾.

(2) مشروب مسكر قوي. (المترجم)

(3) مشروب كحول تشتهر به روسيا. (المترجم)

لم أتم حتى الصباح، وتمدد جان على الأريكة، فبدأ شاحباً ومنهكاً، وكان ذقنه يظل وجهه، وقلت لنفسى أنه عندما نخرج، سيقول العاملون فى الفندق أننى عشيقته أو ربما عاهرة لوقت قصير .

مضينا نتناول الإفطار فى كافتريا الفندق فى الفناء الداخلى : كثير من الشاي، بيض، فاصوليا ، ثم كان على جان أن يستقل طائرة شيكاغو عند الظهر.

عدت إلى منزل سارا.

ولكن خلال الأيام التى أعقبت ذلك، لم تمض الأمور على ما يرام البتة، ولم أعرف ماذا قص جوب على سارا، ولكنها أصبحت مجنونة وشريرة معى. فكرت كثيراً أن أقول لها الحقيقة، ولكن ماذا كان جدوى ذلك؟ فلم تكن لتصدقنى، فدائماً تنحاز السيدات لجانب الرجل، حتى عندما يخطئون وحتى عندما يخونهن.

حينئذ اشتريت بطاقة سفر إلى جريهوند، ووضعت أشيائى فى حقيبة صغيرة، ووضعت كما أفعل دائماً مذياعى الصغير المبقع، وكتاب فرانكز فانون الذى تبقى من ذكرى حكيم ورحلت إلى شيكاغو.

لم يكن لدى خوف من شئ، وكنت قادرة على أن أواجه الدنيا. وبعد وصولي بيومين، عملت فى فندق كانال ستريت الذى يديره مستر استيان، "الستور"، وكان كوبياً مثفياً، وكنت أجمع وأغسل أكواب مشرب الخمر فى "الساعة السعيدة"، وهى ساعة مرور الجريهاوندز ؛ وكانت هناك مغنية

سوداء البشرة لا تشبه سارا البتة، كانت تغنى على موسيقى البلوز⁽⁴⁾ مصحوبة بمزف بيانو منهك. قمت بتأجير غرفة في منزل بمنطقة ساوز روبنسون، فلقد رأيت لافتة على نافذة سفلى من المنزل كلافقات إعلانات السينما، وكان المنزل قديماً متهدماً ومؤسس من الخشب الأشهب، به درج سلم في مدخله، وكان سقفه من خشب القدة الأخضر، وكان به مدخنتين عاليتين من الطوب الأحمر.

بعد ذلك بقليل، سقط عازف البيانو مريضاً، فعزفت بدلاً منه، حيث ساعدتني دروس سيمون وسارا جيداً، وكنت أعزف من ذاكرتى، ولم أكن فى حاجة إلى أن أقرأ عن الموسيقى، وأصبح كل شئ سهلاً بالنسبة لى، كنت أربح خمسين دولاراً كل مساء، ومن أجرة أربعة سهرات كنت أسدد مسكنى ؛ وكنت أتناول عشائى فى الفندق، وقبل أن أصعد على المنصة، وكنت أتناول بفتيك وجمبرى، وكنت أمسك نفسى عن الطعام والشراب حتى مساء اليوم التالى بزجاجات من الحليب وشريرديد وات. كان صاحب الفندق معجباً بموسيقاى، فكان يأتى ليجلس فى الصالون عندما كنت أعزف، كان ينصت إلى الموسيقى وهو يحتسى المياه الغازية. وعندما رحلت المغنية بدورها، عينتني بدلاً منها، فكنت أغنى وأعزف على البيانو، وكنت أغنى أغانى سارا: "بيلى" و"هوليدى" و"نينا سيمون". وفى بعض الأحيان كنت أرتجل، فكنت

(4) blues موسيقى من الجاز ألفها زئوج فى بعض ولايات أمريكا. (المترجم)

أعزف الموسيقى التي كنا نعرّفها في ممرات محطات ريومير - سيباستوبول أو على سقف شارع جافلو، وكان إيقاع البيانو يعزف صوت عاصفة من بعيد، وضوضاء السيارات في الشوارع الكبيرة، وصرخات، ونداءات، وهواء قاطمي الحطب في حقول سان - دومانج⁽⁵⁾: "أوها / هوا! ..".

لم يكن السنور يقول شيئاً يذكر، ولكن مع الطريقة التي كان يتميل بها قليلاً على مقعده مغلقاً عينيه وهو يمتص سيجارته، كنت أدرك أن ذلك يعجبه كثيراً، ولم أكن أدير انتباهي إلى الناس الذين كانوا يشربون في مشرب الخمر، وكنت أعتقد أنني أغنى له بصفة خاصة. حاولت أن أتخيل حياته، وما مر به من أحداث قبل أن يصل إلى هنا، وربما كان عقيداً سابقاً في الجيش الكوبي، أو قاضي صلح قبل كاسترو⁽⁶⁾. وخارج المسهرات في مشرب الخمر، أمام كوب مياهه الغازية، لم أكن أراه البتة، إذ كان يعيش بمفرده في مبنى ملحق بالفندق في نهاية ممر أرضي. لم يكن مسؤولاً عن أي شيء، حتى الدفع للموظفين، فلقد كان سامبو رجله الذي يقوم بكل شيء، فكان يعطيني أجرى بعد كل سهرة.

عثرت على جان فيلان، وكان يقيم مع سيدة تُدعى انجليتا في مبنى راقى، في منطقة بين جروف، بالقرب من لاكسهور، وكنت أقضي معه فترة ما بعد الظهر من آن إلى آخر، حتى أنسى بقية الناس. وكنا نذهب إلى فندق

(5) Saint-Domingue هو الاسم القديم لجزيرة هايتي. (المترجم)

(6) يقصد فيدل كاسترو. (المترجم)

يقع فى أعلى برج، وفى هذا المكان، كان الطقس هادئ تماماً، وساكن تماماً، فكان صالوننا حقيقياً من الدرجة الأولى، ومن خلال فتحته الزجاجية الصغيرة الصغيرة التى تطل على الجانب الشرقى، كنت أشاهد الليل الأزرق والبحيرة وأضواء السيارات التى كانت تتعرج إلى الأسفل على الطريق السريع، كما لو كنت أخلق على بعد ثلاثين ألف قدم. كنا نتحدث فى بعض الأحيان قليلاً، ولكن ليس كما حدث فى غرفة فندق هارفرد، وكنا نقضاجع، ثم نأكل، ثم أنام بثقل حتى المساء؛ وفى معظم الأحيان، عندما كنت أستيقظ، أجد أن جان قد رحل ليدرس محاضراته، وكان يُعدُّ رسالة عن علم الاجتماع حول المهاجرين المكسيك فى ضواحي شيكاغو الجنوبية. مرة أو مرتين، اصطحبنى معه فى أحياء روزل، تانلى، نابيرفيل، اورورا، وكان يُدعى لحفلات زواج وحفلات تعميد، فكان ذلك يحدث كما لو كان يذهب إلى كوكوب مارس، ولست على يقين من أنه - مع كل شهاداته - يفهم أفضل منى ما يراه.

فى روبانسون، كان هناك أناس غريبو الطباع، ففى المساء، قبل قدوم الليل بقليل، كانوا يخرجون من منازلهم ذات النوافذ المسدودة بألواح الخشب، ثم كانوا يبيعون جرعات بودرة ومربعات الراتنج⁽⁷⁾، وتعلمت أن أتحاشاهم. ولكن فى واجهة نافذة غرفتى على الجانب الآخر من الشارع، كان يعيش السيدور، وكان عملاقاً، ضخماً كالذب الأسود، ووجهه طفولى، وكان يرتدى يومياً نفس الملابس من بنطال جينز وقميص قصير لونه أبيض

(7) مادة صمغية لزجة تُستخلص بصفة خاصة من أشجار الصنوبر. (المترجم)

وأحمر، حتى عندما كانت رياح الشمال تهب، وكان يعيش في منزل مقروح مع أمه، وكانت سيدة سوداء البشرة وقصيرة، وكانت تعمل في مقهى، وتصادق معى، فكان كل صباح، عندما كنت أخرج للقيام بالمشنريات، فى حوالى الحادية عشرة أو فى الظهر، كان السيدور يجلس على عتبة منزله يشير إلى كثيراً، ولكنه لم يكن يوسعه أن يتكلم، فلقد كان هناك خلل فى عقله، فكان يحرك رأسه عندما كنت أقول له شيئاً ما، وكان يشبه كلباً ضخماً متوحشاً لكنه مسالم. كان أولاد الحارة يهزئون به، فكانوا يلشون عليه الحمى، ولكنه لم يكن يفضى، وكان بإمكانه أن يجلس لساعات على عتبة بابه، منتظراً عودة أمه وهو يلتهم البسكويت المالح. وكانت العصابات لا تتركه هادئاً، ففي بعض الأحيان، لكى يتسلوا، كانوا يشعلون له سيجارة من الحشيش ليروا التأثير الذى تحدثه عليه، فكان السيدور يدخل السجارة، ثم يأخذ فى التهام بسكويته فى هدوء، وكان يضحك ربما قليلاً، هذا كل شئ. كانت له بحق قوة غير معقولة، فذات يوم صعدت شاحنة صغيرة يقودها ثمل على الرصيف وهشمت جدار مبنى بعيد، فوصل السيدور، وتعلق فى الجسر الرفوع وبثقله فقط رفعه ثم وضعه فى مكانه. ويبدو أن منظم المنازلات أراد أن يجعله يعمل لديه، ولكن السيدور كان رقيقاً جداً، كثير العطف، لم تكن لديه رغبة فى أن يتقاتل، ولم يكن يتكلم كثيراً، وكان كل ما يقوله، يدور حول الطقس المتوقع فى فصل الشتاء: "ربما تمطر، ربما تثلج، لا أرى".

كانت أمه تحميه، فذات يوم، كنت أجلس على درجات سلم بيته بجوار السيدور، وكان معي كتاب في الرسوم المتحركة، فلقد صممت على أن أعلمه القراءة، وجاءت أمه، وعندما رأته غضبت وقالت: "ما هذه الزنجية؟ ماذا تريد من ابني؟"، فلم أعاد فعل ذلك مطلقاً.

ومع ذلك، فذات يوم من بعد الظهيرة، وقعت هذه القصة النجمة مع الشرطة، فكان من المفترض أن العمدة أعطى تعليمات حتى يتم القبض على بعض الأشقياء، حتى تلتقط له صورة فوتوغرافية وتتحدث عنه الصحف، ولا أعلم لماذا اختاروا شارع روبنسون هذا، ربما لأنه لم يكن يحدث به أي شيء. بغتة، وصلت سيارات الشرطة في شكل علب، فأغلقت الشارع، وهجم رجال الشرطة على المنازل، خاصة المنازل الواقعة في أطراف الشارع، والتي كانت نوافذها مغلقة بأنواع الخشب، وعلى ما يبدو فإنهم قبضوا على بعض الصبية، وفجأة، شاهدوا السيدور، وكان العملاق قد نهض من نوم القيلولة، فخرج على عتبة بابه، يرتدى دوماً عفريتته الجينز والقميص الصغير الأحمر والأبيض، وعندما رأى الفانوس الدوار يومض، شده ذلك فتقدم بخطوات حتى يرى ماذا يحدث، وفي أعلى درجات السلم الخشبية، بدا أكثر طولاً وأكثر ضخامة، كدب حقيقي يخرج من الغابة، فأنقبض قلبي لأنني لاحظت أنه لا يدرك الخطر وأن رجال الشرطة ينتابهم خوف منه، فأردت أن أصبح له: "السيدور، ارجع، عد إلى منزلك"، وكانت مكبرات صوت الشرطة تصدر أوامر، ولكن السيدور لم يكن يدرك ذلك بالتأكيد، ومضى في السير

باتجاههم، واضعا يده في جيوبه متمايلا بلطف، فقفز عليه ثلاثة رجال من الشرطة، وحاولوا أن يسقطوه على الأرض، ولكنه دفعهم بضربة مفاجئة، فكان يعتقد أن الأمر فكاهة، ونظر إلى أسلحتهم المصوبة إليه دون أن يفهم، واستمر في التقدم نحو منتصف الشارع، ولكنه لم يعد يضع يديه في جيبه، وعندما تيقن رجال الشرطة أنه غير مسلح، اغتتموا الفرصة، فقفزوا عليه وشرعوا في ضربه بالعصى، على ظهره، وعلى ساعديه، وعلى رأسه، فكان السيدور ينزف دما من أنفه ومن جمجمته، ولكنه كان لا يزال منتصبا، ودار حول نفسه متذمرا، وزراعيه ممدودان كما لو كان يسعى للتعليق بشئ، ثم ضربه رجال الشرطة على ساقيه، وفي النهاية سقط على الأرض، ثم استمروا في ضربه بضربات مطوقة وبقوة شديدة لدرجة أنه خيل لى أننى أسمع صوت الضربات، وكانوا يسبونهم ويضربونه. وفي النهاية، رأيت السيدور يركض راكدا على الأرض، واضعا زراعيه على رأسه حتى يزود عن نفسه الضربات، وكان يطلق صرخات تدمر واستنجاد بأمه.

وصلت العجوز في اللحظة التي حملوا فيها السيدور في سيارة، وكان ضخما لدرجة أنهم لم يتمكنوا من إدخاله مستقيما، فدفعوا رأسه إلى الأمام وضربوا ساقه حتى يثنى نفسه في السيارة، وجرت العجوز السوداء خلفهم وهي تصرخ، كانت تسعى لتلحق بهم، ثم رحلوا فمادت إلى منزلها وأغلقت بابها. كانت على يقين من أننا جميعا - فى هذا الشارع اللعين - نحن الذين أرسلنا رجال الشرطة للبحث عن أبنسها. وبعد يومين من ذلك،

وبعد أن عاد السيدور، تبدل شيء ما، فلم يعد يجلس في خارج المنزل يشاهد الناس وهم يعبرون في الشارع، وظل حبيس المنزل، فلقد كان خائفاً. وبعد ذلك ببضعة أيام، رأينا لافتة على المنزل، فلقد حملت العجوز السيدور إلى حي آخر، فلم أعد أعرف عنه شيئاً.

بعد ذلك، عرفت الانحراف، كان لدى منه ما يكفيني وأنا أقتسم جان مع إنجيلا، فلقد خرجت مع بلا، وهو من الإكوادور، وكان يقيم بمنطقة جوليت، وكان فارغ الطول، نحيف البدن، شعره طويل مثل هنود السيما، وكان يضع حلية صغيرة ماسية مصقلة في أذنه اليسرى ؛ وكان يحلم بالرج⁽⁸⁾ والراجا وأن يشهر علامته التجارية، وفي انتظار ذلك، كان يتاجر بشكل غير شرعي في ملاقيط الشعر والمواد المنبهة، وقليل في البودرة، وكان يتعاطى المخدرات أيضاً، ولكن هذا الأمر لم أكن أعرفه عنه. كنت أذهب معه إلى مشارب الخمر، في حانات البلوز⁽⁹⁾، وكنت ألتقي بموسيقيين ؛ وكنت أظل خارج غرفتي طوال الليل، وكنت ألتقي بنجوم في لعبة كرة السلة ولاعبين مشطوبين من سجلات الرياضة متسكعين ونساء شهيرات تتصرفن على نهج جانيت جاكسون وهي تغني "فر إذا أردت أن تحيا"، ورجال من جاميكا يتصرفون على نهج زيجسي مارلي، ورجال من هايتي يتصرفون على نمط الفوجز. أما أنا فكنت أحب الأغاني القديمة: كأغنية رازهل "راعي

(8) reggae موسيقى يعزفها الزوج في جاميكا. (المترجم)

(9) موسيقى من مشتقات الجاز لها زئوج الولايات الأمريكية. (المترجم)

الضوضاء"، وأغنيات هلاك ثو وهوب ومارك وكامل. واستبدلت المذياع القديم بجهاز تسجيل صغير، كنت أمضى فى كل مكان ومعى الموسيقى العميقة فى أننى الوحيدة، كما لو كان العالم أجمع صامت، وكنت أرتدى ملابس مثلهم، كنت أسير وأشعل الغليون مثلهم، وكنت أتحدث مثلهم، وكنت أقول بالإنجليزية: "أتعلم ماذا أقول؟"، وما من إنسان كان يوسمه أن يظن أننى أتيت من الجانب الآخر من العالم. ذات مرة تحدثت عن المغرب، وهى الطرف الآخر من الدنيا، ففهموا أننى أتحدث عن موناكو، فلم أعد الكرة. ولم يكن هناك من إنسان يعرف ماذا يعنى أن يكون المرء من أفريقيا، ثم أننى لم أكن قد تسلمت بعد البطاقة الصغيرة البلاستيكية الخضراء التى تمنح كل الحقوق. كنت أرى جان من آن إلى آخر، ولكنه لم يكن يحب أن يشاركه أحد مثل بيلا فى، ولما كان ذقنه صغير، فلقد كان يبدو أكثر حزناً.

بفضل سينور، أصبح لدى رقم فى التأمين الصحى ورخصة قيادة، وذات مساء، ودون أن يخطرنى، دعا مستر لورى إلى مشرب الخمرة حتى يسمعنى وأنا أغنى، وعندما انتهيت من دورى، دون مستر لورى على بطاقة زيارته موعداً لليوم التالى، وذهبت بمفردى لحجرة التسجيل، دون أن أحدث بلا، ولا جان، ولا أى شخص، ولم أسر ما الذى كان يريد مستر لورا منى، فارتديت بنظلاً ضيقاً، وقميصاً من الصوف فضفاضاً لونه أسود، ورقبته مستديرة تحسباً للحالة التى من الممكن أن يعتدى على فيها. كان الاستديو يقع تحت الأرض من مبنى فى منطقة أوهيو، وكانت هناك صالة كبيرة

مفروشة بعازل أسود، وبها بيانو أبيض فى منتصفها، وكان الأمر مخيفاً إلى حد ما. عزفت كما تعلمت مع سيمون فى منزل لابليت أوكساي، منحنية على لوحة المفاتيح حتى أنصت للنفوثة الخفيفة وهى تدق، وغنيت لانا سيمون أغنية: " أضع هجاء لك" وأغنية "أسود لون بشرة حبيبى"، ثم عزفت مقطوعتى، تلك التى أعوى فيها كمقطعى الحطب والتى أصبح فيها كصياح كطيور السمامة فى السماء فوق فناء لالا أسماء، والتى كنت أغنى فيها كالعبيد الذين ينادون أجدادهم على حافة المزارع وهم منتصبون فى البحر، ثم عاودت غناء أغنيتى " على السقف" تذكراً لشارع جافلو وسلم رجال الإطفاء الذى يقود إلى سقف الدنيا. كان قلبى يدق بشدة، وحتى أمنح نفسى الشجاعة، فكرت فى صوت دجاما الغريب والمنتعش الذى كنت أسمعه فى الماضى فى دوار تبريكة ومذايعى ملتصقاً بأذنى، عندما كانت تعلن عن كات ستفانز على إذاعة تانجير، صوت أمريكا.

الآن بعد كل هذه السنوات، أعرف ما أريد أن أسمعه: هذا الرنين اللامنتقطع والأصم والخفيض والعميق، صوت البحر على هضبة الأرض، صوت الناقلات الحديدية على شرائط السكك الحديدية اللامتناهية، رمجرة الأعاصير المستمرة التى تخرج خلف الأفق كالقنهد أو الضوضاء القادمة من المجهول، صوت دم شرايينى عندما أستيقظ فى الليل وأشعر أننى وحيدة.

فى هذه اللحظة، أعرف ولم أعد أخاف من شئ، وأعلم من أنا، وحتى طرف العظمة الصغير الذى تهشم خلف أذنى اليسرى، لم تعد له

أهمية، وحتى الحقيبة السوداء والشارع الأبيض والصرخة المدوية لعصفور الشر، لم تعد هناك أهمية أيضاً في حياتي لزهرة ولا هابيل ولا السيدة دلاهاى ولا حتى لجوب، لكل هؤلاء الناس الذين يراقبسون بدقة ويطاردون ويمسكون شباكهم فى كل مكان . غنيت لوقت طويل، دون أن آخذ نفسى تقريباً، فانتابنى ألم فى أطراف أناملى، ثم انتابنى شموخ سدوار كبير، وكأننى فى معرات محطات المترو الخاوية عندما يفسر الناس، أما مستر نروا فلم يقل شيئاً، فرحلت من قاعة التسجيل وقلبي منقبض، كان لدى انطباع أننى فشلت فى كل حياتى، وقررت ألود بالفندق مع جان فيلان.

رقدت على مدار نهارين وليلتين، دون أن أستيقظ تقريباً، فلقد استنفذت كل طاقاتى. وبما أننى رأيت العملاق السيدور ملقياً على الأرض على يد رجال الشرطة، مضروباً ومتروكاً لبكاء أمه وكأنها تبكى طفل صغير، فلم يكن فى وسمى أن أعود إلى شارع روبنسون، فما زالت تدوى فى أذنى صفارات سيارات الشرطة عندما أغلقوا الشارع. ومع وجود سماء فصل الخريف الزرقاء والأشجار حمراء اللون، إلا أن الأمر لم يكن مختلفاً عن شارع جان - بوتن، ولا يختلف كثيراً عن فناء لالا أسماء، ولا عن الشارع الأبيض حيث أختلطت عندما كنت صغيرة.

قبل هبوط الثلوج فحسب، وفى شهر نوفمبر، تلقيت فى آن واحد خطاب هيئة الهجرة به بطاقة إقامتى، وموعداً مع مستر نروا لتسجيل أغنية "على السقف". وفى قاعة التسجيل، كان هناك المنتج والمساعدين والفنيين،

ومزفت وغنيت في فترة الصباح، وكان التسجيل يتقدم قليلاً، وكان الأمر يستلزم أن أعود للوراء دوماً، ثم أبدأ من جديد، ثم، عندما فرغت من ذلك، وقمت عقداً لشريط واحد ولكل ما أنتجه على مدار خمسة أعوام، فلم تكن لدى طوال حياتي نقود أكثر من ذلك، ولم أكن أدرك ما حدث جيداً. في الليل التالي، وفي صحبة بيلا والموسيقيين، ذهبت ومستقر لروا ومساعدو الإنتاج إلى مطعم "ليجران" لصاحبه ماجيك جونسون، وكانت رأسي تدور، وكان يبدو لي أنه لم تعد لي حدود، وكانت هناك صحفية تطرح على أسئلة، فكنت أقول لها أي شيء، أنني فرنسية، وكنت أفريقية، وعندما سألتني عن عنوان أغنيتي القادمة، قلت لها دون تردد "إلى السيدور مع حبي"، وانتابني غضب مفاجئ، وكنت ارتعش. كان لدى انطباع أن موسيقى الطبول في محطة ريو مير - سيباستوبول كانت موجودة في كل مكان، في الهواء، في دخان مشارب الخمر، في اللعان الأحمر الذي يظل فوق شيكاغو حتى الفجر.

في الصباح، تركتهم جميعاً، وسرت على طوال البحيرة، كان الطقس بارداً للغاية ولم أكن أرتدي سوى قميصي الجلدي وقبعتي السوداء الممدودة حتى أذني، وكانت أشجار الحور الرجاجة مشتعلة، والسماء كان لونها أزرق كثيف، والشمس كانت تشرق فوق البحيرة. رأيت أسراب طيور الكركي تعبر نحو المكسيك الجديدة.

انتظرت باحتشام في ممرات الاليانس الفرنسية، فلم يتعرف على جان فيلان على الفور بسبب قميصي الجلدي الأسود وقبعتي، ثم اعتذر

للطلاب، قال لهم إن لديه أمراً هاماً وعاجلاً، وسرنا في الشوارع المريضة، تناولنا إفطاراً، كما حدث في هارفرد، ثم مضينا حتى الهواء الطلق الذي كان يحيط بمحطة القنقية على شاطئ البحيرة. كان هناك أناس جالسون على العشب الأخضر، تجرها كلاب ملكية، وكان هناك شيوخ يرتدون ملابس رياضية ويمارسون لعبة التيشي⁽¹⁰⁾، كان الطقس بارداً. وعند مروري أمام مبنى في حي شريدان، استأجرت شقة صغيرة، وسددت القنود في الحال، فدفعت شهراً من الإيجار كضمان وشهر آخر كإيجار مقدم، فلقد أردت أن أتصرف كما لو كنت أنا وجان زوجان دون شهود ودون كنيسة ولا مستندات ولا مستقيل ؛ وأعتقد أنني أصبحت حبل في هذه الآونة.

لا أعرف أي شيطان دفعني للعودة إلى بلا في شقته في لابلارا بمنطقة جوليت، وربما كان هو الشيطان، أو لربما كان جان فيلان لأنه جعلني أنتظر كثيراً، ولأنه أنتظر الكثير مني، وأظن أنه لم يكن يوجد شخص أكثر ضجراً مني آنذاك.

في شيردان، كنتُ سجين في قفص من الزجاج والحديد، أعلى المدينة والبحيرة المتجمدة، وفي مكان مُغلق بإحكام إلى حد أنني كنت أظن أنني أصبحت صماء الأذنين. كنت أنتظر طوال اليوم، كنت أنتظر أن ينهي جان محاضراته، كنت أنتظر أن يفرغ من تلاميذه، من أساتذته ومن مقالاته، ثم كنت أنتظر أن يفرغ من إنجيلا. وفي حوالي الرابعة، كان جان يأتي على

(10) رياضة صينية تعمل على تنشيط العضلات. (المترجم)

عجل، يحمل زهوراً، وزجاجة خمر، ويرتقال، كما لو كان يعود مريض ؛
 وكنا نقضاجع حتى على الموكيت، أمام الفتحة الخالية حيث يكون الظلام قد
 هبط، ثم أرقد معانقة له، كما كنت ألتصق في ظهر لالا أسماء . في منتصف
 الليل، كان ينصرف على أطراف أقدامه، وذات يوم، سألته أن يريني صورة
 لصديقته ؛ كانت تضحك بغباء قليلاً، على عشب أخضر كبير أمام حمام
 سباحة. كان اسم إنجيلا اسماً يليق بها كثيراً، فلقد كانت فارعة الطول،
 شقراء، ملائكية، على عكسي تماماً في مجمل الأمر، وكانت روسية أو
 لتوانية، لا أعرف، وكانت تعمل كطبيبة.

وبلا أيضاً كان على النقيض تماماً من جان، فكان رفيع الجسم
 كالنبات متسلق، عذياً وعنيفاً، يشوبه نوع من الغضب المكتسب، وكان يُعنى
 عناية تامة باختيار ملابسه وأحذيته وأقمصته الحريرية السوداء، وكان يظلي
 كل صباح الحلى الماس المصقل الذي كان يضعه في أذنه، كان يقول إن ذلك أتاه
 من أخته، وأنها أعطته له قبل أن تموت من جرعة مميتة عند أقربائها في
 واشنطن. معه، كان شعوري بالفراغ يقل، وكذلك قلق الانتظار. وفي الواقع،
 لم أعد أنتظر شيئاً، فكنا نعيش اليوم باليوم، وكنا نستمتع للموسيقى، ونذهب
 لشارب الخمور والحانات الليلية والسهرات ؛ وكان مستر لروا لا يحب بلا،
 وذات يوم هتف إليّ ولا أعرف كيف حصل على رقم الهاتف، وقال لي: "إنه
 نمط لايناسبك، فهو ضعيف جداً وسوف يهبط بك"، فغضبت وقررت ألا أعود
 إلى غرفة التسجيل.

كان ذلك قبل قدوم فصل الربيع، وكان بلا يواجه صعوبات مالية، فكان مدافناً بأشهر إيجار مسكنه، وخططنا مشروعاً للرحيل إلى كاليفورنيا بالسيارة، ولكننا لم نتوصل لاتخاذ القرار. في المساء، كنا نتسكع حتى الرابعة صباحاً أو حتى الخامسة في الحانات الليلية، نشرب ونشمل الفليون، وعندما كنا نستيقظ، كنا نجد أن الوقت متأخراً جداً، إلى حد أننى لم أعد أعرف فى أى يوم من الأسبوع أكون؛ ثم طرد بلا من لابلزا، فذات بعد ظهر يوم من الأيام، وأنا عائدة إلى المنزل أحمل حليباً وفتاتاً وبعض الأشياء للعشاء، لاحظت أن مغلاق الباب قد تغير، وجاء بلا فغضب، ولم أره مطلقاً فى مثل هذه الحالة، ولاحظنا أن أشياءنا وضعت فى سلات القمامة أسفل درجات السلم أسفل المطر، ففرغ بلا الباب بضربات قدم قوية، وكان يصيح بشتائم، فقدم رجل أمن المساكن يحمل مطرقته الإلكترونية وهاتفه، وتظاهر بلا بأنه يتشاجر، فصعقه رجل الأمن بعصاه، ثم نادى رجال الشرطة، فصرخت وتشبهت بالأرض وصرخت ثانية، ثم جررت بلا من شعره حتى المكان الذى تتوقف فيه السيارات، وكان أمراً مضحكاً ومرعباً. وضعنا حقائب القمامة فى السيارة ورحلنا قبل أن يصل رجال الشرطة، وحتى ينتقم، ألقى بلا زجاجة، من عصير الطماطم على واجهة المنزل، والتى ألصقت بقعة عريضة حمراء على الحائط؛ وفى ذات الوقت، كان يصيح كنشيب من المدينة القديمة، ثم لانا بأحد أصدقائه فى المدينة التى يكثُر سكانها من الصينيين، ثم قررنا أن نرحل إلى كاليفورنيا، فعبّرنا كل الولايات المتحدة تقريباً دون أن

نتوقف، قائدين السيارة بالتناوب، ليلاً ونهاراً، نائمين في مواضع توقف السيارات. في بعض الأماكن، في أركانساس وفي أوكلاهوما، كان الطقس بارداً جداً، وكان هناك ثلج على المنحدر، فسقطت مريضة، وكنت أرتعش، كان بي ألم في رأسي، وكنت أتقيأ، فقال لي بلا: "لا عليك، سيمر هذا الأمر بسلام، إنه زكام"، ولكن الألم لم يفارقني، فلم يكن مجرد زكام، بل حمى شوكية. عندما وصلنا إلى كاليفورنيا، كنت على وشك الموت، كان ظهري وعنقي مجمدين، وكان هناك ألم واخز يدق في أذني، وكنت أشعر وكأن قلبي متوقف، ولم أستطع أن أتكلم، ولم أعد أسمع ما كان يقوله لي بلا، وكانت عياني مفتوحتين نهاراً وليلاً كما لو كنت قد سقطت من الفضاء. في سان بيرناردينو، فقدت الجنين ونزفت دماً غزيراً، فكان بلا خائفاً من أن أموت في السيارة، فوضعني وحقيبتي على باب مستشفى، ولا أعرف ماذا قص عليهم، ربما أنه انتشلني من نقطة إيقاف أو شيئاً ما، لأنني لم أراه مرة ثانية، وربما قبض عليه رجال الشرطة وهو يبيع البودرة أو الأختام، وهكذا فقدت أحد قرطي الذهبين التي أعطتني إياهما لالا أسماء، ولكنني كنت مريضة بشدة حتى أهتم بذلك.

عندما دخلت مستشفى سان بيرناردينو، كنت فاقدة الوعي أو هكذا تقريباً، وأمضيت وقتي مكورة، مختبئة أسفل الملاءة حتى أهرب من الضوء. وبسبب الحمى والجفاف، كان لساني أسود اللون ومتورم، وكانت شفاهي تنزف دماً، حتى أنني لم أمد أضع في اعتباري أنني صماء. كنت في شرنقة،

مكورة فى قاع مغارة، فى عمق ألى، وكان بطنى، وهو روحى وكائننى، قد فسد كثيراً، فلقد كُحِت وأُخِلِى إلى حد أننى لم أعد أعيش إلا له. فى بعض الأحيان، كان يأتى شخصٌ ما يضطرنى إلى الاستيقاظ والتبول فى الحسوس ثم يقوم بحقنى، وكنت أشعر بإبرة تنفوس فى ظهرى، بين فقراتى، فكنت أصرخ من الألم، ثم أهوى منهكة على الفراش.

فى هذه الآونة، رأيت ندى للمرة الأولى، وسميتها ندى فى داخلى، لأنها وضعت يدها الندية جداً على جبهتى، فكأنت كندى الصبح، ورأيت وجهها الأملس الداكن وعينيها اللوزتين السوداوين، وشعرها المصفف فى ضفيرة واحدة سمكة كالذراع. كانت تجلس بجوار فراشى، وكنت أنظر إلى عينيها، وأتبحر فى نظرتها، وأتشبث بيدها، ولم أكن أود أن تتركنى.

حينئذ نمت للمرة الأولى منذ أسابيع، ورأيت فى المنام أننى لا أنام، وأننى أتحرج خلف موجة. فى كل صباح، كنت أنتظر عودة ندى، بيدها الطرية، وعينيها. كانت الوحيدة التى قادتنى نحو البسيطة، نحو النور، فبدأت أخرج من مغارتى، وهى الوحيدة التى كان بإمكانها أنى تضعنى على العتبة، هناك حيث كانت تُسمع موسيقى الأطفال وصيحات العصافير، وحتى غطيط السيارات فى الشوارع. كنت أجمع الأقراص النومة لها، ثم كنت أخرجها فى منديل تحت وسادتى، وفى الصباح كنت أقدمها لها، فلم يكن لى شيئاً آخر أعطيها إياه.

جاء رئيس الأطباء ذات صباح بصحبة طلابه، ثم عقد محاضرة، وكان طلابه يدونون ما يقول في كتبهم، وكنت أنظر إليهم حتى يخفون أعينهم، وكان الصبية يضحكون مستهزئين، ولم أكن أهتم بذلك، فلقد كنت أنتظر ندى.

جاءت قبل قدوم الليل، قبل أن تعود إلى حيث تقيم في وإلى مؤسسة سان جوان. لم تكن تُدعى ندى، كانت تضع شارة على قميصها الأبيض مدون عليها اسمها: شافيز، وكانت هندية، فلم تكن تكلمنى بغير الإشارة، كانت تومئ لى بيديها ووجهها عن كل ما تريد أن تقوله لى، وكانت تخط أحرفاً بأناملها، وتعلمت الرد عليها، تعلمت أن أقول امرأة، رجل، طفل، حيوان، يرى، يتكلم، يحرف، يبحث. وكانت تعرف قصة الجنين، فلقد كان العاملون في المستشفى يواجهون هذه المشكلة إضافة إلى المشاكل الأخرى، ولم تسألنى ندى عن شئ. أرثنى صور رجال في مجلة بالصادفة: هوج جرانت، سامى دافيد، كينو ريفز، بيل جوسبى وفهمت، وضحكنا كثيراً، وأظن أنها خافت أن يكون جنينى جاء على أثر حالة اغتصاب، وحينئذ، دونت على المجلة اسم جان فيلان، وأضفت كلمة نعم، إنه اسم رجل.

ذات صباح، قلت لها بالإشارة إننى أريد الانصراف، ففكرت ندى للحظة، ثم حملت إلى ملابسى، وتقهقرت للخلف ثم فتحت باب الغرفة، وكان ذلك أمراً غريباً بالنسبة لى، لأنه حتى هذه اللحظة لم أكن قد رأيت منها سوى وجهها البهيماء الصافى، والذى يشبه قناع من الذهب،

وحواجبها المقوسة، وعينيها المشابهتين لدمعيتين من السبيج⁽¹¹⁾، وشعرها الأسود الناعم اللامع. وعندما وقفت أمام البساط المفتوح، رأيت أنها ضخمة وبدينة، ومن المفترض أنها قرأت في عيني دهرشتي، لأنها أشارت لي عن أرادفها الكبيرة وهي تضحك.

ارتديت بنطالي الجينز الضيق وقميص قرمزي اللون، ثم وضعت على شعري القبعة السوداء والتي عليها ثبت قرط الهلال الآخر، ثم وضعت النظارة السوداء الشهيرة التي أعطاها لي بلا قبل أن نرحل، وكانت علامة على الحزن، ولكن ها أنا التي كانت مفقودة. أردت أن أترك شيئاً ما لندي، على سبيل الذكرى، فأعطيتها كتابي عن فرانكز فانون والذي وجدته في قاع سلة مهملات، وكانت صفحاته مثنية الأطراف ومستهلكة وكأنها صفحات دعاية لمنتج ينقصها الصور التوضيحية، ولكن هذا الكتاب كان أنقذت شيء معي.

عندما عانقت ندي شافز، أعطتني بعض الدولارات من أوراق مستديرة موضوعة في مشبك كما فعلت حورية في السابق عندما رحلنا من تهريكة. هبطت السلم ومررت أمام مكتب الحارس متخذة طريقي بشكل مستقيم تماماً دون أن ألتفت إلى أي شيء.

(11) مادة قهريه تلتهب كاللحم الحجري وتستخدم الكلمة في وصف العيون للدلالة على شدة

سوانها. (الترجم)

ظللت لوقت طويل لا أخرج إلا ورأسي يدور، وساقاي بأبنيان السير،
وكنت أخفقت في العودة، وكنت أسمع وقع أقدامي على الرصيف، وصوت
الدم في شراييني، وصوت الهواء في رئتي، وسمع ذلك، لم أكن أسمع شيئاً
آخر.



مشيرة للال

ظللت أسير لمدة أيام، حتى نهاية الشوارع، حتى البحر، حتى نهاية الدنيا، حتى الموت، وكنت أنسل وسط الناس، بين السيارات، مهرولة في الغالب، كنت أكثر سرعة من الآخرين، فليس هناك من شئ يمكنه إيقافى، فلقد تعلمت الجرى منذ وقت بعيد عندما خرجت من فناء لالا أسماء. تعلمت أن أنحاشى الشراك والأخطار وشرطة زهرة، فكنت أترصد بطرف عيسى، ثم أندفع، وأكون فى توازن كالسهلوان على الخط الأوسط من قارعة الطريق. الشاحنات تلامسنى، والأتوبيسات والعربات المعدنية يصدم هوائها وجهى، وأستم رائحة عجالاتها العشر التى عندما تسير تحدث شئ دقيقاً أسوداً.

السير عكس سير السيارات، أمر تعلمته بالغريزة، فإذا ما مشيت أنت فى اتجاه السيارات فلن تراها وهى قادمة، وتكون آنذاك فريسة أو

ظللت لوقت طويل لا أخرج إلا ورأسي يدور، وساقاي يأبيان السير،
وكنت أخفقنت في العودة، وكنت أسمع وقع أقدامي على الرصيف، وصوت
الدم في شراييني، وصوت الهواء في رئتي، وسمع ذلك، لم أكن أسمع شيئاً
آخر.



عشيرة هلال

ظللت أسير لمدة أيام، حتى نهاية الشوارع، حتى البحر، حتى نهاية الدنيا، حتى الموت، وكنت أنسل وسط الناس، بين السيارات، مهرولة في الغالب، كنت أكثر سرعة من الآخرين، فليس هناك من شيء يمكنه إيقافى، فلقد تعلمت الجرى منذ وقت بعيد عندما خرجت من فناء لالا أسماء. تعلمت أن أتحاشى الشراك والأخطار وشرطة زهرة، فكنت أترصد بطرف عينى، ثم أندفع، وأكون فى توازن كالبهلوان على الخط الأوسط من قارعة الطريق. الشاحنات تلامسنى، والأتوبيسات والعربات المعدنية يصدم هوائها وجهى، وأشتم رائحة عجالاتها العشر التى عندما تسير تحدث ثرى دقيقاً أسوداً.

السير عكس سير السيارات، أمر تعلمته بالغريزة، فإذا ما مشيت أنت فى اتجاه السيارات فلن تراها وهى قادمة، وتكون أشدّك فريسة أو

ضحية، ثم شهدا السيارات من سرعتها وتنسحب على طول الرصيف، وأعطيتها الطويلة براقه، وزجاجها مصبوغ، وهنا تفتح أبوابها، وتجد أيدى تسعى للإمساك بك وتضعك فى السيارة.

على التقيض من ذلك، إذا سرت عكس سير السيارات - وهو أمر ينعكف على جنون منك - فأصحاب السيارات هم الذين يخافون منك، فى مقاعد قيادتهم، خلف زجاجهم، فيتبعاعدون عنك، ويتركوك فى هدوء، ويديرون آلات التنبيه بكل تأكيد، ويطلقون صيحات ذئاب. ولكنك فى الحالة الأخيرة، ترى الشمس فى وجهك عند الغروب، وتحرق الشمس صدرك وشعرك ولا تسمع شيئاً.

أفكر فى ندى شافيز، أميرتى بفندق سان برناردينو، والجميلة جداً فى أردافها العريضة وطالعها الهندى وعينيها التى كنت أستطيع أن أقرأ فى تياراتها المنزلة على سطح مائها، ويدها الطرية من ندى الصباح ؛ وهى الوحيدة التى لم تطرح على أسئلة، ولم تنصب لى شراكاً، وعندما كانت تأتىنى فى كل صباح، كانت تجلس على المقعد البلاستيكى الموضوع على رأس الفراش، وكانت تمد يدها حتى أضع فيها حفنة من الأوراق بها حبوب بيضاء وحمراء كانت تجعل المجانين ينامون ؛ وكانت تضغط بيدها على جبينى، فتعطىنى قوتها. وبوما ما، عرفت أننى مهيئة، ففتحت لى الباب حتى أنصرف.

لكى أكل، أو أكون فى الظل أو فى محمى من مطر الصباح الخفيف، كنت أدخل المراكز التجارية الكبرى. وللهباب من محطة الجريهوندر فى

المنطقة السابعة والمادة إلى سانتا مونيكا، كنت أستقل الأتوبيس لمدة ساعة أو كنت أقطع المسافة في نصف نهار سيراً على الأقدام، وعندما كنت أذهب هناك، أصبح في مجالى، فكنت أختفى وسط الحشود، وأتتبع الممرات، ثم أصبر الميادين الصغيرة والساحات، وأهبط السلالم المتحركة، وأصعد فى المصاعد الكهربائية الشفافة، وكنت أذهب إلى أى مكان حتى إلى الأدوار تحت الأرضية، وإلى الأماكن التى تقف فيها السيارات. كنت حاذقة، فلم أكن أذهب إلى مكان بالصدفة، وكنت أعرف أى زاوية أو أى ممر. وكان المشهد مشابهاً للمشهد الذى كنت أراه فى السابق من سطح شارع جافلو، ولكن هنا المساحة كانت شاسعة كالجزيرة، وشاسعة كقارة.

أعرف الأسماء والأوجه ورسومات واجهات المتاجر ؛ وعرفت الحراس، وهم أيضاً عرقونى. أظن أنهم كانوا يروننى على شاشتهم التلفزة ثم يعلنون الخبر: "هناك صبية غريبة، سوداء البشرة، ترتدى قميصاً أحمرًا وتضع قبعة سوداء، وهناك شئ على قبعتها، نجمة أو رسم قمر... لا تبعد نظرك عنها" ؛ فكنت أراقب، وكأنت هناك ظلال خلفى تقتفى أثرى، كالذئاب فى غابات كندا، وكأسماك القرش فى خليج كوباكابانا، فكنت أجرهم خلفى، وأعلم بالضبط أين هم، وماذا يفعلون ؛ وكان يوسعى أن أضللهم متى شئت، ولكننى كنت أمزح بوجودهم خلفى وأنهم يتناوبون علسى ويتتبعوننى بعيونهم. وفى لحظة ما، كنت أظاهر بأننى أختبئ، ثم أخفار الكثير من البذل الكشمير التى كنت أضعها على قميصى الأحمر، ثم أتردد،

والنس الأنسجة، أشاهد بطاقات الأسعار ورأسي مائلة قليلاً كدجاجة تنترصد، ثم أترك كل شئ وأرحل في خطوات واسعة. وذات يوم، تم إيفافى وتفتيشى في حجرة صغيرة على يد امرأة بدينة مخبولة، فلم تكن تعلم من تفتشها، ولم تكن تعرف أن لى عينان خلف رأسى، ومنذ أن فقدت السماع بأذنى الأخرى، وأنا أرى كل شئ من على بعد كيلومترات، ويمكننى أن ألتح حركة حارس وهو يحك ما بين أفخذه على الطرف الآخر من الصالة؛ ولم أكن أذهب كى أسرق، لكنى أمدحهم متعة متابعتى.

كنت أجرب الملابس، هذا كل ما فى الأمر، وهذا أسلوبى حتى أكون شخصاً آخر، بمعنى أن أكون أنا، وكنت أجرب تنورات قصيرة من الجلد الأسود ومن حرير الرايون، وأثواب من الأسترتش الأبيض، وبساطيل ضيقة الأرجل من الجينز، وأقمصة رياضية وأقمصة من الحرير وكنز صوفية من ماركة تى. اليفجر ونوتيكا وأقمصة رياضية أكمامها طويلة من ماركة جاب وار. لوران وسى. كلان وماركة لى وأقمصة بيضاء من ماركة إل. اشلز. وكنت أذهب إلى قسم ملابس الرجال، وأقتاس البذل، والملابس الرياضية، والبديل الأوشكوش، والسترات الواقية من الريح من ماركة ذا مفز ستورات سيرزس؛ ثم أرتدى بنطال الجينز الأسود، وقميصى القرمزى وقبعتى السوداء وأخرج. ما كنت أسعى إليه، هو انعكاسى فى المرايا، فلقد كان يخيفنى ويجذبنى. وكنت أقول لنفسى ها أنا بعينى، ولكننى لم أمد أنا، وكنت أدور حول نفسى، وأنظر إلى الألوان الصارخة والأنسجة اللامعة. عينائى لم تعد عينائى

بل أصبحت تشبه رسومات طويلة ومقوسة على هيئة ورقة كمينى ندى، وعلى هيئة شعلة كمينى سيمون، بى تشبه التجاعيد الصغيرة الضاحكة المشابهة لركن عينى تغدير المعجزة، أو الازرقاق الدائرى العميق فى عينى حورية عندما كانت طفلتها تُولد تحت الأرض.

كنت أريد أن أتحدث مع جسدى، فأمضى نحو المرأة، على طول ممر، كأميرة فى شرفتها، وأمشى، ثم ألتفتت، أتوارك، وأشعر بالنظرات مصوبة إلى، وعدسات أجهزة التصوير غير المرئية. فى بعض الأحيان، كانت التباينات تتوقف وتنظرون إلى، أو أطفال أو فتيات مراهاقات، فذات مرة، أتت إلى إحداهن، وكان معها بطاقة صغيرة، وطلبت منى أن أكتب لها اسمى، كما لو كنت نجمة صغيرة من هوليوود، فكتبت لها: ندى مافوبيا، وكانت فى الرابعة عشرة من عمرها، طالعها جميل يشبه طالع قط صغير، وعيونها كانت كبيرة بنية فى شكل اللوز، وشعرها على هيئة ذيل الحصان، وكانت ترتدى بنطالاً من الجينز فضفاض جداً على جسدها، مستهلك من على الركبتين، وجعلتها تكتب لى اسمها على ورقة من مفكرتها: أنا.

وحتى آكل، كنت أشتري شواطر اقتصادية، وفى بعض الأحيان، كنت أذهب إلى المطاعم على طريق ويلشير هاليفكس وطريق لاسينجا، وكنت أفر قبل تقديم الحلوى ؛ وكان هناك رجال يدعوننى، فكانوا يتعقبوننى فى المراكز التجارية وأقتادهم حتى المقاهى، وكانوا يجلسون معى على المنضدة، وكنت أبتسم لهم وأعرف أننى لن أدفع شيئاً، وعندما يكتشفون أننى صماء،

كانوا يخافون، أو يصبحون أشراراً معي، وكنت أكل وأشرب، وقبل أن يلاحظون ذلك الأمر، أكون في الشارع، فأعبره مهرولة، متخذة الاتجاهات المفردة. وذات مرة، كان هناك رجل لم يسدد الحساب للمقهى، ودار ودار بالسيارة حتى عثر على، كان فارغ الطول، وسيم، حسن الملبس، ولكنه كان كالكلب، فلقد جرى نحوى ولكنني بيده فجعلني أدور على الأرض في نظارتي السوداء وحقيبتني التي تناثرت، ولم يساعدني أي شخص على النهوض من على الأرض، وعلى الأرجح أنهم كانوا يقولون في أذهانهم: "هالك، عاهرة تُصوب".

قبل مجي الظلام، كنت أستقل الأتوبيس حتى الحى السابع، وكنت أمر من أمام السائق دون أن ألقى بظاقتي، وفي بعض الأحيان، كانوا لا يقولون شيئاً، وعندما كانوا يأخذون في الغضب، كنت أقوم بحركة تدل على أنني لا أسمع وألوذ بنفسى. منجساً الليل كان عبارة عن مبنى كبير طوبى بجوار الأميديا، وكان هناك دوماً طابور من الناس الذين ينتظرون، معظمهم مثلي، جلدهم داكن وشعرهم أسود. وفي الساعة السادسة، كانت تُوزع القهوة والشطائر، وكان عنبر السيدات من الخلف، في منتصف مربع عش مُصفر، مُزين بنباتات اليُكة⁽¹⁾ في واجهة السماء المنفسجية، وكانت هناك صالة استحمام مبنية بالأسمنت المطلي باللون الرمادي، حيث تغتسل السيدات في مجموعات، ولم يكن هناك من أحد ينظر إلى الآخر، ولكنني كنت ألسح

(1) نباتات للزينة من الفصيلة الزنبقية. (المترجم)

ظهورهن النهكة، أذهمن، وجلدهن الأصفر والأشهب والأسمر المحمر، ويطونهن المحاكاة من الجروح البنفسجية، وسيقاتهن المصابة بالدوالي. وهكذا كنت لا أفكر فى شئ، ولم يكن لى وجود إلا بالعين، ثم كنت أقدحرج أسفل الماء الساخن الذى يلسدغ فمى حيث لكمضى الشاب. كنت لا أنام، أو أنام وعيونى منفرجة.

أنفذتنى الموسيقى، فلقد رأيت بيانو رائع، لونه أسود فى بيغرنى، وفى كل مرة كنت أمر من أمامه، لم يكن فى استطاعتى أن أحيل نظرى عنه. وذات يوم من بعض الظهيرة، لم يكن هناك أناس كثير، فلقد تبدل الرجل الذى كان يحرس البيانو بشاب أشقر البشرة، يضع نظارة، ذقنه صغير جداً، وكان يشبه جان فيلان، وكان يطالع كتاباً وهو جالس على المقعد.

اقتربت من البيانو، ونسيت خشبه الأسود، ولوحة مفاتيحه العاجية، ثم نظرت إلى الحارس، كان منهماكاً فى القراءة، دون أن يميزنى انتباهها. فكرت: ربما كان أصم أيضاً مثلى؟

جلست على المقعد، ثم شرعت فى العزف، وأظن أننى نسيت العزف فى الهداية، فلقد كانت أناملى تقف على المفاتيح، وكنت أسمى لإيجاد الصوت فى ذهنى، وكنت أدندن وأتمتم، وكنت أميل برأسى إلى جانب حتى أسمع الأصوات كما كانت تفعل سيمون عندما كانت تعلمنى. ثم فجأة، بدأت أسترجع. كانت أناملى تهوول على لوحة المفاتيح، كنت أجد الإيقاع والألحان، وأמיד تشكيل اللحن، وكنت أعزف لبيلس، وأعزف لجيمس

هندريكس مقطوعات منفصلة وهاربة، وأعزف كل ما كان يأتى فى ذهنى دون نسق ودون أن أتوقف، وكنت أرتجل كما كنت أفعل فى شيكاغو، وكما كنت أفعل فى منزل لابييت أوكارى، وكنت أعود للوراء، وأستعيد اللحن، وكنت لا أشعر بنفسى، وكانت الأصوات تنبثق خارج سمعى، من فمى، من يدى، من جوفى. لم أكن أرى شيئاً، كانت روحى فى علبه البيانو، وفمى متشاب، وبعثنى ترن، وحلقى، وحتى ساقى، كما لو كنت أسير فى خارج المنزل تحت أشعة الشمس، وكما لو كنت أهول.

الآن أنصت الموسيقى، ليس بأذنى، ولكن بكل جسدى، رعشة تغلفنى، تتدحرج على جلدى، تؤلمنى حتى فى أعصابى، حتى فى عظامى. الأصوات المتعذر سماعها تصعد فى أناملى، تختلط بدمى، بنفسى، بالعرق الذى يسيل على وجهى وفى ظهرى.

اقترب منى الحارس الشاب، ووقف منتصباً، منكمشاً قليلاً، ولم يكن بوسعى رؤية وجهه، ولكننى رأيت أن كثيراً من الناس كانوا يقفون فى الصلاة، فى مدخل المتجر، وكان هناك أطفال جالسون على الأرض، وأزواج متشابكون، وشيوخ فى ملابس رياضية يتذوقون مشروبهم. وفى لحظة ما، رأيت الفتاة الشابة التى كانت قد طلبت منى أن أكتب لها اسمى فى مفكرتها الشخصية، أنا، كانت فى داخل المتجر، جالسة على درجة سلم الحاجز، كما فعلت أنا المرة الأولى التى سمعت فيها سارا، فى فندق الكونكور، بمدينة نيس.

من أجلهم وأجلها، كنت أعزف، فلقد عثرت على موسيقاي، وبق
الطبول الصامت في محطة ريومير - سيبيستوبول، ومحطة توليباك، ومحطة
أوسترليتز، وصوت سيمون الذي كان ينشد سفر العودة نحو ساحل أفريقيا،
وصفارات رجال الشرطة وضربات العصي التي كانت تفرع السيدور، في شارع
روبنسون في شيكاغو. لم يكن الأمر بالنسبة لي أن أعزف الموسيقى من أجل
أنا في هذه اللحظة، فلقد أركت أدنى أعزف من أجلهم جميعاً، هؤلاء الذين
كاثوا يصطحبونني: أناس أسفل الأرض، سكان كسهوف شوارع جفافلو،
المهاجرين الذين كانوا معي على ظهر الزورق، على طريق فال دي الران،
وأبعد من ذلك أيضاً: الناس في سويقة دوار تهريكة الذين كانوا ينتظرون عند
مصب النهر، الذين كانوا يشاهدون بشكل لامتناهى خط الأفق كما لو كان شيء
ما سيبدل حياتهم، ول هؤلاء جميعاً. وفجأة، فكرت في جنيني الذي أخذته
الحمى، ومن أجله هو أيضاً كنت أعزف حتى تلقاه موسيقاي في المكان السري
الذي هو موجود فيه.

أستنى الموسيقى، كنت أسمعها تمر على جلد وجهي كما يشعر
الكفيف بخشخشة الشمس وخرخرة البحر الهادئة، شعرت بالدموع تفيض
من عيني، وكانت هذه هي المرة الأولى منذ زمن بعيد، منذ أن تجمد الحاج
مافوبا بمفرده في فراشه في إيفري - كوركورون.

كان بوسعي أن أعزف كذلك حتى نهاية حياتي، شعرت بأهدى
الحراس التي كانت تنهضني برفق، فمددت يدي ثانية نحو لوحة المفاتيح،

ولكن فجأة، لم يكن هناك شئ إلا الصمت ؛ وببطء شديد كالعطوف، حملننى الحراس على طول الصالة، وكان الناس على الجانبين يصفقون فى صمت، وسارت الشابة أنا خلال لحظة بجوارى، ولم تكن تصفق، ولم تكن تتحدث، مدت يدها نحوى فحسب، وكان وجهها كوجه القط الصغير على مقربة منى، وفى لحظة رأيت عينيها الممتدتين اللتان كانتا تلمعان من البكاء. وضعنى الحراس فى شاحنة صغيرة بيضاء، وفى مؤخرة الشاحنة، كان هناك رجل مسن يشبه السيد رشدى، أستاذ مكتبتى، وضعنى إليه كما لو كان يعرفنى، وكنت متعبة للغاية إلى حد أننى تركت نفسى، ووضعت رأسى على كتفه، وأظن كثيراً أننى نمت.

نهاية، الآن أنا فى مأمن، أجلس فى الجو النعش فى حجرة صغيرة نظيفة يحميها بإحكام من الشمس توجهها نحو الشمال ؛ ولم تكن هناك من نافذة، فقط كوة باب مسيجة فى أعلى الحائط الذى لا يرى منه سوى السماء الزرقاء فى هذه الآونة . وبجوار الفراش، كان هناك مقعد بلاستيكي ومنضدة ليلية تخفى حوضاً، وفى أحد الأدراج، أضع الحقيبة السوداء التى رحلت بها من سان بيرناردينو، تضم كل أشياءى، النظارة السوداء وقبعتى التى شبكت فيها قرطى الهلال الأخير.

فى كل صباح، كان يعودنى الأستاذ، ولم أكن أعرف إن كان بحق أستاذ، ولكننى أسميه كذلك كذكرى للسيد رشدى العطوف الذى كان يذهب إلى المكتبة التى كنت أرتادها بالقرب من المتحف، وأسلمه بأسلوبى فى

الضحك بالإنجليزية والفرنسية والأسبانية. لم يكن يتكلم، بل كان يطرح على أسئلة مدونا إياها على أوراق كبيرة الحجم ينزعها من مفكرة، وكان يكتب بنوع من العصبية بأحرف كبيرة مثل: "حالتك النفسية ؟ طبعك المسكر المفضل؟"، ولكنه كان يود كثيراً أن يعرف من أين أتيت، ماذا حدث لي، عائلتي، واسم الرجل الذي جعلني حُبلى.

عندما كان يطرح على أسئلة حول أسرتي، كنت أقول كلمات يقرئها بانتباه، وكأنها لغز: ندى، سارا، أنا، ماجدة، ماريكة. وكان يظن أنني مكسيكية أو هايتية، ربما غينية.

جاءتني شافز اليوم للمرة الأولى، ولا أعرف كيف عثرت على مكانى، فربما دلتها بطاقات المستشفى، أو لربما قرأت في الصحيفة الإقليمية مقالاً مع صورتي في عنوان جذاب: "هل تعرفونها ؟"

لم تكن ترتدى ذى الموضة، ولكنها كانت ترتدى بنظراً فضفاضاً وقميصاً مُشجراً يشبه قميص امرأة حُبلى وكأنها تعاضدنى، أتصور ذلك. تعانقنا كما لو كنا صديقتين بينهما صداقة قديمة، ثم جلست على المقعد وجلست أنا على الفراش، وتحدثنا وضحكنا كثيراً، ثم خرجت بي إلى الحديقة. وفي هذا المكان، الذى لا يشبه سان برناردينو، نحن فى مونت زبون، فى بيفرلى، وهناك نخيل وأوراق فى كل مكان، عشب شديدة الخضرة، ونقود، ليس هناك أسوار ولا حراس، وبوسمى أن أسير وأرحل، وربما لهذا السبب بقيت فى هذا المكان.

كل صباح، كانت شافز تأتي إلى هنا مع الأستاذ، وعلى الأرجح أنها طلبت أجازة حتى تتغيب عن عملها، أو لربما أنا عملها، وكنا نصعد في سيارة الأستاذ، أو نتجول في الشوارع بالمصادفة؛ وكان يطرح عليّ أسئلة، ويدونها دوماً في مفكرته، فيود أن يعرف من أنا وماذا فعلت وأين تعلمت المرف على البيانو. عدنا معاً إلى المركز التجاري أمام البيانو، ولكن لم يوحى ذلك لي شيء، فلقد تبدل الحارس، ولم يعد هناك الشاب الذي كنت أحبه كثيراً، وكان البيانو ضخماً، يقف بمفرده وسط المتجر، كآلة جهنمية. حينئذ، حملتهما إلى إحدى المكتبات لكي نشترى مجلات موضة، وتصفحنا كتباً بالصدفة؛ وفجأة، تعرفت على صورة الأستاذ على غلاف كتاب فلسفة، وكان عنوان الكتاب "هيبنوس وتانتوس"، شيء من هذا القبيل، وكان مكتوباً أسفل العنوان، أدوار كلان، وكنت سعيدة لمعرفة اسمه، فبدأ متضايقاً لحد ما، ولكنه كان سعيداً أيضاً، وكانت له ابتسامة صغيرة، وكانت لديه الرغبة في أن يقول: "نعم، ها أنا ذا"، وبعد ذلك أعطاني كتابه مدوناً عليه إهداء: "إلى عزيزتي المجهولة".

وذاث يوم من بعد الظهر، فُتح باب غرفتي في زيون فرأيت مستقروا؛ ومع ذلك، لم يدهشني هذا الأمر، فلقد بلغت نقطة حيث كل شيء يصبح في آن واحد عادياً بشكل غريب وبدون سبب على الإطلاق.

وكما إن لكل شيء تفسير، أقول إنها ندى شافز هي التي دلته عليّ، ففي كتابي "المعذبون في الأرض"، كنت قد نسيت نسخة من عقدي مع كانال،

فهمت إلى شيكاغو ثم جاء مستر لسروا في الطائرة التالية، وهو يحمل إلى دعوة لمهرجان الجاز بمدينة نيس، وسيروى في هذا المهرجان كل شيء، حتى صماء تعزف على البيانو. وبنفس الاندفاع الصادق والأخرق، طلبت شافيز من المعلومات رقم هاتف جان فيلان، وسبب ذلك بلا شك حكاية مع انجيلينا، لأنه وصل في اليوم التالي، وكان من الجائز أن يترك الطبيبة الليتوانية، والله شهيد على أنني لم أسأل أحدا شيئا.

عدت باسم آخر ووجه آخر، ومنذ زمن بعيد وأنا أنتظر قدوم هذه اللحظة، إنه الانتقام، فلقد أعددت له كل شيء حتى يتم، وربما فعلت ذلك دون أن أنتبه، وكأنت سيمون التي كانت على علم بهذا الأمر، تقول يوما إنه ليس هناك شيء يحدث بالصدفة.

في مدينة نيس، حجزت لي لجنة تنظيم المهرجان غرفة في فندق على شاطئ البحر حيث كان هناك تمثال المرأة البرونزية التي تسعى إلى الفرار من الحوائط التي تحطمها، وكان البيانو لا يزال هناك على المنصة، وكان هناك صوت ينشد على نغمة موسيقى بيلى هوليدى على الأرجح. وحين جاء الليل، غنيت أنا أيضا أغنيتي من فوق المنصة. كنت أسير في شوارع نيس في الجو الخانق اللامعقول، أسفل سماء شهباء رصاصية اللون، كما لو كان في استطاعتي أن أعرف على شيء ما. كان الشاطئ الكبير المليء بالحمى أسودا من الناس، وكانت الشوارع مزدحمة بالسيارات، وفي كل مكان في المدينة، كان هناك حشد منهك ومتوقف.

ومن المكان الذى كنت أدلف مع جيانيكو فيه، استقلت أتوبيسا على طول السيل الجاف حتى أعمدة الطريق السريع، ثم بحثت عن مدخل المعسكر. كان يبدو على أننى غدوت شخصا آخر لأننى ما إن عبرت بوابة المعسكر بين الأسلاك الشائكة، حتى سد طريقى رجل بشاحنته الصغيرة، ونظر إلى نظرة استغراب وخبث، وعندما لفظت أسم رامون يرسى، سخر منى وقال للآخرين شئ لم أفهمه، اسم لفظه بتشوه: "روسو، روسو"، ثم جاء رجل آخر طويل وأنيق على الرغم من ملابسه المستهلكة، له شارب صغير، أشار لى أنه ليس هناك أحد وأن كل الناس رحلوا، ثم اصطحبنى إلى مدخل المعسكر.

حاولت أن أهتف إلى جان كسى أقول له أن يأتى على الفور، كى أحدثه فى أمر طفل ننجبه منذ عودتى، ولكن بسبب فارق التوقيت، لم أتمكن من الحديث إلا لآلة الرد التليفونى، ولم أعرف ماذا أقول له، فقلت أننى سأهتف إليه ثانية. كنت أتقيا، وكان هناك ألم يلم بخاصرى، فتذكرت حورية، عندما كانت تسير فى الجبل والجنين فى بطنها، فلماذا لم تكن لدى نفس الشجاعة فى حين أنه لم يعد فى بطنى شئ؟ . فجأة، خفقتنى الموسيقى، كنت أريد الصمت فحسب، الشمس والصمت.

تركت رسالة للجنة تنظيم المهرجان، قلت فيها أننى لغيت كل شئ، وتركت الفندق بعد الظهر واستقلت قطارا ليليلاً إلى سيرير⁽²⁾، ثم إلى

(2) منطقة فرنسية فى جبال البرينيه الشرقية تقع على الحدود مع أسبانيا. (المترجم)

مدريد، ثم إلى الجزيرة⁽³⁾، وكان الوقت وقت الإجازات الصيفية، فكان هناك سياح في كل مكان، وكانت الفنادق ممتلئة. في الجزيرة، أمضيت يومين بمقر توقف سيارات كان كثير الأتربة، وكان يمسح بالسيارات المتوقفة والأكواخ. نمت على الأرض، ملفوفة في غطاء، واقتسمت الماء والفانتا والخبز مع أسر مغربية. كان أطفال الأسرة يلعبون بين السيارات المتوقفة، وكانوا يرقصون على موسيقى مذياعهم التسجيلي. من آن إلى آخر، كان هناك حراس مدججين بالسلاح يمشون من بعيد، على الجانب الآخر من ساحة الأسلاك الشائكة، وكانت الشمس تلمع في منتصف السماء البيضاء، ولكن الليل كان رقيقاً ومنعشاً. كنا نتحدث بالإشارة، كنا نحكي قصص، وكنا نحصى الساعات والأيام على نتيجة سنوية. في البداية، كان الأطفال يسخرون مني لأنني صماء، ثم تعودوا على ذلك، وبالنسبة لهم، كنت بمثابة لعبة وليس شيئاً آخر.

في الليلة الثالثة، رحلنا في ناقلة السيارات، ولم أكن أعرف لماذا مكثت في هذا المكان، وتتبع حركات الناس دون أن أفهم. لم أكن أسمى إلى ذكرياتي، ولا إلى رعدة الحنين إلى الوطن، ولم أكن أسمى إلى العودة إلى مسقط رأسي، فلم يكن لي مسقط رأس، ولا إلى الشاطئين، فشاطئ

(3) ميناء أسباني على مضيق جبل طارق عقد فيه مؤتمراً دولياً حول مسألة المغرب عام

الحالى، هو شاطئ البحيرة الكبيرة الزرقاء أسفل رياح كندا الباردة، بل على الأرجح كان ذلك الأمر خيطا يمتد حتى مركز جوفى ويشدنى نحو مكان لا أعرفه.

سافرت فى سيارة نحو الجنوب، وكانت هناك سائحات ألمانيات ترتدين الشورت، وسائحات فرنسيات تضعن قبعات فوق رؤوسهن، وسائحات أمريكيات تنتعلن أحذية التونجز، فلقد تقاطعت معهن فى الطريق، ثم سرن فى اتجاه آخر . وفى مراكش، استقلت أنوبيسا نحو الجبل ورحلت السائحات نحو البحر، إلى أغادير، اساويرا، وإلى تنسن بلانج.

فى منطقة زين تشيكا، بينما كان سائق السيارة يرتشف الشاي، اشتريت من شلوح⁽⁴⁾ حجر أمونتى لجان، وبما أن الحجر كان ثقيلًا جدا لكى أحمله فى حقيبتي، أعد لى الشلوح حقيبة ظهر من حقيبة صغيرة مصنوعة من زعف النخيل، فلقد كان قويا وضخما، بشرته حمراء كهنود أمريكا، وكان يرتدى معطفا كبيرا من النسيج المسح، وأبان لى عن بطاقة بريدية أرسلها له أخوه من أمريكا، من قرية فى الغابة فى ولاية واشنطن.

(4) الشلوح هو اسم قبائل بربرية فى جنوب المغرب. (المترجم)

هكذا وصلت إلى قوم - زقود⁽⁵⁾. وإلى الجنوب منها، كان هناك طريق يؤدي إلى تاتا⁽⁶⁾، وإلى الشمال كان هناك طريق آخر يؤدي إلى زاجورا⁽⁷⁾؛ وإلى الأمام، ليس هناك سوى المناطق التي حفرتها الشاحنات وأثر سير الماعز والإبل، وهناك الأرض الشاسعة الخشنة المكشوفة، والأبيرة الجافة، والأكواخ الطينية والحجرية التي تشبه أعشاش الزنوبر.

هكذا وصلت إلى هنا، لا أريد أن أمضي أبعد من ذلك، وكأنني وصلت إلى شاطئ بحر أو إلى شاطئ مصب دون نهاية.

تركت حقيبتي والحجر الأمني في حجرة في القرية، وللمرة الأولى، أردت أن أطرح سؤالاً - أحتفظ به في قمي منذ زمن بعيد - على المرشد الذي اخترته في الفندق: "هل أختطف طفل هنا منذ خمس عشرة سنة؟"، لكنني لم أقل له شيئاً. على أية حال، كنت أعلم أنه لن تكون هناك إجابة. ومنذ أن عدت إلى هذا المكان، تحسنت أذني، ولكن هل سمع أصوات وكلمات للغة ما يعد أمراً كافياً للفهم؟

الناس هنا، الناس الذين أراهم، وأناس القرى الذين لم أراهم، يتبعون هذه الأرض بنفس الدرجة التي لم أتبع بها أنا أي مكان على الأرض؛

(5) منطقة مغربية. (المترجم)

(6) منطقة مغربية. (المترجم)

(7) منطقة مغربية. (المترجم)

فهم يحاربون، وتملك البعض أرضا لم تكن ملكا لهم، وحفروا الآبار في الأماكن التي ليست ملكا لهم.

الناس هنا، أهل اساكاء، أهل نخيلة، أهل الوجوم، أهل ولد عيسى، أهل ولد هلال، ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟، يتقاتلون، وهناك الجرحى، والموتى. النساء تبكين، وهناك أطفال يختفون. هذه هي الحقيقة، فماذا بوسعنا أن نفعل؟

ها أنا مطمئنة هنا الآن، الضوء الذي يحدثه السميت ناصع البياض، والشارع متصحر للغاية، والضوء يجعل الأعين تزرف دما، والرياح الحارقة تدخرج الثرى على طول الحواشي؛ ولكي أقاوم الريح والضوء، اشتريت حيكاً⁽⁸⁾ أزرق مثل نساء هذه المنطقة، وغلفت جسدي تاركة فحسب فتحة لعيني. في جوفى، يبدو لي أنني أشعر بالضربات الخفيفة لطفل سأنجبه وسيعيش، فمن أجله هو أيضا أتيت إلى هنا في نهاية الدنيا.

راح المرشد نفسه يتبعني في ذهابي وإيابي على طول الطريق المتصحر، وجلس على حجر في ظل حائط ليدخن سيجارة إنجليزية وهو يراقبني من بعيد. ليس من أهل ولد هلال، ولا أهل عيسى، ولا رجلا ظالما من أهل خيربوجا، بل هو فارع الطول للغاية، يبدو عليه كثيرا أنه قادم من المدينة، من مدينة زغورة، أو من مراکش، أو ربما من الدار البيضاء أيضا.

(8) ثوب لونه أبيض عادة، اعتاد رداؤه الناس في بلاد المغرب العربي. (المترجم)

بعيدا، في نهاية الشارع، أمام المنزل الأخير حيث تبدأ بعده الصحراء، تجلس امرأة عجوز على مقعد، وترتدى اللون الأسود أمام باب فنائها الخالي، لا تخفى طالعها بحجاب، فطالعها أسود ومجعد يشبه جلد قديم محروق، نظرت إلى وأنا قادمة إليها دون أن تغض البصر، نظرتها قاسية كالحجر، وتبدو أكبر عمرا وأقسى من الحجر الأمونييتي الذي ابتاعته لجان، إنها هلالية حقيقية، من الناس الذين يشبهون هلال القمر.

جلست بجوار العجوز، كانت قصيرة جدا، نحيفة جدا، تصل بالكاد إلى كتفى، كالطفلة. كان الشارع خاويا تسلكه شمس الصحراء، وكانت شفاهي جافة ومتشققة، ومنذ قليل عندما مررت عليها راحة يدي، رأيت دم. كانت العجوز لا تتحدث معي، ولم تتحرك عندما جلست بجوارها، ونظرت إلى فقط بوجهها الجلدى الأسود، وكانت عيناها لامعتين وسائلتين وفيتيتين جدا.

لست في حاجة كي أذهب أبعد من ذلك. الآن، وصلت في النهاية إلى نهاية رحلتى. أظن هنا، وليس في أى مكان آخر، هنا الشارع الأبيض المشابه للملح، الحيوانات الساكنة، صرخة الغراب. هنا اختلطت منذ خمسة عشرة عام، منذ الخلود، على يد شخص من عصابة خريوجا، وهى عدو لعشيرة هلال بسبب حكاية ماء، حكاية بئر وانتقام. عندما تلمس البحر، فإنك تلمس الشاطئ الآخر، وهنا، عندما أضع يدي على تراب الصحراء، فأنى ألمس الأرض التى ولدت فيها كما ألمس يد أمى.

سيميل جان غندا، فلقد تلقيت تلفرافاً من فندق كازا، والآن أنا
 طليقة، وكل شيء يمكن أن يبدأ، مثل جدى الشهير بسلال - وهو إحدى
 الشخصيات المعروفة - العبد الذى أعتقه النبى ودفعه إلى الدنيا. خرجت الآن
 من زمن البحث عن الأسرة، وأدخل الآن فى عصر الحب.

قبل أن أنصرف، لمست يمد العجوز الملاء القاسية وكأنها
 جسر التقط من قاع البحر، مرة واحدة فحسب، بحركة خفيفة حتى
 لا أنساها.



الفهرس

5	تصدير
13	الملاح
34	السوق القديم
59	حي المحيط
73	نوار تبريكة
100	باريس
143	28 شارع جافلو
219	نيس
247	بوستن
274	عشيرة هلال



المنيا - شاهين - 6 ش أحمد عرابي
المنيا - عدنان المالكى - 6 ش 15 - دقة 1
ت 086/354576 - 012/3454568
فاكس 086/346713

دار الإقبال للطباعة

ت : ٢٦٤٠٨٢٥ - ٢٦٨٥٦٢٨ - ٥٢٤٢٣١٤

نفسك من ذهب

التناص أو التعددية اللغوية مصطلح نقدي ، يعني تعدد الأصوات اللغوية بما يصاحبه من تعدد الأطروحات الحضارية وتباينها في نسيج العمل الأدبي الواحد ، وقد كانت هناك أكثر من محاولة في عصرنا الحديث لتحقيق تلك التعددية اللغوية في نصوص بعض أعظم أدباء العالم وأقدرهم علي فهم المحيط الأنساني والتعبير عن خصوصيته القومية ، غير ان ذلك المشروع التأسيسي قد شارف علي الاندثار من جراء تيار « القومية » ونمو الشعور المرضي بالعنصرية الشاذة

وتعد رواية « سمكة » من أهم الأعمال الأدبية التي تمثل ظاهرة التعددية اللغوية ، كان الباحث إلي إقناعنا علي تعريبها ، هادفاً من جعلها أقرب إلي القارئ العربي فعلي الرغم من مكانة « لوكازيو » في الأوساط الأدبية الغربية التي شهد أحد أهم أدباء فرنسا في القرن العشرين ، وبالرغم من اهتمامه بالثقافة والحضارة بلادنا ، لا نحسبه قد نال بعد حظه من التواصل مع القارئ العربي



To: www.al-mostafa.com